

الجهاد في سبيل الله

تأليف

الدكتور كامل سلامة المقدس

الأمين العام المساعد لشؤون الجامعات
برابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة

مؤسسة علوم القرآن
بيروت

دار القبلة للثقافة الإسلامية
جدة

ابحادي في سبيل الله

جَمِيعُ الحُقُوقِ مَحْفُوظَةٌ
الطبعة الثانية
١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م



دار القبله للثقافة الاسلاميه

المملكة العربية السعودية - جدة - ص.ب. ١٠٩٣٢ - ت: ٦٧١ - تليكس: ٤٠٠٨٠ - دلة.س.ج



مؤسسة علوم القرآن

سوريا - دمشق - شارع مسلم البارودي - بناء خولي وصلاحي - ص.ب. ٤٦٢٠ - ت ٢٢٥٨٧٧ - بيروت - ص.ب. ١٣٥٢٨١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله الذي فرض علينا الجهاد، وأمرنا بالإعداد، ووعدنا النصر والتمكين والتأييد، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وخاتم النبيين، وقائد الغر المحجلين الذي جاهد في الله حق جهاده، حتى جاءه نصر الله، والفتح المبين.

وبعد: فالإسلام دين الجهاد، كما هو دين السلم والأمان، فليس الإسلام دين الاستسلام، وليست الفضيلة هي الركون إلى الدعة والمعيشة الذليلة. وإن الدارس المتأمل للإسلام يستطيع أن يقرر أن الحياة هي الجهاد وأن الجهاد هو الحياة، لأن الإسلام امر أتباعه بأن يكونوا دائماً في جهاد وعلى جهاد. أمرهم بأن يكونوا على جهاد قبل أن يلقوا عدوهم فقال ﴿واعدوا لهم ما استطعتم من قوة...﴾ وقال ﴿خذوا حذرکم...﴾ وأمرهم بالجهاد حين يلقون عدوهم فقال: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾. وقال: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم﴾. وأمرهم بمجاهدة أنفسهم وشياطينهم بعد الخروج من المعركة فقال: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾.

ومن هنا - نعلم - أن الجهاد يتسع حتى يشمل النفس بعواطفها ومشاعرها ومعنوياتها ويشمل المال باعتباره قوة تهيء السلاح والعتاد، ويشمل اللسان باعتباره وسيلة الحوض على الجهاد والاستشهاد. فقال ﷺ: (جاهدوا الكفار بأنفسكم وأموالكم وألستكم).

فالرسول القائد ﷺ لا يقصر الجهاد على بذل الدم والشهادة وإنما يوجه إلى

مجاهدة النفس بتصفيتها وتطهيرها وتسليحها بحقيقة الإيمان بتحليلتها بالفضائل وتخليتها من الرذائل حتى تكون لله وباللّه وفي سبيل اللّه .

كما أن الجهاد بالمال واللسان والسيف يكون رداءً لهذه النفوس القوية الثابتة على الحق المؤمنة بوعده الواثقة بتأييده . ولهذا نرى في حديث القرآن عن الجهاد عجباً، إنه لا يكاد يتحدث عن الجهاد إلا ويشير إلى الإيمان إما في بدء الحديث أو في خلاله أو في بدئه ونهايته، فالله تعالى يقول :

﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور﴾ ، فعلق دفاعه على أن يكون هناك مؤمنون يستحقون هذا الدفاع الإلهي العظيم، وعندما تحدث القرآن عن وعد الله الأكيد الذي يوفى به خير الوفاء قال : ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ . وما يكاد يتم هذه الآية (آية العقد) حتى يعرض عقبها في آية أخرى مظاهر هذا الإيمان فيقول : ﴿التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين﴾ . فبدأ حديث الجهاد هنا بالإيمان وختمه بالإيمان ﴿وبشر المؤمنين﴾ . فلا يتحقق الإيمان إلا بالجهاد . ولا جهاد بدون إيمان . ﴿قالت الأعراب أمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم . . . إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾ . . .

ولقد وعد الله تعالى المؤمنين الصادقين بالنصر والتأييد والتمكين وجعل نصرهم على أعدائهم سنة كونية ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ما قام المسلمون بموجبات النصر ﴿إننا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ . ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين أنهم لهم المنصورون . وأن جنودنا لهم الغالبون﴾ . . . وقوله تعالى : ﴿ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً . سنة الله التي قد خلت من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ .

فالجهد في سبيل الله هو أقصر طريق لتحقيق النصر والتمكين في الأرض، كما قال تعالى ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم . . .﴾

وبعد: فإن تبدل حال المسلمين اليوم من الانتصارات الرائعة التي شهدتها سلف هذه الأمة إلى الهزائم المتلاحقة، هو بسبب ترك الجهاد، وحب الدنيا وكراهية الموت، والمعاصي والآثام، فالأمة التي تترك جهادها - (وهو طريق نصرها) - وتعصي ربها، تهون على الله، وتستحق عقوبته، ويسلط الله عليها من يسومها سوء العذاب، ولعذاب الآخرة أذى لو كانوا يعلمون . . .

لقد انتصر السلف الصالح لأن كل فرد منهم كان جندياً مجاهداً في سبيل الله بماله ونفسه، وفرق بين أن تكون الأمة كلها مجاهدة وبين أن يخصص قوم للقتال، والذي حدث أن الأمة الإسلامية نسيت الجهاد قروناً طويلة واستنامت للراحة وعرفت المتاع والترف بل إنها قطعت ما بينها وبين الله - إلا ما رحم ربي - وكيف يمكن أن يكون هناك جهاد في الميدان وفي الداخل تعيش جماهير غفيرة وملايين كثيرة تعصي الله جهرة، وتقارف الخطايا بلا استحياء؟ وكيف يمكن أن تخوض أمة معركة فاصلة في حياتها ومعظم أفرادها لا يستريحون إلا إذا وفروا لأنفسهم هذه الأجواء الرخيصة من الخطايا والآثام؟

كيف يمكن أن تحقق الأمة أهدافها وترضي ربها وهي ليست جيشاً واحداً وليست قلباً واحداً على ضمير دينها وعلى صراط ربها؟

إنني أقدم كتابي هذا (الجهاد في سبيل الله) في ثوبه الجديد لجماهير الأمة لعل الله يبعث فيها روح السلف الصالح، فتكون خير خلف لخير سلف، وأهلاً لنصر الله: ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ . . .

المؤلف

مفهوم الجهاد في سبيل الله

الجهاد في اللغة: بذل الوسع والطاقة، أو المبالغة في العمل من الجهد. قال صاحب لسان العرب^(١): (جاهد العدو مجاهدة و جهاداً قاتله. وهو المبالغة واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قوة أو فعل).

وجاء في كتاب المغرب^(٢): (الجهاد مصدر جاهدت العدو إذا قابلته في تحمل الجهد أو بذل كل منكما جهده أي طاقته في دفع صاحبه، ثم غلب في الإسلام على قتال الكفار ونحوه).

وقال الراغب في مفردات القرآن^(٣): (والجهاد والمجاهدة: استفراغ الوسع في مدافعة العدو).

وإذا كان الجهاد في أصل اللغة هو مقاومة العدو، فمن هو هذا العدو؟

قال الراغب^(٤): (والجهاد ثلاثة اضرب مجاهدة العدو الظاهر، ومجاهدة الشيطان ومجاهدة النفس).

(١) لسان العرب: لابن منظور، مادة (جهد) (١٠٩/٤) وانظر القاموس المحيط (٢٨٦/١)

وصحاح الجوهري (ص ٢٣٠).

(٢) المغرب في ترتيب المعرب لأبي الفتح ناصر بن عبد السيد علي المطرزي (ص ١٠٠).

(٣) المفردات في غريب القرآن (ص ١٠٠).

(٤) المفردات (ص ١٠٠).

وتدخل ثلاثها في قوله تعالى: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾ (١).

وقد فسر الإمام القرطبي (٢) (حق جهاده) بامثال جميع ما أمر الله به، والانتهاه عن كل ما نهى الله عنه، أي جاهدوا أنفسكم في طاعة الله وردّها عن الهوى وجاهدوا الشيطان في رد وسوسته، والظلمة في رد ظلمهم، والكافرين في رد كفرهم). أو بأموالكم وألستكم وأنفسكم كما قال ابن كثير.

وكلمة (جهاد) جاءت في القرآن الكريم شاملة لكل أنواع الجهاد، فتناولت بذل الجهد بقوة مطلقاً في سبيل نصره دين الله الحق، سواء أكان هذا الجهد يبذل المال أو النفس، أو بمجاهدة الشيطان والنفس بصفتهما عدوان للإنسان يعوقانه عن الجهاد بالمال والنفس، ولا يتمكن الإنسان من جهاد العدو الظاهر قبل مجاهدة العدو الباطن (النفس والشيطان).

ولذا فقد عني القرآن الكريم والسنة المطهرة بتربية النفس على الجهاد بمعناه الشامل الواسع، فاستعمل التعبير القرآني كلمة (جهاد) التي وردت أكثر من اثنتين وثلاثين مرة، في حين أن كلمة (حرب) لم ترد أكثر من أربع مرات وجاءت بمعنى (القتال)، واستعمال السلاح. أما كلمة (الغزو) فلم ترد إلا مرة واحدة.

فما سر اختيار القرآن الكريم لكلمة (الجهاد) على كلمة (القتال) أو (الغزو) أو (الحرب)؟؟

(١) الحج : ٧٨ .

(٢) تفسير القرطبي (١٢/٩٩).

الذي يتراءى لنا من خلال دراستنا للآيات القرآنية والأحاديث النبوية أن كلمة (حرب) كانت ولا تزال تطلق على القتال الذي يشب لهيبه وتستعر ناره بين الرجال والأحزاب والشعوب لمآرب شخصية وأغراض دينية، والغايات التي ترمي إليها أمثال هذه الحروب لا تعدو أن تكون مجرد أغراض شخصية أو اجتماعية لا تكون فيها رائحة لفكرة أو انتصار لمبدأ.

ولما كان الجهاد الإسلامي ليس من قبيل هذه الحروب والمنازعات والصراعات فقد اختار القرآن تعبيراً مخالفاً لكل ما كان ولا زال متعارفاً عليه بين الناس وهو (الحرب) أو (القتال) فاستعمل هذه الكلمة المعبرة الجامعة لكل أنواع الجهاد التي يرضاها الله تعالى ويرغب المؤمنون فيها وهي كلمة (الجهاد في سبيل الله).

فقد وردت كلمة (الجهاد) وكلمة (القتال) المرادفة لها مقيدة بعبارة (في سبيل الله) في أكثر من خمسين مرة تقريباً: نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى: ﴿يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾ (المائدة: ٥٤) ﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ (الأنفال: ٧٢) ﴿انفروا خفافاً وثقلاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ (التوبة: ٤١) ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ (البقرة: ١٩٠) ﴿فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ (النساء: ٧٤).

وهكذا، فقد جاء هذا القيد (في سبيل الله) مقروناً دائماً وأبداً بالقتال ببذل النفس مطلقاً، وببذل المال وبالهجرة والموت وكل عمل

يبدله المؤمن يجب أن يكون في سبيل الله، بنية خالصة مخلصه، وإلا فلن يكون جهاداً في سبيل الله، وسيكون في سبيل الشيطان: ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت . . ﴾ (النساء : ٧٦) فهما سبيلان: إما في سبيل الله، وإما في سبيل الشيطان، ولا سبيل ثالث لهما.

فالقتال والقتل والموت يجب أن يكون في سبيل الله حتى يكون المؤمن مجاهداً، ويستحق هذا اللقب، إذا عاش ويستحق لقب (الشهيد) إذا مات. ﴿ولئن قتلتهم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون﴾ (آل عمران : ١٥٧).

(والهجرة) من الأوطان، ومفارقة الأهل والخلان يجب أن تكون في سبيل الله حتى ينال المهاجر الأجر والثوبة من الله، وإلا فهجرته في سبيل الشيطان، قال تعالى: ﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة﴾ (النساء : ١٠٠) وقوله: ﴿فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله﴾ (النساء : ٨٩).

وقد وعد الله تعالى هؤلاء جميعاً بأعظم الأجر، وأجزل المثوبة فقال عز من قائل: ﴿فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله، والله عنده حسن الثواب﴾ (آل عمران : ١٩٥).

ومن كل هذا يتضح لنا جلياً أن الجهاد بالمال والنفس يجب أن يكون في سبيل الله، وأن الهجرة والإخراج والإيذاء يجب أن يكون في سبيل الله، وأن القتل والموت يجب أن يكون في سبيل الله وأن التنويه

بالمجاهدين الذين يجاهدون في سبيل الله ، والتنديد بالقاعدين المتخلفين
عن الجهاد في سبيل الله .

فما هو (سبيل الله) وما معناه؟

لقد فسر الرسول ﷺ (سبيل الله) بكلمته، ودعوته، ومبادئه
ومنهجه، إذ روى الإمام البخاري في صحيحه أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ
فقال: الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى
مكانه فمن في سبيل الله؟ قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو
في سبيل الله» .

وقال ﷺ مبيناً متى تكون الهجرة في سبيل الله، ومتى تكون في
سبيل الدنيا والشهوات والأهواء .

قال ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى فمن
كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته
إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه) .

فسبيل الله بحسب القرآن الكريم والسنة الشريفة هي: الطريق
الموصلة إلى مرضاته، وطاعته، وإنما قيل للجهاد في سبيل الله لأنه
طرق ثواب الله عز وجل، بقتال أعداء الله، ورد اعتدائهم، أولئك الذين
هددوا أمتنا، أو أغاروا على حدودنا، أو نهبوا أموالنا، وتلتقي عبارة (في
سبيل الله) مع (الصراط المستقيم) وكلاهما بمعنى ما رسم الله تعالى
لعباده من الإيمان بالحق والدعوة إليه وعمل الخير والحث عليه، بإعلاء
كلمة الله، وتأييد الحق وإحلال الخير والصلاح محل الشر والفساد،
ووضع العدل والرحمة موضع الظلم والقسوة .

ومن هنا نرى أن القرآن الكريم يجعل (سبيل الله) مرادفاً لمعنى طريق الله ودعوته ودينه وتعاليمه الإيمانية والأخلاقية والاجتماعية والإنسانية والتهديبية التي احتواها القرآن وهدى إليها الرسول عليه الصلاة والسلام. وبعبارة ثانية الدعوة الإسلامية نفسها.

فالقتال في سبيل الله هو: القتال لإعلاء كلمة الله وتأمين دينه ودعوته والدفاع عن المسلمين حتى لا يفتنوا في دينهم، وتمكينهم من نشر الرسالة المحمدية في حرية تامة، دون إرهاب أو خوف من أحد.

ولما كان الجهاد قد كتب على المسلمين لضمان حرية نشر الدعوة الإسلامية وصيانتها وحماية متبعيها والداعين إليها، فقد اقترنت الدعوة إلى الجهاد بعبارة (في سبيل الله).

ولكثره ورود هذا التعبير (في سبيل الله) مقترناً بالجهاد فقد ظن كثير من الناس أنه يعني الجهاد. على أن الباحث المتمعن يعرف أن (سبيل الله) أعم وأشمل من (الجهاد) لأنه يعني الدعوة الإسلامية كلها. وأن الجهاد بالمال والنفس إنما شرع من أجلها وهذا يبدو واضحاً جلياً في قوله تعالى: ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله، وهو أعلم بالمهتدين ﴾ (النحل: ١٢٥).

وقد فسر الله سبحانه سبيله تفسيراً لا يقبل الشك ولا التأويل وذلك في قوله تعالى: ﴿ قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم، ألاّ تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلاّ بالحق، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون، ولا تقربوا مال

اليتم إلا بالتتي هي أحسن حتى يبلغ أشده، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها، وإذا قلم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون، وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴿١٥١﴾ .

(الأنعام ١٥١ - ١٥٣).

بهذا البيان الواضح، والأسلوب القوي النافذ إلى أعماق القلوب والعقول معاً قررت هذه الآيات كون (سبيل الله) هو الدعوة الإسلامية بكمالها وتمامها.

هذا ولا نعرف لكلمة (سبيل الله) معنى أشمل من هذا المعنى الذي يدل على أن سبيل الله هو سبيل الحق والخير، سبيل تحقيق كلمة الله في الأرض، ورد الشاردين عنها إليها، ليتحرر الناس من العبودية لغير الله، وتصل كلمة الله إلى الناس كافة، وألاً يحول بينهم وبينه حائل، فمن وقف في طريق خير البشرية وإسعادها فهو معتد على كلمة الله، ولا بد من إزالته من طريق الدعوة لتحقيق كلمة الله، لا ليكره الناس على الإسلام، ولكن ليمنحهم حرية المعرفة واختيار ما يقتنعون به ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ (الكهف: ٢٩).

هذا هو الجهاد المشروع الذي يقره الله، ويثيب عليه أجزل الثواب، وهو - كما ترى - عمل خالص لوجه الله وابتغاء مرضاته، لا تشوبه شائبة من الأغراض النفسية والطائفية أو القومية. . فيجب ألا يكون من همّ المجاهد في سبيل الله أن ينال شرفاً أو جاهاً أو سمعة أو حسن أحداثة، وإلا أصبح جهاده في سبيل الطاغوت ﴿الذين آمنوا

يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ﴿
(النساء : ٧٦).

والقتال في سبيل الطاغوت هو تجاوز الإنسان الحد والعلو في
الأرض والإفساد فيها واستعباد الناس بالقهر والإكراه، وقد ندد الله به
وجعله شعار الكفار ودينهم .

وقد وعد الله الذين يقيمون الدين ولا يعلون في الأرض ولا يعيشون
فيها فساداً ، الدار الآخرة، وسعادتها الأبدية . فقال عز من قائل : ﴿ تلك
الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً،
والعاقبة للمتقين ﴾ . (القصص : ٨٣)

﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾
(الحج : ٤١).

وقد أخرج أبو داود والنسائي من حديث أبي رضي الله عنه بإسناد
جيد قال : جاء رجل فقال يا رسول الله أرأيت رجلاً غزاً يلتمس الأجر
والذكر ماله؟ قال : (لا شيء له) فأعادها ثلاثاً كل ذلك يقول : (لا شيء
له) ثم قال رسول الله ﷺ : «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً
لله وابتغى به وجهه»^(١) متفق عليه .

وبهذا ندرك لماذا قيد الله سبحانه الجهاد بهذا القيد (في سبيل الله)
إذ إن فيه من بعد المرمى وسمو الغاية ما فيه ، فإننا نرى كل مخلوق خلقه
الله في هذه الحياة مجتهداً في سبيل نفسه ، يواصل ليله بنهاره لإدراك
غايته والوصول إلى مرماه ، إلا المسلمين فإنهم يبذلون مهجهم وأرواحهم

(١) سبل السلام شرح بلوغ المرام (٣/٦٦).

ويجاهدون بأموالهم وأنفسهم في سبيل إقامة حكم الله، والحكم بما أنزل الله، لإقامة التوحيد في مجال العقيدة والرحمة في مجال الأخلاق والعدل في مجال التشريع.

هذا هو الجهاد الذي يريده الله، ويرضى عن الذين يفعلونه ويعدهم بأعظم الأجر والثواب، لأنه ذروة سنام الإسلام لأنه أحب عمل يتقرب به العبد إلى الله، وأحب شيء إلى الله عز وجل بعد الإيمان والصلاة. فقد روى الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال، قال رجل: (أي الناس أفضل يا رسول الله قال: مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: (مثل المجاهد في سبيل الله - والله أعلم بمن يجاهد في سبيله - كمثل الصائم القائم وتوكل الله للمجاهد في سبيله بأن يتوفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه سالمًا مع أجر أو غنيمة) رواه البخاري واللفظ له ومسلم ومالك، وأبو داود وابن حبان والبخاري وغيرهم.

ومما يساعد على فهم هذا الحديث - حديث آخر رواه الشيخان وغيرهما يبين قصته ومغزاه، فقد روى أبو هريرة (قيل يا رسول الله ما يعدل الجهاد في سبيل الله عز وجل؟ قال: لا تستطيعونه. فأعادوا عليه مرتين - أو ثلاثاً - كل ذلك يقول لا تستطيعونه وقال في الثالثة: (مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد في سبيل الله).

والحديث يقرر حقيقة عظيمة، وهي أن الجهاد عبادة كله، لا

يعدلها قيام الليل ولا صيام النهار، في قنوت وخشوع وتبتل، وفي مداومة على ذلك دون أن يلحق بالنفس ملل أو فتور حتى يرجع المجاهد من الميدان.

وعلى هذا تكون كل دقيقة يقضيها المجاهد في سبيل الله عبادة ينال عليها كريم الأجر وعظيم الثواب، وكل ما يصيب المجاهد في سبيل الله من جوع وعطش وتعب عبادة، وكل ما يحصل عليه من العدو فينال به من قوته، قتلاً كان أو أسيراً أو استيلاء على مال أو سلاح أو أرض أو غير ذلك عبادة، وكل ما ينفقه من مال مهما كان قليلاً أو كثيراً، وكل جهد يبذله في مقاتلة العدو هجوماً أو دفاعاً كل ذلك وغيره سيكتبه للمجاهد في سبيل الله، وسيثاب عليه أجزل الثواب وأحسنه. مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه، ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله، ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار، ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح، إن الله لا يضيع أجر المحسنين، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة، ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم، ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ﴾ (التوبة : ١٢٠ - ١٢١).

وهذه المنزلة العظمى التي أعدها الله للمجاهدين في سبيله لأنهم باعوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله بثمن مضمون هو الجنة مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة

والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴿ (التوبة: ١١١) .

فالجنة مضمونة للشهيد، وهذا وعد من الله تعالى أحذه على نفسه: ﴿ وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله ﴾ .

وهذا ما أشار إليه الرسول ﷺ بقوله: «وتوكل الله للمجاهد في سبيله بأن يتوفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه سالماً مع أجر أو غنيمة»، وهذا التكفل والضمان مضمون وهو الجنة .

ما امتياز دخول الشهيد الجنة؟

وربما يخطر بالبال عن امتياز دخول الشهيد الجنة مع أن غيره أيضاً يدخلها بدون جهاد وتعريض النفس والمال للهلاك؟

ولعل وجه الامتياز يتمثل في أمور منها:

ضمان الله لدخول الشهيد الجنة، فقد جاء في الحديث (لن يدخل أحداً عمله الجنة) فقال الصحابة: ولا أنت يا رسول الله؟ فكان جواب الرسول: (ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة) رواه الشيخان من رواية أبي هريرة .

فمعنى ضمان الله للشهيد دخول الجنة أنه سبحانه سيتغمده برحمته، ولعل هذا هو سر ما جاء في رواية أحمد والنسائي لهذا الحديث (أن اغفر له، وارحمه وادخله الجنة) .

وفي رواية النسائي عن ابن عمر رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ - فيما يحكيه عن ربه (ضمنت له أن أرجعه إن أرجعته بما أصاب من

أجر أو غنيمة وإن قبضته غفرت له، ورحمته) وقد بشر الله تعالى في كتابه العزيز المجاهدين بالأجر العظيم حيث قال:

﴿ وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ (النساء: ٩٥، ٩٦).

وثمة وجه آخر، وهو أن الشهداء ينالون أعلى منازل الجنة مع النبيين والصديقين والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً فالجنة درجات يتبوأ الشهيد أعلاها وليسوا مع عامة المسلمين ممن ليسوا أنبياء ولا صديقين ولا صالحين.

﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ﴾ (النساء: ٦٩).

فالذين يقتلون في الجهاد في سبيل الله تعالى لإعلاء كلمة الحق، قاصدين وجه الله تعالى بقتالهم، لأنهم شهدوا الحق وأعلنوه، وضربوا الأمثال على افتدائه بأنفسهم، يستحقون الانضمام إلى هذه الطائفة الكريمة وهم أهل الإيمان حقاً وصدقاً وهم رفقاء الخير، ورفقتهم أحسن النعم، ولذا قال سبحانه: ﴿ وحسن أولئك رفيقاً ﴾ كما أن الشهداء يدخلون فور وفاتهم، ويفهم هذا من قوله عليه الصلاة والسلام: «وتوكل الله للمجاهد في سبيله بأن يتوفاه أن يدخله الجنة» فقد أدت جملة (بان يتوفاه) معنى الفورية أي في حال موته.

وقد وردت أحاديث كثيرة صحيحة في فضل الجهاد وعظيم أجر المجاهدين وأكد سبحانه بأنهم ليسوا أمواتاً بل هم أحياء عند ربهم يرزقون. فمن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مرة عن

مسروق، قال: سألنا أو سألت عبد الله (أي عبد الله بن مسعود) عن هذه الآية: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ (آل عمران: ١٦٩ - ١٧٠) قال: أما أنا قد سألنا عن ذلك، فقال أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا رب، نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا).

وأخرج الترمذي عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال: لقيني رسول الله ﷺ فقال: يا جابر، مالي أراك منكسراً قلت: يا رسول الله استشهد أبي، قتل يوم أحد وترك عيالاً وديناراً، قال: أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك فكلمه كفاحاً، فقال يا عبدي، تمن علي أعطك، قال يا رب تحيين، فاقتل فيك ثانية.

قال الرب - عز وجل - إنه قد سبق مني أنهم لا يرجعون، قال: وأنزلت هذه الآية: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً﴾ (آل عمران: ١٦٩).

وزاد ابن ماجه في رواية هذا الحديث قوله: (إنه سبق مني إنهم إليها لا يرجعون، قال: يا رب، فأبلغ من ورائي، فأنزل الله عز وجل هذه الآية..).

ومعنى قوله ﷺ : (كلم أباك كفاحاً) أي كلمه بدون واسطة مشافهة، وقوله: «تمن علي اعطك» أي تمن علي من الخير والثواب ما تحبه اعطك إياه فلم يكن له أمنية يتمناها إلا أن يحييه الله، ليقاتل في سبيل الله فيقتل مرة أخرى، لينال فضل شهادة أخرى غير الشهادة الأولى، التي نالها من القتل في أحد، وإنما تمنى ذلك لأنه رأى بعينه عظيم الجزاء الذي يعطى للشهداء فأحب أن يقتل مرة أخرى ليضاعف له الجزاء.

والحديث يبين أن الشهداء أحياء حقيقة، كاملة، يرزقون فيها، كما نصت عليه الآية الكريمة.

وكيف لا يتمنى الشهداء أن يرجعوا إلى الحياة الدنيا ليقتلوا في سبيل الله لينالوا عظيم الأجر والثواب، وقد تمنى ذلك سيد الخلق عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح، فقد تمنى رسول الله ﷺ أن يقتل في سبيل الله، ثم يحيا فيقتل، ثم يحيا فيقتل، كما روى ذلك الشيخان.

وبهذا ندرك عظمة الجهاد في سبيل الله وفضله ومكانة المجاهدين عند الله.

وبهذا ندرك الفرق بين حروب الطواغيت التي شب ويشب لهيها وتستعر نارها بين الرجال والأحزاب والأمم والشعوب لمآرب شخصية وأغراض ذاتية إنها جميعاً في سبيل الطاغوت.. أهدافها وبواعثها دنيوية صرفة، ليس لله فيها نصيب. فهي في سبيل الشيطان، وأصحابها إلى جهنم وساءت مصيراً لأن غايات مثل هذه الحروب لا تعدو أن تكون مجرد أغراض شخصية أو اجتماعية أو حزبية. ولا تكون فيها رائحة لفكرة أو انتصار لمبدأ إسلامي كريم.

وهنا ندرك السر في تقييد القتال المشروع في الإسلام بهذا القيد (في سبيل الله) لأن الإسلام لا يعرف جهاداً في غير هذا السبيل، وقد عرفنا أن سبيل الله هو طريق الخير والعدالة والرحمة والوحدانية ولهذا فإن بواعث الجهاد وغاياته وبواعث سامية نبيلة هي في جملتها بواعث الدعوة الإسلامية وأهدافها ذاتها.

ولهذا فقد خرج المسلمون الأوائل من ديارهم وأوطانهم مجاهدين بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، يعلنون كلمة الله وينشرون دينه، ويبدلون في سبيل ذلك دماءهم وأرواحهم، ويفارقون من أجله ديارهم وأولادهم ويضحون بكل ما يملكون من أموال وغيرها، لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، ولا استكباراً ولا يتبغون دنيا ولا يريدون مالاً - فكانت غايتهم إصلاح البشر في أخلاقهم ومعايشهم وسعادة الناس في دنياهم وآخرتهم، وكانوا يحملون إليهم مفتاح السعادة وهو القرآن الكريم.

وقد فهم المجاهدون في سبيل الله هذه الأهداف السامية والأغراض النبيلة للجهاد في سبيل الله، واقتنعت بها عقولهم، واستيقنت بها نفوسهم، فانطلقوا من قاعدة الإسلام الأولى (الجزيرة العربية) إلى أمم الأرض شرقاً وغرباً لا يريدون توسعاً في الملك ولا زيادة في الثروة، ولا استعلاء في الأرض، ولا . . . ولا . . . إلخ.

فهذا (ربعي بن عامر) رسول سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنهما - إلى رستم في القادسية، يخرج مجاهداً في سبيل الله وهو جندي من عامة جنود المسلمين فهم دينه، فخرج مجاهداً في سبيل الله، وها هو يصدع بالحق في إيوان رستم معلناً للملأ بأعلى صوته حين سئل عن

سبب مجيء المسلمين ما جاء بكم؟ فقال الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل السماء^(١).. ثم قال: (إننا لم نأت لطلب الدنيا ولإسلامكم أحب إلينا من غنائمكم).

ولقد وصف الإمام العبري ابن تيمية الفتح الإسلامي بكلمة جامعة وهي (أن المسلمين الأولين لم ينقلوا الإسلام إلى الأمم، ولكن نقلوا الأمم إلى الإسلام) إن هذه الكلمة القصيرة هي سر الفتح الإسلامي ومزاياه وعلته بقاءه واستمراره فإنها لم تدر حتى حرب، ولم يطأها جيش فاتح إلا ابتغاء أرض يضمها إلى أرضه أو شعب يحكمه مع شعبه، أو غنائم ينالها أو ثأر يطلبه، أو خيرات يستولي عليها أو كنز يملكه... إلخ. أما المجاهد في سبيل الله فلا يخرج أي شيء من متاع الدنيا لا الشهرة أو سمعة أو حسن أحواله كأن يقال له (بطل) ليصل إلى أعلى المراكز ويحصل على أعلى الدرجات الدنيا... لا.. لا لا شيء من هذا ولا غيره بل يخرج مجاهداً لإعلاء كلمة الله، حتى يحكم الأرض كلها شرع الله، ويطبق حكم الله، فيحكم الناس بما أنزل الله، ويقضوا على حكم الطواغيت.

مثل هذا وحده يعد مجاهداً، ويستحق ثواب المجاهدين وأجر الشهداء ورفقة الأنبياء والصالحين والصدّيقين وحسن أولئك رفيقاً.

(١) تاريخ الطبري (٥/٢٢٧٠).

أنواع الجهاد

أولاً : مجاهدة النفس .

عرفنا مما سبق أن كلمة (جهاد) لا تقتصر على مقاتلة العدو الظاهر بل تشمل مجاهدة النفس ومجاهدة الشيطان، لقوله تعالى : ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده ﴾ . (الحج : ٧٨) .

وقد فسر عبد الله بن المبارك^(١) قوله : (حق جهاده) بجهاد النفس والهوى فيجاهد الإنسان نفسه ليسلم قلبه ولسانه وجوارحه لله فيكون لله وباللّه لا لنفسه ولا بنفسه ، ولما كان جهاد أعداء الله من الخارج فرعاً على جهاد العبد نفسه في ذات الله كما قال النبي عليه الصلاة والسلام : «المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه» . كان جهاد النفس مقدماً على جهاد العدو في الخارج وأصلاً له ، فإنه ما لم يجاهد نفسه أولاً لتفعل ما أمرت به وتترك ما نهيت عنه ، ويحاربها في الله لا يمكنه جهاد عدوه في الخارج ، فكيف يمكنه جهاد عدوه والانتصاف منه وعدوه الذي بين جنبيه قاهر له متسلط عليه لم

(١) زاد المعاد (١/٣٩) .

يجاهده ولم يحاربه في الله، بل لا يمكنه الخروج إلى عدوه حتى يجاهد نفسه على الخروج.

إن الجهاد في سبيل الله لا بد أن يتبدى بمجاهدة النفس بتخليصها من الأهواء والشهوات واتجاهها إلى الحق في ذاته، وإلى الواجب في ذاته لاحقاً في شهرة ولا رغبة في متعة ولا رجاء في أي شأن من شئون الدنيا.

ولا يعتبر مجاهداً من حارب شجاعة وشهرة وطلب مال، وإنما المجاهد من يجاهد لإرضاء الله وطلب ما عنده لرفعة الحق، وجعل كلمة الله هي العليا وكلمة أعداء الله هي السفلى، وأن ذلك لا يكون إلا إذا جاهد نفسه، وأخضع أهواءه وشهواته، لأحكام الله تعالى، وجعل هواه تبعاً لما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام وأمر الله تعالى به.

وقد تولى رسول الله ﷺ المعلم الأول تربية الرعيل الأول في مكة المكرمة على الجهاد في سبيل الله، وإعدادهم أعداداً قوياً سليماً حسب تعاليم الله سبحانه وإرشاداته، بل إن شئت قل قد صنعهم الله على عينه وأخرجهم إخراجاً كتعبير القرآن الكريم العميق ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ (آل عمران: ١١٠).

وقد تطلب تكوين هذه الجماعة الكثير من العنت والمشقة، حيث استغرق أكثر من نصف عمر الدعوة، حيث قام بهذا الدور التدريبي على الجهاد والاستشهاد في سبيل الله في الفترة المكية من الدعوة الإسلامية وقد استمرت ثلاثة عشر عاماً، فلم تنزل في هذه المرحلة آية واحدة في الأمر بمقاتلة العدو، وكان الصحابة كلما جاءوا إلى رسول الله ﷺ يطلبون

أن يأذن لهم في رد الاعتداء عن أنفسهم كان يقول لهم: اصبروا فإنني لم أومر بقتال.

وذلك لأن أسلوب التربية القرآنية يعتمد على التربية الفردية العميقة الهادئة المتأنية، التي تصل بالمؤمنين إلى التخلق بأخلاق القرآن، والعمل بأحكامه والدعوة إليها حتى أصبح الواحد منهم قرآناً حياً متحركاً يمشي على الأرض. وهذا هو خلق المجاهد في سبيل الله، وما ينبغي أن يكون عليه من صفات وأخلاق، وهو وحده الذي يستحق شرف الجهاد في سبيل الله، وتأييد الله، والفوز والتمكين في الأرض، أو الاستشهاد ونيل أعلى الدرجات في الجنة.

ولئن أغفلت كتب السيرة الحديث عن جهاد الرسول ﷺ في تربية نفوس أصحابه على الجهاد في سبيل الله، وعن أسلوبه في التربية فقد حدثنا شيخ الإسلام ابن تيمية^(١) عن أبي عبد الرحمن بن عبد الله بن حبيب بن ربيعة السلمي قال: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن - عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من (العلم) و(العمل). قالوا أي الصحابة - فتعلمنا العلم والعمل).

وقد رأيت مثل هذا النص في ترجمة أبي عبد الرحمن السلمي في طبقات القراء^(٢). وزاد فيه: (وإنه سيرث القرآن بعدنا قوم لا يتجاوز تراقيهم، بل لا يجاوزها هنا - ووضع يده على حلقومه -).

(١) الإكليل (ص ٣١) لابن تيمية.

(٢) طبقات القراء لابن الجزري (١/٤١٣).

وهذا أقدم نص تاريخي عرفنا منه الطريقة التي كان يتعلم بها الصحابة رضوان الله عليهم من النبي عليه الصلاة والسلام فقد كانوا لا يعنون من الإكثار من العلم ولكنهم يحرصون على إتقان ما يتعلمون منه ثم العمل به .

فنحن نفهم من هذا النص القيم أن الصحابي الجليل الذي ظهرت منه العجائب في الغزوات والفتوحات الإسلامية، كان يتلقى من القرآن عشر آيات، بعد عشر آيات، فكان لا ينتقل من العشر إلى العشر إلا بعد حفظ هذه الآيات القليلة بإتقان، ثم يتدبر ما فيها من آداب وأحكام وتوجيهات وأهداف، ثم يمرن نفسه وجوارحه على العمل بذلك حتى يصبح خلقاً له وعادة وسجية . . . فكانت التربية العملية في هذه المدرسة لها المقام الأول من العناية لأنها نتيجة العلم وثمرته، والعلم بلا تربية شر يستعاذ بالله منه^(١) .

ومن هنا يجب أن يعلم القائمون على تربية الرجال وإعدادهم للقتال ما للقرآن الكريم من الأثر العظيم، والتأثير الكريم في إعداد نفوس الرجال فيجب أن تكون آيات القرآن الكريم الرحيق الذي يتغذى عليه عقل ونفس المقاتل حتى يتزود بالطاقة المعنوية اللازمة للقتال وتحقيق النصر .

وقد ظل القرآن الكريم مصدر الطاقة المعنوية الأول للمجاهدين في سبيل الله على مر الأيام وكر العصور فكان سبب انتصاراتهم الباهرة التي كانت أشبه بالمعجزات .

(١) مع الرعيل الأول (ص ٧١) محب الدين الخطيب .

وقد أدرك القائد المؤمن صلاح الدين الأيوبي أثر القرآن الكريم وتأثيره في النفوس حيث جعله مصدر ثقافتهم وطاقاتهم الروحية فكان يجمع كل عشرة من المقاتلين في خيمة واحدة، ويوزع عليهم المصحف الشريف، ويأمر بتلاوة القرآن حتى كان يسمع دوي القرآن كدوي النحل. وكان يتفقد الخيام آناء الليل وأطراف النهار فإذا لم يسمع القرآن من خيمة من تلك الخيام يقول: (سنوتى من تلك الخيمة) أي ستكون هذه الخيمة سبب هزيمتنا.

ولقد كان للقوة المعنوية الفضل الأكبر في انتصارات المسلمين منذ عهد رسول الله عليه السلام وحتى آخر الفتوحات العظيمة التي بلغت الصين شرقاً وفرنسا غرباً.

وقد أدرك بعض المستشرقين وكتاب الغرب هذه الحقيقة، حيث يقول المستشرق الأمريكي (لوثرروب ستودارد):

(قرأت في تواريخ كثيرة ما يدل على حيرة المؤلفين في هذا الحادث العجيب ألا وهو سرعة انتشار الإسلام ومنها تأليف حديث العهد اسمه (العالم الإسلامي) لكاتب اسمه (ماكس ماير هوف) قال فيه: يكاد يكون مستحيلاً أن نفهم كيف أن أعراباً منقسمين إلى عشائر، ليس عندهم العدد والعتاد اللازم يهزمون في مثل هذا الوقت القصير جيوش الرومان والفرس الذين كانوا يفوقونهم مراراً في الأعداد والعتاد وكانوا يقاتلونهم وهم كتائب منظمة.

والجواب: إن هذا المستحيل بزعمه ليس في الحقيقة بمستحيل إذا نظر إلى القوة المعنوية التي أوجدها القرآن في اتباعه^(١).

(١) حاضر العالم الإسلامي (ص ٢٨).

ومن هنا يتضح لنا أن جهاد الرسول عليه الصلاة والسلام في مكة كان في ميدانين: ميدان الدعوة، وميدان التربية.

ولنا أن نعرف المبادئ والأفكار التي غرستها تلك التربية الإلهية في نفوس المؤمنين والتي بها خلصت نفوسهم لله، وتجردوا من ذواتهم في سبيله.

وأعتقد أن أول تلك المبادئ وأساسها هو تحرير النفوس من عبادة غير الله وردها إلى الإيمان بالله وعبادته وحده.

(فالقرآن في مكة لم يصنع أصول دولة وإنما جاء مؤكداً فكرة أولى هي العماد الكبير الذي يمكن أن تقوم عليه الدنيا، وهي فكرة التوحيد. وكل ما جاء به في مكة تقريباً كان تمكيناً لهذه الفكرة في النفوس، وإسلام الصحابة كان على أساس الفكرة الأولى، فلما ملأت نفوسهم دخلوا صف الإسلام، وجعلوا صدورهم حصوناً تدافع عنه)^(١).

ولهذا كانت عناية القرآن الكريم بعناية بالغة بتربية المؤمنين وتهذيب نفوسهم، والارتفاع بها إلى مدارك الكمال.

فلكي تبقى النفس المؤمنة التي تعد للجهاد في سبيل الله قوية وثيقة الصلة بالله، فقد فرض الله تعالى عليها واجبات تعبدية لها أطيب الأثر في صلاحها وتنقيتها من كل ما يغضب الله.

فالصلاة مثلاً تحمل المصلي على التفكير في الله وما أمر به وما نهى عنه وتجعله موصول القلب بمولاه يستمد منه النصر والتأييد، وبها

(١) المجتمع الإسلامي في مكة (ص ٨٢) د. عبد العزيز كامل.

تهون عليه مصائب الدنيا، وتذلل أمامه الصعاب فلا يعجز ولا يكسل ولا يهون ولا يحزن، فقد قال الحق سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون. أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ (البقرة: ١٥٣ - ١٥٧).

وقد صرح القرآن الكريم بما للصلاة من أثر كبير في تهذيب النفوس وتطهيرها من خلق اليأس، والهلع عند المصيبة، ومن الطغيان والبطر عند النعمة فقال عز من قائل: ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً، إذا مسه الشر جزوعاً، وإذا مسه الخير منوعاً إلا المصلين، الذين هم على صلاتهم دائمون﴾ (المعارج: ١٩ - ٢٣).

وهي التي تغرس في النفوس مكارم الأخلاق، وتتغلب بها النفوس على شهواتها وأهوائها ﴿وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون﴾ (العنكبوت: ٤٥).

ولأهميتها البالغة في تقوية النفوس وتهذيبها، فقد أمر الله تعالى بالمحافظة عليها في حال الأمن والخوف، وفي حال السلم والحرب، ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين، فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً، فإذا أمتتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ (البقرة: ٢٣٨ - ٢٣٩).

وفي تكليف المؤمنين بالصلاة وقت الحرب والاشتغال بقتال الأعداء، وفي حالة ترقب الموت، دليل واضح على أهمية هذا الواجب

في تزكية النفوس، وتقوية الروح المعنوية بالالتجاء إلى الله، والاتصال به، تلك الصلاة المعروفة عند فقهاء المسلمين بصلاة (الخوف أو الحرب).

وقد شرعتها آيات سورة النساء من قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جَنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا، إِنْ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا... ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنْ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ (النساء: ١٠١ - ١٠٣).

وفي الصوم تطهير للنفوس من كل ما لا يناسب الإيمان، وفيه زيادة لتقوى القلوب وتقوية صلتها بالله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٨٣).

وفيه كبح جماح النفوس وتحرير لها من الشهوات والمحرمات. وقد اقترن ذكر الصلاة بالزكاة في كتاب الله، فلا نكاد نجد آية تحت على إقامة الصلاة إلا وقد اقترن بها الزكاة، فالزكاة قرينة الصلاة. كما جعلت الصلاة والزكاة وصفاً للمؤمنين فقد جعل الله الصلاة مثلاً لبذل النفس في سبيله، وجعل الإنفاق مثلاً لبذل المال في سبيله.

ففي الزكاة تعويد للنفس على البذل والتضحية بالمال في سبيل الله وتحرير لها من البخل وحب المال.

وفي فريضة الحج توجه إلى الله وحده بطلب الأمن والقوة، فالمؤمن لا يعترف بالربوبية والقوة والعظمة لسواه، وهذا الشعور جدير بأن يرفعه إلى ذروة القوة والشجاعة وطهارة النفس والضمير.

وبهذا ندرك دور العبادات في غرس بذرة البطولة والشجاعة

والتضحية في قلوب المؤمنين الأولين، وقد نماها القرآن وأنضح ثمرتها، فكان لها أطيب الأثر في تطهير النفوس من الحين والحدق، وضعف العزيمة وتحليلتها بالشجاعة والإقدام والتضحية في سبيل الله بكل غالٍ ونفيس .

وقد عمد القرآن الكريم إلى تطهير النفوس وتحريرها من حب الدنيا والتكالب على شهواتها ومتاعها .

وقد وصفت آيات عديدة الحياة الدنيا بمتاع الغرور، ونددت بالذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة . وضربت الأمثال لهذه الحياة ومصير ما فيها من متاع وزينة، ونهت على عدم الاغترار بها . ﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ (آل عمران : ١٨٥) وقال : ﴿ وذو الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا ﴾ (الأنعام : ٧٠) ﴿ يأبها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ﴾ (فاطر : ٥) .

وقد وصفت الآيات الكريمة متاع هذه الحياة بأنه قليل لا وزن له عند الله ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً ﴾ (النساء : ٧٧) .

﴿ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ﴾ (التوبة : ٣٨) ﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان ﴾ (العنكبوت : ٦٤) .

وقد ضرب الله الأمثال لهذه الحياة الدنيا ومصيرها :

﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرًا ﴾ . (الكهف : ٤٥) .

وإذا كانت هذه هي قيمة الحياة الدنيا عند الله وهذا هو مصيرها الزائل فمن الحمق حبها والعمل لها والتعلق بها أكثر من الآخرة التي أعد الله فيها لعباده ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ومن هنا جاءت الآيات القرآنية تندد بالذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ﴿ تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ﴾ . (الأنفال: ٦٧).

﴿ ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب ﴾ (الشورى: ٢٠).

﴿ فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى ﴾ (النازعات: ٣٧ - ٣٩).

﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ﴾ (الأعلى ١٦ - ١٧).

وقد وضحت الآيات القرآنية مصير هؤلاء الذين رضوا بالحياة الدنيا وجعلوها أكبر همهم ﴿ ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ (المائدة: ٣٣).

﴿ أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ﴾ (المائدة: ٤١).

﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ (يونس: ٧ - ٨).

وبعد هذا التقييم للحياة الدنيا والتنديد والوعيد الشديد لمن رضوا بها واطمأنوا إليها، فإنه من الطبيعي أن تختار النفوس المؤمنة الدار

الآخرة وتسعى لها سعيها، وتسارع إلى الخيرات والجنات، ولذلك عزفت نفوس الرعيل الأول من صحابة رسول الله ﷺ عن الحياة الدنيا، وأقبلت على الآخرة وتنافست في طلب رضا الله والجنة، بالجهد في سبيل الله بالنفس والنفيس، وحرصت على إقامة شرع الله في الأرض فعاشوا أعزة سعداء، وماتوا شرفاء شهداء. فحققوا سعادة الدنيا والآخرة.

ولذا فإن نفوس الرعيل التي لم تستغرق في متع الحياة وشهواتها استغراقاً ينسيها واجبها نحو خالقها، في الجهد في سبيل إقامة حكم الله وإعلاء كلمة الله. فنراها لبت نداء الجهد بقوة واستعداد منقطع النظير لأن قلوبهم ونفوسهم وعقولهم ارتبطت ارتباطاً كلياً بالجهد في سبيل الله، وتهيات للبدل والعتاء والفداء دون تردد وتهيب.

﴿ فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ﴾
(النساء: ٧٤).

﴿ والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئتهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ (النحل: ٤١).

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون، ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم ﴾ (التوبة: ١١١).

والتربية القرآنية، لم تكن لتترك المؤمن يعيش في هذه الحياة بلا هدف يسعى لتحقيقه بعد أن صور الحياة على هذه الصورة، فتحديد الهدف ووضوحه عند المجاهد من الأهمية بمكان، فكلما كان الهدف واضحاً، سعت النفس للوصول إليه في سهولة ويسر، إذ يروض

المجاهد نفسه على الصبر وتحمل المشاق برضى وسماحة نفس .

فالله تعالى يقول: ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾
(الذاريات : ٥٦) .

﴿ يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ﴾ (النور : ٥٥) .

فغاية المؤمن ليست في المتاع والأكل فتلك غاية البهائم .

﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى
لهم ﴾ (محمد : ١٢) .

ولكن ليس معنى هذا أن الإسلام يحرم الطيبات والتمتع بها،
فالإسلام لا يحرم المتاع النظيف، ولا يدعو إلى الرهينة والانصراف عن
شئون الحياة، بل يدعو إلى ذلك المتاع الطاهر دعوة صريحة ويستنكر
تحريمه ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾
(الأعراف : ٣٢) .

ولكنه يريد أن يسيطر عليهم إيمانهم، ويخلصوا قلوبهم لله
ولدعوته، فلا يوغلوا في الشهوات، ويستغرقوا في الملذات، فتشغلهم
القيم الفانية عن القيم الباقية الخالدة .

﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة
من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . . ذلك متاع
الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ﴾ (آل عمران : ١٤) .

﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند
ربك ثواباً وخيراً أملاً ﴾ (الكهف : ٤٦) .

فالإسلام لا ينكر على الناس حب الدنيا، فحبها فطري قوي،
والتربية القرآنية لا تحارب هذا الدافع، بل تهذبه حتى لا ينقلب إلى
شهوة بهيمية عارمة لا ضابط لها، فحين ينحرف الحب الفطري ويتحول
إلى شهوة جامحة يكون ظمناً للنفس، لأن إطلاق العنان للنفس يوردها
موارد الهلكة والبوار.

ومن هنا تعمل التربية القرآنية على صيانة النفس من مذلة العبودية
للشهووات والملذات، ومن ذل يومئذٍ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه.

هذا، وقد كلف الله المؤمنين بالعمل لخير الإنسانية كلها، بأمرها
بالمعروف ونهيها عن المنكر ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير
ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ (آل
عمران: ١٠٤).

وهذا العمل النبيل يعد من صميم الأهداف التي شغل الله تعالى
بها المؤمنين في هذه الحياة الدنيا، ولذا فقد جعل التقصير في أداء هذا
الواجب سبباً لغضب الله ومقته، ولعنته ﴿ لعن الذين كفروا من بني
إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا
يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾
(المائدة: ٧٨ - ٧٩).

ويجعل القيام بهذا الواجب غاية من غايات نصر الله للمؤمنين..
﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور ﴾.. إلى
قوله تعالى: ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله قوي عزيز؛ الذين إن
مكنهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا
عن المنكر، والله عاقبة الأمور ﴾ (الحج: ٣٨ - ٤١).

ومن ثم كان ميدان الإسلام الأول في التربية هو عالم النفس والضمير وكانت وسيلته الأولى للوصول إلى هدفه هي تربية هادئة عميقة للنفس، وإعداد المسلمين لما يمكن أن يصابوا به من خسائر وآلام، وحث لهم على الصبر والتحمل، وتبشيرهم برضوان الله ونصره على أي حال، وتنويه بالمؤمنين الذين صبروا على البلاء وتوكلوا على الله وأسلموا وجوههم لرب العالمين.

وقد تدرج القرآن الكريم في تربية الرعيل الأول من المجاهدين، مما نراه واضحاً جلياً في أوائل السور المكية، ففي سورة القلم مثلاً وهي السورة الثانية حسب ترتيب النزول ﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ (القلم: ٤٤ - ٤٥).

وفي سورة المزمل وهي السورة الثالثة: ﴿ واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرًا جميلاً، وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً ﴾ (المزمل: ١٠، ١١).

والآيات تتضمن الأمر بترك المكذبين لله، والصبر على تكذيبهم، مع الهجر الجميل، والقيام بتبليغ الرسالة.

وأهم ما تم تعويد نفوس المؤمنين عليه في المرحلة المكية هو (الصبر) على أذى المشركين، واستفزازاتهم حتى أصبحت تلك النفوس التي كانت تثور لمجرد الإحساس بمساس كرامتها، أصبحت هذه النفوس تصبر وتحتسب ولا تثيرها سخرية الساخرين، ولا استفزازات المشركين وسارت مع الخطة القرآنية في التربية النفسية في الصبر على الأذى والاعتداء، حيث نزلت الآيات القرآنية تأمر بالصبر وعدم الخروج على

الخطة التي وضعها الله سبحانه لهذه الفترة ﴿ فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفك الذين لا يوقنون ﴾ (الروم: ٦٠).

وتعتبر هذه الخطة التربوية منهجاً دائماً وثابتاً لكل من أراد التدريب على الجهاد في سبيل الله . لأن عدة الجهاد الأولى هي (الصبر). وقد نجحت تلك التربية القرآنية في إعداد النفسية الجاهلية، وتربيتها تربية جهادية فريدة وتعويدها على الصبر وتحمل الأذى والفتنة، فبعد أن كانت تثور لأتفه الأسباب أصبحت مأمورة بالعفو والإحسان مع القدرة على الانتصاف.

ولا شك أن الالتزام بهذه الخطة كان عسيراً وشاقاً على كثير من النفوس ولكن الانصياع الكامل لأوامر الله ورسوله جعلت رجالاً أمثال عمر بن الخطاب في حميته، وحمزة بن عبد المطلب في فتوته، وغيرهما ممن اعتادوا الاندفاع والاستجابة لأول ناعق يتعودون ضبط نفوسهم، ويوازنون بين الاندفاع والتروي والحماسة والتدبر، والحمية والطاعة، وبهذا تجردوا من ذواتهم وانتصروا على نفوسهم التي أصبحت خالصة لله وفي سبيل الله .

هذا هو مجاهدة النفس الذي لا يمكن أن يبدأ الجهاد الأكبر إلا به، ولذا فقد أثنى المولى عز وجل على هؤلاء الذين صبروا وامثلوا أمر الله، وأطاعوا رسول الله ﴿ والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار ﴾ (الرعد: ٢٢).

وقال سبحانه: ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ (الرعد: ٢٤).

وقوله: ﴿ وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ . (البقرة: ١٥٥ - ١٥٧).

وهكذا تزود المسلمون في العهد المكي بأعظم أسلحة النصر ألا وهو (الصبر).

والصبر علاج ناجع لأمراض النفوس، فهو يقويها ويطهرها من اليأس والهلع عند المصيبة ويحفظها من البطر والطغيان عند النصر والغنيمة: ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه، إنه ليؤس كفور. ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني، إنه لفرح فخور. إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ (هود: ٩ - ١١).

ولكي يرعى الحكيم الخبير بالنفوس هذه النفوس التي آمنت وصبرت، وعدها باليسر والأمن والنصر، حتى تظل قوية صلبة في المواقف الصعبة، والظروف الحرجة ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ (النور: ٥٥).

وهم في رعاية الله وكنفه، يحفظهم ويرعاهم ويكرمهم في الدنيا والآخرة ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون، نحن أولياؤكم في

الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ﴿ فصلت: ٣٠ - ٣١ ﴾ .

وحسب المؤمن هذا التأييد وهذه الولاية والنصرة في الدنيا والآخرة ليزداد قوة إلى قوته، فينطلق في كفاحه لا يهرب قوة من قوى الباطل مهما عظمت، لأن قوته موصولة بقوة العزيز الذي لا يقهر. فلن يهن ولا يذل حتى ولو وقف وحيداً فريداً في المعركة ما دام يستشعر أن الله معه، فما دام الله معه فلا غالب له ﴿ ما ظنك باثنين الله ثالثهما ﴾ .

وقد بثت الآيات القرآنية الأمل والرجاء في نفوس المؤمنين، وحذرت من اليأس والقنوط، الذي يتنافى مع الثقة بالله وتفويض الأمر إليه والتوكل عليه فقال عز من قائل: ﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم ﴾ (البقرة: ٢١٨).

وقال: ﴿ ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون، وترجون من الله ما لا يرجون، وكان الله عليماً حكيماً ﴾ (النساء: ١٠٤).

وقد توخت الآيات القرآنية تثبيت قلوب المؤمنين، وتشجيعهم على التضحية والإقدام وتحمل الصعاب والشدائد بنفس راضية مطمئنة. فالمؤمن يردد دائماً:

﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون ﴾ (التوبة: ٥١ - ٥٢).

وقد حث منهج التربية القرآنية على تقوى الله، لأنها تربط النفس بربها برابطة وثيقة لا تنفصم عراها، فستمد منه القوة والنصر والتأييد والطهارة والصلاح، فإن كل إنسان إذا اتقى الله وراقبه امتلأت نفسه بعظمته، فخاف غضبه ورجا رضاه، طهرت نفسه وأشرق عليها نور الحق واليقين، واتجهت إلى الخير في خلوتها وسرائها وضرائها، وسائر أحوالها.

قال تعالى: ﴿ فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (الأعراف: ٣٥).

وقوله: ﴿ يأيتها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم، والله ذو الفضل العظيم ﴾ (الأنفال: ٢٩).

وهكذا يسير القرآن في تربية النفوس على الجهاد في سبيل الله، فيردها بالتوحيد إلى الفطرة السليمة ويحررها من العبودية لغير الله، ومن الذل والخوف والخضوع لسواه، فستمد منه القوة والعون والتأييد، ويكفل لها النصر والتأييد والتمكين.

وفي هذا ما فيه من الروعة والجلال في إبراز مدى عناية القرآن بتربية النفوس على الجهاد في سبيل الله، بمجاهدة النفس وتنمية نوازع الخير وكريم الخلال فيها، وتحليلتها بالفضائل وتخليتها من الرذائل، وتوجيهها إلى الحق في ذاته والواجب في ذاته، حتى تكون لله وبالله.

ثانياً: مجاهدة الشيطان.

ومن أنواع الجهاد (مجاهدة الشيطان). وقد أمر الله تعالى باتخاذهِ عدواً تنبيهاً للمؤمنين على استفراغ الوسع في محاربتِهِ ومجاهدته، لأنه عدو لا يفتر ولا يقصر في محاربة العبد.. ومجاهدة الشيطان أشق من

مجاهدة الكفار لأن المجاهد يرى العدو الظاهر، ولا يرى الشيطان، في حين أن الشيطان يرى الإنسان ويجري منه مجرى الدم. ولذا قال تعالى: ﴿إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم﴾ (الأعراف: ٢٧).

وإنك إذا قتلت الكافر تجد العز والغنيمة وإذا قتلك تجد الشهادة والجنة ولكنك لا تقدر أن تقتل الشيطان وإذا قتلك تقع في عقوبة الرحمن والذل والخسران فما أرشد وأدوم هذا الجهاد^(١).

وقد ذكر الله سبحانه لعباده قصة عداوة الشيطان للإنسان منذ الأزل، فحين خلق الله آدم عليه السلام، أسكنه الجنة، وأمر الملائكة أن يسجدوا له فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وقال: ﴿أنا خير منه، خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ (الأعراف: ١٢).

فطرده الله من الجنة، وتوعده العقاب الشديد، فخرج وهو يضممر العداوة لآدم، وتمنى على الله لو يؤخره إلى يوم القيامة ليغوي جميع بني آدم ويستهوهم بمكره وخداعه حتى ينحرفوا عن الصراط المستقيم.

وقد وردت قصته مفصلة في أكثر من سورة من سور القرآن الكريم، ففي سورة الأعراف جاء قوله تعالى: ﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين، قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين. قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين. قال أنظرني إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظرين. قال فما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن

(١) إرشاد العباد إلى الغزو والجهاد (ص ١٥) بتصرف لأبي البركات الفيضي.

أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين قال اخرج منها مذءوماً مدحوراً لمن اتبعك منه لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴿ (الأعراف: ١١ - ١٨) .

ووردت قصة الشيطان اللعين أيضاً في سورة الإسراء: ﴿ وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال .ءأسجد لمن خلقت طيناً ﴿ . . إلى قوله تعالى: ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً ﴿ (الإسراء: ٦١ - ٦٥) .

وقد عمل الشيطان بمكره وكيده على إخراج آدم من الجنة وهبوطه إلى الأرض . . وكان ذلك أول انتصار له على أبي البشر كلهم، بالرغم من تحذير الله تعالى له من الشيطان وعداوة الشيطان ووسوسته ﴿ ألم أنهم كما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ﴿ (الأعراف: ٢٢) .

ومنذ ذلك الحين والمعركة دائرة بين الشيطان وبين آدم وذريته وحتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وقد ورد ذكر الشيطان في الكثير من السور باسم (إبليس) فمرة يذكر الشيطان ومرة إبليس .

ففي سورة البقرة ذكر إبليس والشيطان في نفس القصة ﴿ وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴿ . . إلى قوله تعالى: ﴿ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴿ (البقرة: ٣٤ - ٣٦) .

وكذلك ذكر في سورة الأعراف مرتين في أول القصة ذكر (إبليس) وفي ختامها ذكر (الشیطان) قال تعالى : ﴿ يا بني آدم لا يفتننكم الشیطان كما أخرج أبویکم من الجنة ﴾ (الأعراف : ۲۷) .

وفي سورة (طه) قال تعالى : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى . . . ﴾ وفي أثناء سرد القصة ورد قوله تعالى : ﴿ فوسوس إليه الشیطان . . . ﴾ (طه : ۱۱۶ - ۱۲۰) .

ومن هنا نستنتج أن إبليس هو الشیطان عدو الإنسان في كل زمان ومكان .

وقد ترددت كلمة (الشیطان) في القرآن كثيراً فقد جاء بصيغة المفرد في سبعين آية مكية ومدنية، وبصيغة الجمع في ثماني عشرة آية مكية وكلها بأل التعريف إلا في ثلاث آيات هي (الحجر والتكوير والزخرف) .

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على شدة خطورة الشیطان وجنده على بني آدم، وإنه عدو يستحق المجاهدة، وأخذ الأهبة والحيطة والحذر في كل آن وحين .

فالله سبحانه خالق الخلق يعلم مدى خطورة الشیطان على الإنسان ولذا فقد أكثر من التحذير منه عقب سرد قصة عداوته لآدم وذريته من ذلك قوله تعالى : ﴿ قال أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لاحتنكن ذريته إلا قليلاً قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤکم جزاء موفور . واستفزز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم

وما يعدهم الشيطان إلا غروراً. إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلًا ﴿ (الإسراء: ٦٢ - ٦٥).

وفي سورة الأعراف: ﴿ قال فيما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم، ثم لأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم... ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ (الأعراف: ١٦ - ٢٧).

وقد أكد سبحانه في مناسبات كثيرة جداً عداوة الشيطان المتأصلة للإنسان: ﴿ وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزع بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً ﴾ (الإسراء: ٥٣).

وقد أمر الله تعالى المؤمنين بمعاداة الشيطان ومجاهدته ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ﴾ (فاطر: ٦) وقوله: ﴿ ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ (الزخرف: ٦٢).

فالشيطان كفور لربه ﴿ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً ﴾ (الإسراء: ٢٧).

وهو عصي للرحمن: ﴿ يَأْت لا تعبد الشيطان أن الشيطان كان للرحمن عصياً ﴾ (مريم: ٤٤).

وهو مصدر الشرور والفساد في الدنيا، وكان سبباً في الخصومة بين الأخوين قابيل وهابيل، وحدث أول جريمة قتل في العالم كله: ﴿ واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من

الآخر . . ﴿ إلى قوله تعالى : ﴿ فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ﴾ (المائدة: ٢٧ - ٣٠) .

وهو الذي أضل الأمم السابقة فاستحقوا عذاب الله ﴿ تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم ﴾ (النحل: ٦٣) .

وهو الذي أضل نبي الله موسى عليه السلام فقتل نفساً بغير حق . قال تعالى : ﴿ ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ﴾ (القصص: ١٥) .

وهو الذي نزع بين يوسف عليه السلام وبين إخوته إذ سولت لهم أنفسهم قتل أخيههم ﴿ بعد أن نزع الشيطان بيني وبين إخوتي ﴾ (يوسف: ١٠٠) .

والشيطان خذول للإنسان ﴿ وكان الشيطان للإنسان خذولاً ﴾ (الفرقان: ٢٩) .

وهو يعد الإنسان ويغريه بالباطل ﴿ يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾ (النساء: ١٢٠) .

ومن أهدافه الأساسية أن يضل الإنسان ضاللاً بعيداً، ويكفر بالله ولا يشكره حتى يستحق اللعنة مثله، ويحل عليه غضب الله ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن

يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً ﴿ (النساء : ٦٠) .

ومن أساليبه الماكرة تزيين السوء ليصد الإنسان عن سبيل الله ﴿ وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ﴿ (النمل : ٢٤) .

﴿ وعاداً وثموداً وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين ﴿ (العنكبوت : ٣٨) .

ومن أعماله التي يوقع بها وبين الناس العداوة والبغضاء، الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ﴿ يأبها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴿ (المائدة : ٩٠ - ٩١) .

وقد قعد الشيطان في كل طريق يوصل الإنسان إلى الفوز برضا الله والجنة فهو يخوف المنفقين أموالهم في الجهاد في سبيل الله بالفقر ويأمرهم بالبخل ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم ﴿ (البقرة : ٢٦٨) .

فمن كيده للإنسان ورغبته الشديدة في حرمانه من فضل الله، لم يأمره بادية ذي بدء بالبخل وإلا لم يجد أذنًا مُصغية، ولكنه يعمد إلى تخويفه أولاً بالفقر ويخيل إليه أن الفقر نتيجة حتمية للبدل، وبهذا يتهيا الإنسان لقبول أمره .

وكان سبباً في عصيان الرماة يوم (أحد) لأوامر الرسول عليه الصلاة

والسلام فدارت الدائرة على المسلمين بعد أن كانت على أعدائهم ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ﴾ (آل عمران: ١٥٢).

فهو الذي وسوس لهم بترك أماكنهم والنزول لجمع الغنائم خشية ألا يقسم لهم الرسول عليه الصلاة والسلام، أو يستأثر بها غيرهم، فكانت الهزيمة التي لحقت بالمسلمين وأذهلتهم ومزقت وحدتهم فولوا هارين لا يلوون على شيء ﴿ إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غمًّا بغم ﴾ (آل عمران: ١٥٣).

وقد سيطر الشيطان في ذلك اليوم على نفوس المجاهدين الذين لم يأخذوا حذرهم منه فملاً قلوب طائفة منهم همًّا وغمًّا، حتى ظنوا بالله ظن السوء ﴿ وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلناها هنا ﴾ (آل عمران: ١٥٤).

ويكشف الله سبحانه عن سبب هذا البلاء كله فيقول ﴿ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ﴾ (آل عمران: ١٥٥).

وقد كان الشيطان حاضراً في تلك الغزوة ومسيطرًا على قلوب كثير من المجاهدين من بداية الغزوة إلى نهايتها، ولهذا كانت درساً عملياً للمجاهدين في الحذر من عداوة الشيطان ومكره. . فهو الذي ملأ نفوس المجاهدين يوم (حنين) إعجاباً بكثرتهم حتى أنساهم أن النصر من عند

الله فحلت بهم الهزيمة المنكرة أول المعركة، وكانوا كما وصفهم ربهم عز وجل ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ﴾ (التوبة : ٢٥).

فكثيراً ما قعد للمجاهدين في طريق الإنفاق في سبيل الله والخروج للجهاد ولذا فقد حذر المولى عز وجل من كيده واتباع خطواته .

﴿ يأيتها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان، إنه لكم عدو مبين ﴾ (البقرة : ٢٠٨).

وهو أسوأ قرين ﴿ والذين ينفقون أموالهم رياء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً ﴾ (النساء : ٣٨).

﴿ ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ﴾ (الزخرف : ٣٦ - ٣٨).

فالمؤمنون مطالبون بمجاهدة الشيطان هذا القرين السيء الذي لا يفارقهم ولا ينفك عن محاربتهم حتى يوقعهم فيما وقع هوفيه .

وقد بين سبحانه سبب انحراف فطرة الناس التي فطرهم الله عليها ونسب ذلك إلى وسوسة الشيطان ﴿ فوسوس لهما الشيطان ليبيد لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما ﴾ (الأعراف : ٢٠).

وقوله : ﴿ فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد ﴾ (طه : ١٢٠).

وإذا كنا لا ندرك الشيطان بحواسنا فإننا ندرك أثره في نفوسنا، وهذا

الأثر الذي نحسه هو ما سماه القرآن مرة بالوسواس ومرة بالنزغ والمس . .
ولسنا مطالبين بمعرفة حقيقته وإنما علينا أن نفكر في طريق الخلاص منه
والتخلص من مكروهه، وعدم الوقوع في حبائله . وقد أرشدنا الحق سبحانه
إلى كيفية مقاومته فقال عز من قائل: ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ
فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ (الأعراف: ٢٠٠).

وقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا ﴾ .
(الأعراف: ٢٠١).

وبعد أن بين لنا مولانا عز وجل أن عداوة الشيطان أزلية، وأنه عدو
لله وعصي للرحمن، وخذول للإنسان وأنه غرور يعد للإنسان ويمنيه
بالباطل، وأن من أساليبه تزيين السوء ليضل عن سبيل الله، فقد أضل
أمماً كثيرة من قبلنا، وأنه يقعد المؤمن عن عمل الخير، ويخوفه الفقر،
ويأمره بالفحشاء، ولا يتورع عن مهاجمة الأنبياء والمرسلين . . . إلخ .

وقد بين سبحانه أن من أسلحة الشيطان (سلاح الهوى
والشهوات):

﴿ قُلْ أُنذِعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا
بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ
يَدْعُونَهُ إِلَى الْهَدَىٰ ائْتِنَا قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ حِوَالَةٍ وَإِنْ ضَلَّتْ
رَأْسُكَ فَالْحَيْلُ مِنَ اللَّهِ عَزِيزٌ ﴾ (الأنعام: ٧١).

﴿ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ
اللَّهِ ﴾ (ص: ٢٦).

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَيَإِنِّ الْجَنَّةَ هِيَ
الْمَأْوَى ﴾ (النازعات: ٤٠ - ٤١).

﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ﴾ (المؤمنون: ٧١).

وتوجيه الخطاب للنبي ﷺ تشديد للوعيد على غيره ممن يتبع الهوى، ويحيد عن صراط الله المستقيم.

قال الشيخ محمد عبده^(١): أفردته بالخطاب مع أن المراد أمته خاصة إذ يستحيل أن يتبع أهواءهم، أو أن يحاربهم على شيء نهاه الله عنه لينبه الغافل، ويعلم المؤمنون أن اتباع أهواء الناس ولو لغرض صحيح هو من الظلم العظيم الذي يقطع طريق الحق، ويرد الناس إلى مهاوي الباطل كأنه يقول هذا ذنب عظيم لا يتسامح فيه مع أحد حتى ولو فرض وقوعه من أكرم الناس على الله تعالى لسجل عليه الظلم وجعله من أهله الذي صار وصفاً لازماً لهم ﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ (آل عمران: ١٩٢) فكيف حال من ليس له ما يقارب مكانته عند ربه عز وجل.

أما الإنسان فقد خلق من عنصرين: عنصر أرضي وهو عنصر الطين الذي يشترك فيه مع سائر الخلائق التي تدب على الأرض، وعنصر سماوي وهو النفحة الروحية التي كرمه الله بها وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾ (السجدة: ٩).

وهكذا برأ الله الإنسان، فلم يجعل حياته صرفة كحياة الحيوان، ولا روحية، صرفة كحياة الملائكة، بل جعلها مزيجاً من المادة والروح،

(١) تفسير المنار (١٩/٢).

ليتلأم وجوده من ناحيته المادية مع طبيعة الأرض التي يحيا عليها جسمه، ومن ناحيته الروحية مع طبيعة السماء التي تهفو إليها روحه، فكان له إلى جانب بشريته ناحية روحية، تعود عليه بكل خصائص الحياة الكريمة، وتجعل له في طبيعته مصدر الإلهام الخير وصفات الكمال^(١).

فبمقتضى العنصر الأرضي في الإنسان ركبت فيه الغرائز التي يحتاج الجسم في نموه وسلامته وصلاحيته للحياة. . وهي غرائز يشترك فيها الإنسان والحيوان وكلاهما يندفع بحكم غرائزه إلى السعي في سبيل قوته وإلى القتال في سبيل حياته وإلى التزاوج في سبيل نوعه.

وتحت تأثير هذه الغريزة ينشأ ما يكون في الإنسان والحيوان من حرص وبطش وشهوة، وما يترتب على ذلك من مظاهر، الطمع والظلم، والشح والأنانية والاندفاع والشهوة، والميل مع الهوى^(٢).

وإنما يأتي الشيطان غريمه من طريق غرائزه، فلا يزال يثيرها ويستفزها ويهددها حتى يكون أغلب عليه من عقله وضميره وإرادته، فيندفع معها اندفاع الحيوان، ذلك بأن غرائز الإنسان أضعف نواحيه وأوهاها، لأنها أرضية هابطة ترضى بالتافه من المتاع وبالدون من المنزلة، شأنها في ذلك شأن الغرائز في كل حيوان يدب على الأرض.

أما خصائصه الروحية فلا قبل للشيطان بها، ولا سلطان له عليها، لأنها سر الله عز وجل في ابن آدم، وحصنه الذي حصنه به واواه إليه، ولا يزال المرء في قوة ومنعة ما استعز بهذا السر واحتفى بهذا الحصن. فإذا غفل وتهاون في الركون إليه كان كمن ألقى سلاحه واستسلم لعدوه،

(١) آدم: للأستاذ البهي الخولي.

(٢) صور من حياة الرسول (ص ٦١٩) أمين دويدار بتصرف.

فكان أهون شيء على الشيطان أن يغويه لأنه حينذاك لا يكون إلا في حماية غرائزه، وهي أضعف نواحيه تماسكاً وأكثرها تهالكاً وانهيأراً^(١).

ولم يستطع الشيطان أن يخدع آدم وحواء إلا عن طرق الغرائز، ومن أجل ذلك بين الله سبحانه سلاح الشهوة الذي يضل به الشيطان بني آدم في متاهات البهيمية الحمقاء ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً ﴾ (النساء: ٢٦ - ٢٧).

وقد كتب الإمام الغزالي^(٢) فصلاً رائعاً في بيان تسلط الشيطان على القلب بالوسواس منه قوله: ﴿ القلب يتجاذب بين الشيطان والملك وهو بأصل الفطرة صالح لقبول آثار الملك ولقبول آثار الشيطان صلاحاً متساوياً يترجح أحدهما على الآخر، وإنما يترجح أحد الجانبين باتباع الهوى والإكباب على الشهوات أو الإعراض عنها ومخالفتها فإن اتبع الإنسان مقتضى الغضب والشهوة ظهر تسلط الشيطان بواسطة الهوى وصار القلب عش الشيطان لأن الهوى مرعى الشيطان ومرتعه وإن جاهد الشهوات ولم يسلطها على نفسه وتشبه بأخلاق الملائكة صار قلبه مستقر الملائكة ومهبطهم، ولما كان لا يخلق قلب بشر من شهوة وغضب وحرص وطمع وطول أمل إلى غير ذلك من صفات البشرية المتشعبة عن الهوى - لا جرم لا يخلق قلب من أن يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة - وأكثر القلوب قد فتحتها جنود الشياطين وتملكتها فامتلات

(١) آدم: للأستاذ البهي الخولي بتصرف في العبارة.

(٢) إحياء علوم الدين (٢٦/٣) بتصرف في العبارة.

بالوساوس الداعية إلى إيثار العاجلة واطراح الآخرة، ومبدأ استيلائها اتباع الشهوات والهوى .

فالقلب الخالي من الهوى لا يدخله الشيطان وليس له على صاحبه سلطان وقد صرح سبحانه وتعالى بذلك في قوله: ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ (الإسراء: ٦٥) .

أما من اتبع الهوى والشهوة فهو عبد الهوى لا عبد الله، ولذلك سلط الله عليه الشيطان لأنه أراد هذه الحياة ملهاة ومأكلة وشهوة، وانسلخ مما أراد له من الكرامة والخير وقد أشار سبحانه إلى هذا الصنف الذي غلبت عليه شهوته بقوله: ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها، فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين، ولو شئنا لرفعناه بها، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ (الأعراف: ١٧٦ - ١٧٦)

ولهذا فقد أمرنا الله تعالى بمجاهدة الشيطان وأوليائه، وحزبه، وإخوانه من الإنس والجن، وأن نتتصر عليه قبل أن ينتصر علينا.

﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ﴾ (الأنعام: ١٢١) .

﴿ فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴾ (النساء: ٧٦) .

ومجاهدة حزبه أيضاً: ﴿ أولئك حزب الشيطان إلا أن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾ (المجادلة: ١٩) .

ولئن تسلح الشيطان بالغوواية، فقد سلح الله الإنسان بالهداية

والإيمان بالله وحده، ومداومة ذكره وعبادته، حتى يمتلىء قلبه بحب الله وتقواه، ولا يبقى فيه شيء سواه، وقد قوى فيه الإرادة بمجاهدة النفس وتهذيبها، وزوده بالعقل تلك القوة المدركة للخير والشر، وكرمه بالضمير المرهف الذي يحاسبه على أي تفريط في جنب الله، وفوق هذا وذاك فقد أرسل الله الأنبياء والرسل مثلاً علياً للإنسانية وقدوة صالحة في مجاهدة عدو الإنسان الظاهر والباطن فلم يقتلوا غرائزهم، ولم يمتوا شهواتهم بل حكموا فيها عقولهم وضمائرهم فوصلوا إلى الكمال الروحي والجسماني.

فلم يبق للناس على الله حجة بعد ذلك في مجاهدة شياطينهم، والارتفاع بأنفسهم إلى الدرجة العالية الرفيعة، وإلى الكمال الإنساني الذي أَرَادَهُ اللهُ لَخَلْفَائِهِ فِي أَرْضِهِ حَتَّى يَبَاهِيَ بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ قَالُوا ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ (البقرة: ٣٠).

ومن هنا يجب أن يعلم كل مسلم أن جهاد النفس والشيطان فرض عين لا ينوب فيه أحد عن أحد..

ثالثاً : الجهاد بالمال :

لقد وردت آيات كثيرة تأمر المؤمنين بالجهاد بأموالهم في سبيل الله وتقرن الجهاد بالمال بالجهاد بالنفس . بل لقد قدمت الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس، لأن المال شقيق الروح وبذله يشق على النفس كثيراً، ولأن النفس جبلت على حب المال والحرص عليه، وقد يكون الجهاد بالمال أشد ضرورة وأكثر حاجة من الجهاد بالنفس للحاجة الكبيرة إليه في إعداد القوة وتجهيز المقاتلين والإنفاق على المجاهدين وقت الحرب،

ولا بد منه أيضاً في غير وقت الحرب للمرابطة وإرهاب العدو، ولنشر الدعوة وحماية المسلمين من الفتنة.

فالمال عصب الحرب، وهو عظيم الخطورة في الحركة الجهادية، لأن تسليح الجيش يحتاج إلى مال غير محدود، بينما يكتفي من المقاتلين بالعدد الذي يضمن التغلب على العدو وإرهابه.

ولما كانت كثرة الناس فقراء وغير قادرين على تحمل أعباء الجهاد والتفرغ له فقد حثت آيات الجهاد الأغنياء على الإنفاق في سبيل الله بسخاء لإعداد وتجهيز هؤلاء الفقراء الراغبين في الجهاد ويقعد بهم فقرهم وعجزهم عن شرف المساهمة في الغزو في سبيل الله. وقد كان أمثال هؤلاء يأتون النبي ﷺ مليون داعي الجهاد، فلا يجدون عنده ما يحملهم عليه، فيتولون وأعينهم تفيض من الدمع حزناً على ما فاتهم من شرف الجهاد، كما حكى حالتهم هذه الآية الكريمة. ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون﴾ (التوبة: ٩٢).

وأغلب الظن أن النفس الإنسانية يصعب عليها مفارقة محبوبها (المال) في المصالح العامة، وهذا ما قرره صاحب المنار^(١): (إن الداعية إلى البذل في المصالح العامة ضعيفة في نفوس الأكثرين، والرغبة فيه قليلة، إذ ليس فيه من اللذة والأريحية ما في البذل للأفراد، فاحتيج للمبالغة في التأثير).

ولا يقل المال إرهاباً لنفوس الأعداء عن الجيش المقاتل نفسه. إذ إن الجيش بدون مال لا يمكنه القتال أو مواصلة القتال، والأمة الفقيرة لا

(١) تفسير المنار (٢/٤٦٣).

تستطيع القتال ولا الإعداد اللازم له، فطمع فيها الأمة الغنية القوية وتغزوها في عقر دارها.

قال الشيخ عبد اللطيف السبكي^(١): (إن أصحاب المال يكونون في نظر العدو قوة مرابطة لجيشنا، وتكون كحماية لظهر الجيش من ناحية الإمداد بالمال، فلا يستهين العدو بالمجاهدين ولا يعلق أمله على نفاذ المال في أيديهم. وفي ذلك جانب لا يستهان به من الرهبة كالرهبة من كثرة العدو والعتاد أو أكثر).

ولهذا وجب على كل من يؤمن بالله ويملك المال أن يبذله بسخاء في سبيل إعلاء كلمة الله والمحافظة على شرف الإيمان وكرامة المسلمين. وإن لم يبذل هذا المال طوعاً وجب على الإمام العادل أو ولي أمر المسلمين أن يأخذه من الأغنياء بالقوة لأجل الجهاد في سبيل الله تنفيذاً لأمر الله، وحتى لا تتعرض الأمة كلها للأخطار المادية والمعنوية. . . وقد شملت الدعوة الجهادية آيات كثيرة متنوعة الأساليب تؤكد خطورة المال في الحركة الجهادية، فقد قال الحق سبحانه في أول السور القرآنية المدنية نزولاً: ﴿ وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (البقرة: ١٩٥).

فالمعنى إذا لم تبذلوا في سبيل الله وتأييد دينه كل ما تستطيعون من مال فقد أهلكتم أنفسكم بالشح، وأهلكتم جماعتكم بالعجز والضعف وتمكين الأعداء من نواصيكم.

(١) أحد كبار العلماء المشتركين في المؤتمر الرابع للبحوث الإسلامية عام ١٩٦٨ م.

فقد قال العلامة أبو السعود^(١): (الإمساك وحب المال يؤديان إلى الهلاك المؤبد ولذا سمي البخل هلاكاً).

وقد فسر بعض المفسرين (التهلكة) بالإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد لحديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: نزلت فينا معشر الأنصار، أنا لما أعز الله دينه وكثر ناصره قلنا فيما بيننا لو أقبلنا على أحوالنا فأصلحناها فأنزل الله هذه الآية^(٢).

وفسر الجلال (التهلكة) بالإمساك عن النفقة وترك الجهاد، قال: لأنه يقوي العدو عليكم.

وقال الأستاذ الإمام^(٣) في ذلك أصاب مفسرنا (يعني الجلال) وأجاد في تفسير هذه الآية.

وهذه الآية جليلة المدى في بابها حيث تقرر أن عدم الإنفاق في سبيل الله وإعداد وسائل الدفاع والجهاد مؤد إلى التهلكة والخطر لما في ذلك من إغراء العدو بالمسلمين وتسهيل بغيه عليهم^(٤).

وكل هذه الأقوال حق وصدق. . . ومن أجل ذلك كثرت التوجيهات القرآنية والنبوية التي تحث على الإنفاق والبذل في سبيل الله وتجهيز

(١) تفسير أبي السعود (١/١٥٧).

(٢) تفسير ابن كثير ١/٢٢٨ وسنن النسائي ٣/١٩ والإمام بأحاديث الأحكام / ٤٩٠ لابن دقيق العيد.

(٣) تفسير المنار (١/٢١٣).

(٤) الدستور القرآني (١/٤٧٦).

الغزاة، وخاصة في تلك الفترة التي كان الجهاد فيها يقوم على التطوع بالنفس والمال، وكان المجاهد ينفق على نفسه، وقد يقعد به المال حين لا يقعد به الجهد، فلم يكن بد من التنبيه على خطورة الإمساك عن الإنفاق.

فقد أخرج البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري:

قيل يا رسول الله أي الناس أفضل فقال رسول الله: مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله، قالوا ثم من قال (مؤمن في شعب من الشعب يتقي الله ويدع الناس من شره) (٤).

وروي عنه ﷺ قال: «من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا» (٢).

وكما قرر سبحانه خطورة البذل والإنفاق في الجهاد، فقد أكد في كثير من آياته البينات أن حب المال طبيعة في النفس الإنسانية وإن الشح والحرص حاضر في الأنفس لا يغيب، تمهيداً لعلاج ذلك علاجاً نفسياً على طريقة القرآن الكريم في التربية والتهديب النفسي.

ففي كثير من الآيات الكريمة وصف الله سبحانه الإنسان بحبه الشديد للمال وحرصه عليه. ففي أوائل السور المكية نزولاً، قرر سبحانه هذه الحقيقة فجاء في سورة (العاديات): ﴿وإنه لحب الخير لشديد﴾ (العاديات: ٨).

(١) صحيح البخاري (٤/١٨)، النسائي (٦/١٠).

(٢) النسائي (٦/١٠)، الترمذي (٤/١٦٧).

والخير هنا بمعنى (المال).

وللمفسرين في حبه مذهبان :

أحدهما : إنه لشديد المحبة للمال .

والثاني : إنه لحريص بخيل في محبة المال .

وكلاهما صحيح كما يقول الإمام ابن كثير^(١) .

وفي سورة الفجر قوله تعالى : ﴿ وتأكلون التراث أكلاً لما ،

وتحبون المال حباً جماً ﴾ (الفجر : ١٩ - ٢٠) .

وقوله تعالى في سورة (التكاثر) : ﴿ ألهاكم التكاثر حتى زرتم

المقابر ﴾ (التكاثر : ١ - ٢) .

قال ابن كثير : (شغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرها عن طلب

الآخرة وابتغائها وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت وزرتم المقابر

وصرتم من أهلها ويروي الحسن البصري أن (التكاثر في الأموال

والأولاد) .

وعن النبي ﷺ : «يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان الحرص

والأمل» .

وإيثار الإنسان الحياة الدنيا على الآخرة لم يرد في القرآن الكريم

وحده بل ورد في كل كتاب أنزله الله في صحف الأنبياء السابقين . ﴿ بل

تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى . إن هذا لفي الصحف الأولى

صحف إبراهيم وموسى ﴾ (الأعلى : ١٦ - ١٩) .

(١) تفسير ابن كثير (٤/٥٤٢) .

ومن أصرح الآيات دلالة في أن حب المال فطرة طبيعية في الناس جبلوا عليها قوله تعالى : ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ﴾ (آل عمران: ١٤).

وتؤكد هذه الآيات وأمثالها بما لا يدع مجالاً للشك أن حب المال طبيعة بشرية مسيطرة على كل النفوس حتى أنبياء الله . ولشدة حرص الإنسان على المال وتمسكه به أصبح الشح طبيعة فيه، وملازماً له حيث أشار القرآن الكريم إلى هذا في مواضع كثيرة منها: ﴿ وأحضرت الأنفس الشح ﴾ (النساء: ١٢٨).

أي جعلت حاضرة عنده، أو جعل حاضراً عندها، كأنها مطبوعة عليه لا تنفك عنه، ولا ينفك عنها.

وقوله تعالى : ﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأستكم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتوراً ﴾ (الإسراء: ١٠٠).

ففي هذه الآية دلالة صريحة على أن الشح متمكن من النفس الإنسانية .

الأولى : إن الله وصف بني الإنسان بأنهم لو ملكوا خزائن الله التي لا نهاية لها لبخلوا وقصروا في الحقوق ومنعوا ذوي الحاجات من ردهم، لأن هذا من طباعهم وسجاياهم^(١).

قال الزمخشري: (ولقد بلغ هذا الوصف بالشح الغاية التي لا يبلغها الوهم).

(١) تفسير ابن كثير (١٤/٣).

الثاني : قوله تعالى : ﴿ خشية الإنفاق ﴾ أي أنهم لا يدخلون خوفاً من نفاذ ما عندهم وإنما يمسكون خشية أن ينفقوا، كأن الإنفاق نفسه شيء مخوف عندهم فالمعروف أن البخيل يمسك المال خشية الفقر، ولكن المعنى هنا على أن البخيل لا يبذل المال لأن البذل نفسه مكروه لديه بصرف النظر عما يترتب عليه، وقد يساعد على هذا المعنى أن الذي يمسك خزائن الله التي لا تنتهى لا يخشى النفاذ، ولكن نفسيته التي تمكن الشح منها تخيفه من كل شيء يبعد عن هذا الشيء المحبوب لديه وهو الشح، وفي ذلك ما فيه من المبالغة في وصف بني الإنسان بالبخل.

الثالث : قوله تعالى : ﴿ وكان الإنسان قتوراً ﴾ ليس أوضح من ذلك في وصف الإنسان بالشح بل الشح المبالغ فيه^(١).

قال ابن عباس وقتادة: أي بخيلاً منوعاً^(٢). ومنه قوله تعالى : ﴿ أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً ﴾ . (النساء : ٥٣) أي لو أن لهم نصيباً من ملك الله لما أعطوا أحداً شيئاً ولا مقدار نقير. والله تعالى يصف الإنسان من حيث هو، فإن البخل والجزع والهلع صفة له^(٣). كما قال تعالى : ﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً إلا المصلين ﴾ (المعارج : ١٩ - ٢٢) .

ولذا فقد ذم الله تعالى الشح والأشحاء وجعله صفة المنافقين والكفار ﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا

(١) القرآن والطبائع النفسية (ص ١٩٨) .

(٢) تفسير ابن كثير (٦٦/٢) .

(٣) تفسير ابن كثير (٦٦/٣) .

يأتون البأس إلا قليلاً . أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً ﴿ (الأحزاب : ١٨ - ١٩) .

قال قتادة : (أما عند الغنيمة فأشح قوم وأسوأه مقاسمة أعطونا أعطونا قد شهدنا معكم ، وأما عند البأس فأجبن قوم وأخذ له للحق وهم مع ذلك أشحة على الخير أي ليس فيهم خير قد جمعوا بين الجبن والكذب وقلة الخير)^(١) .

وعلى النقيض من هؤلاء المنافقين الأشحاء ، مدح القرآن الأنصار الكرماء الذين تخلصوا من شح أنفسهم وآثروا إخوانهم المهاجرين في سبيل الله على أنفسهم في كل شيء كما وصفهم ربهم سبحانه ﴿ والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ (الحشر : ٩) .

وقال تعالى محذراً من الشح وفتنة الأموال والأولاد : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم . فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ . (التغابن : ١٥ - ١٦) .

روي عن النبي ﷺ « لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبداً ، ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً » .

(١) تفسير ابن كثير (٣/٤٧٤) .

وعنه أيضاً: «إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم».

وقد روي عن عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - كان يطوف بالبیت ويقول: (اللهم قني شح نفسي لا يزيد على ذلك . فلما سئل عن ذلك قال: إني إذا وقيت شح نفسي لم أسرق ولم أزن ولم أفعل . . .)^(١).

ومن الآيات التي تربط الشح بالبخل : ﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو، وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم، ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء، وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ (محمد : ٣٦ - ٣٨).

وقد كشفت الآيات عن سبب البخل وتأصل الشح في النفس الإنسانية ورغبت وأرهبت، ووصفت الداء والدواء، وهي بهذا أجمع آية في الحديث عن البخل في كتاب الله . . . إذ بدأت ببيان حقيقة الدنيا وأنها (لعب ولهو) حين لا يكون وراءها غاية أكرم وأبقى وهذا الذي تشير إليه الفقرة التالية ﴿ وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ﴾ .

فالإيمان والتقوى في الحياة الدنيا هو الذي يخرجها عن أن تكون لعباً ولهواً ويطبعتها بطابع الجد، ويرفعها إلى مستوى الخلافة الراشدة المتصلة بالملا الأعلى ويومئذ لا يكون ما يبذله المؤمن التقى مقطوعاً ولا ضائعاً، فقد جعل حياته الفانية مزرعة لآخرته الباقية . . ومع هذا فإن الله

(١) تفسير ابن كثير (٤/٣٣٩).

لطيف بعباده لا يسأل الناس أن يبذلوا أموالهم كلها، بل يسألهم أن يبذلوا منها شيئاً قليلاً لإعلاء كلمة الله لأنه يعلم لو طلب أن يبذلوها كلها لبخلوا وشق عليهم ذلك: ﴿أن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم﴾ (فيحفكم) أي يجهدكم في السؤال من أحفى شاربه، بالغ في قصه وأحفاه في المسألة بمعنى ألح عليه^(١).

والإحفاء المبالغة وبلوغ الغاية في كل شيء، وقوله: ﴿تبخلوا ويخرج أضغانكم﴾ أي تضغنوا على رسول الله وتضيق صدوركم لذلك وتظهرون كراحتكم ومقتكم لدين يذهب بأموالكم، والبخل هو سبب هذه الأضغان^(٢).

والآية تكشف عن طبيعة النفس البشرية، وحبها الشديد للمال حباً يسيطر على قواها ونزعاتها جميعاً. ولهذا فإن الحكيم الخبير بخبايا النفس لا يطلب منهم أن ينفقوا في سبيل الدفاع عن دينه إلا قدرأ ضئيلاً، حتى لا ينكشف ما طبعوا عليه من الشح والبخل (وحتى لا يظهر ما حرصوا على إخفائه من أضغان وأحقاد ونزعات شريرة)^(٣) والآية بهذا تقرير لواقعية الإنسان في عالمه هذا، وهو أسلوب في التربية حكيم يمهد لما بعده.

وقوله: ﴿ويخرج أضغانكم﴾ قال قتادة: قد علم الله تعالى أن في انفاق المال إخراج الأضغان.

وصدق قتادة: فإن المال محبوب ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه ﴿ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه﴾.

(١) المصباح المنير (ص ١٩٦).

(٢) الكشاف (٣/٥٣٩).

(٣) دراسات في التفسير (ص ٢١٩) د. مصطفى زيد.

وأكثر المفسرين على أن (عن) هنا حلت محل (على) على معنى أن من يبخل فضرره عائد على نفسه، وقليل منهم تنبه إلى دققة من دقائق القرآن الكريم فأقروا (عن) على معناها، والمراد - كما فهم هذا القليل - إن من بخل فإنما بخله عن داعي نفسه، لا عن داعي ربه، فلماذا خص البخل بهذا؟

لعل السر في ذلك هو الإشارة إلى أن الشح راسخ في النفس فيصدر عنه البخل ومن هنا تلمح التفرقة بين الشح والبخل، فالبخل هو المنع، والشح هو المعنى النفسي الذي يصدر عنه المنع. وهذا ما رآه بعض أصحاب الدقائق^(١).

وعلى أية حال فالبخل مذموم قبيح سواء أكان عائداً على النفس، أو صادراً عن داعي النفس. (والله الغني وأنتم الفقراء) فهذا توبيخ ولوم شديد، فقيم البخل وقيم الشح إذن^(٢).

وكل ما في أيديكم، وكل ما ينالكم من أجر على ما تنفقون هو من عند الله ومن فضله فهذه حقيقة كبرى يوجه الله سبحانه عباده إليها، حين أعماهم الشح عنها ثم ينذرهم إنذاراً يهددهم تهديداً بهذه الكلمة الأخيرة التي هي فصل الخطاب ﴿وإن تتولوا قوماً غيركم...﴾ وإنه لإنذار رهيب على النفس التي ذقت حلاوة الإيمان فالمال زهيد حتى يقاس بالإيمان، ورضا الله عز وجل.

وبهذا تأكد لنا أن حب المال والتمسك به والحرص عليه أمر فطري في النفس الإنسانية. وقد قرر القرآن هذه الحقيقة كما رأينا، ولم يقف

(١) تفسير ابن كثير ٤/١٨٢.

(٢) القرآن والطبائع النفسية (ص ٢٠٠).

منها موقف الإنكار بل وقف موقفه من كل الشهوات المحببة إلى نفوس العباد، فاعترف بها وقررها كأمر واقعي، ثم سلك منهجاً تربوياً حكيماً لنقل النفس الإنسانية من هذه الواقعية الأنانية الأثرة إلى الجماعية الخيرة المؤثرة.

وقد رأينا كيف ربي الأسلوب القرآني الحكيم النفس الإنسانية عن طريقي الترغيب والترهيب - على البذل والعطاء في سبيل الله عن أريحية كبيرة.

وعرفنا مدى خطورة الإمساك عن الجهاد بالمال في سبيل الله وأنه يؤدي إلى التهلكة للنفس والدمار إلى المجتمع.

فالجهاد بالمال فرض على كل قادر، ولا يجوز بحال التقتير أو عدم البذل بل يجب أن يقدم المسلم كل ما يملك عن طواعية رغبة فيما عند الله، ورجاء رضاه وجنته. فالله مالك الملك، وييده ملكوت كل شيء، وله خزائن السموات والأرض، وليس في حاجة إلى أموالنا، بل نحن الفقراء إلى الله، ومن هنا فيجب الإنفاق من مال الله الذي جعلنا مستخلفين فيه، من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال ولا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وهذا الجهاد (الجهاد بالمال) لا ينوب فيه أحد عن أحد. فالكل يجب أن يسارع إلى الإنفاق ولا يتبع خطوات الشيطان الذي يخوف بالفقر، ويأمر بالفحشاء، ويصد عن سبيل الله وهكذا جاهد الرعيل الأول من صحابة رسول الله بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله بعد أن جاهدوا أنفسهم وشياطينهم فحققوا الانتصار والفوز في كل ميادين الجهاد، وفازوا بشرف الدنيا وسعادة الآخرة.

ولننظر كيف تم تربية نفوس الرعيل الأول على داعية البذل في سبيل الله على طريقة القرآن التي أخذت بمجامع النفس عن طرق الترغيب والترهيب.

أولاً : الترغيب :

بعد أن قررت النصوص القرآنية أن الشح حاضر في الأنفس، وأن الإنسان لربه لكنود وأنه على حب الخير لشديد، لم ينكر الله على النفس هذا الواقع باعتبار أنه أمر فطري، ولكنه في الوقت نفسه لم يقر النفس على البقاء عند هذه الدرجة الدنيا من مراتب النفس على أساس أنها جزء من واقعها، بل اعتبر هذا التقرير الخطوة الأولى من خطوات التدرج التربوي الرباني الحكيم للارتفاع بالنفس إلى أسمى مراتب الكمال الإنساني.

فمن هنا أخذت النصوص القرآنية تهتف بالنفس هتافات متنوعة تستجيشها وتشجعها وتحذرهما وتطمئنها، كل ذلك في آن واحد على طريقة القرآن في التربية والتهذيب.

فللنفس مخاوف كثيرة تمنعها من الإنفاق في سبيل الله، سلطت النصوص القرآنية الأضواء الكاشفة عليها، ولمستها لمساً ليناً لطيفاً، ثم استلتها وطهرت النفس منها وعندها أصبحت النفس خيرة سخية تبذل المال عن محبة ورضا وإخلاص بل واندفاع.

وهذه هي طريقة القرآن في تحرير النفس من الشعور بالخوف على الرزق وأنه هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقبض عن من يشاء، وإن الرزق مكفول لخلق الله جميعاً، وإن رزقه ماله من نفاذ، وإنه من يتق الله يرزقه من حيث لا يحتسب.

﴿ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ (الشورى: ١٢).

فالبسط والقبض بيده وحده، لأنه وحده الرزاق ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ (الذاريات: ٥٨)، وهو خير الرازقين ﴿ قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين ﴾ (الجمعة: ١١).

والرزق مكفول لكل مخلوقاته ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ (هود: ٦).

ورزقه موفور لا ينفد ﴿ إن هذا لرزقنا ما له من نفاذ ﴾ (ص: ٥٤).

فالرزق، والمال ماله لم يكتسبه الإنسان بمهارته بل بإرادة الله ومقتضي حكمته، فلم الشح والبخل إذن؟

﴿ أم من هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوف في عتو ونفور ﴾ (الملك: ٢١).

ومن هنا يحدد الله وظيفة الإنسان في هذه الأرض ويبين الغاية التي خلق من أجلها: ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون. إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ (الذاريات: ٥٦ - ٥٨).

ويطمئن نفوس المتقين بما أعده لهم من الرزق الحسن ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ (الطلاق: ٢ - ٣).

﴿ والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً ﴾ (الحج: ٥٨).

والله يطلب من الناس أن ينفقوا من مال الله الذي آتاهم ﴿ وماذا

عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله ﴿
(النساء: ٣٩).

ويمثل هذا الأسلوب اللطيف يتوجه الله تعالى إلى عباده بالإِنفاق
في سبيله ﴿ قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم
سراً وعلانية ﴾ (إبراهيم: ٣١).

وتغوص النصوص إلى أعماق النفس لتشخص الداء وتصف
الدواء، فتقرر أن خوف الفقر إنما هو إِيحاء من الشيطان ليضعف ثقة
الإنسان بربه: ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ﴾
(البقرة: ٢٦٨).

﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله، والله واسع عليم ﴾
(النور: ٣٢).

﴿ وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ﴾
(التوبة: ٢٨).

وهل يجوز للنفس بعد هذه التقريرات والتوجيهات والمنبهات
والوعود الإلهية الكريمة أن تخاف الفقر، أو أن تذلل في طلب الرزق،
والله يعدها الفضل والسعة والمغفرة؟

وهكذا يمثل هذا الأسلوب ينزع الحق سبحانه النفس من مخاوفها
ويحررها من عبودية الخوف على الرزق ولكن هذا ليس كل شيء في
المنهج التربوي في التربية على الإِنفاق في سبيل الله، فالنفس التي
تحررت من ذل الاسترزاق قد تتأثر بالقيم الاجتماعية، قيم المال والجاه
وأمثالها. وهنا يعمد القرآن إلى إضعاف تأثير تلك القيم المادية الزائفة،

وينزع آثارها من النفس، ويردها إلى القيم الحقيقية الكامنة فيها حتى تتحرر في النهاية تحراً ووجدانياً كاملاً.

فالله تعالى لا ينكر على النفس ما تراه وما تحسه من متعة الأموال والأولاد. فيقول: ﴿المال والبنون زينة الحياة﴾ (الكهف: ٤٦). ولكن هذه مجرد متعة وزينة، وليست قيمة حقيقية جوهرية فيأخذ النفس وينقلها إلى النافع الدائم إلى القيمة الحقيقية ﴿والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخيراً أملاً﴾. . . وقوله تعالى: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث﴾ (آل عمران: ١٤).

هذه هي جميع مشتريات النفس التي تطمع في الحصول عليها، ولكنها جميعاً ليست قيمة حقيقية فيقرر الله ذلك بقوله: ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا﴾ مجرد متاع عابر ولذة فانية لا تدوم لأحد. . . فيرد النفس إلى الدائم الخالد ﴿والله عنده حسن المآب﴾. (آل عمران: ١٤).

وقد أكثر الله من وصف هذا المتاع بأنه ليس متاع الحقيقة بل هو متاع زائف يخدع النفس فيبعدها عن السعادة والخير ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾. (آل عمران: ١٨٥).

الحياة الدنيا كلها متاع زائف لا يستحق التكالب عليه. ﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين﴾ (سبأ: ٣٥).

فليست هذه هي القيمة الحقيقية التي يفرح بها عباد الله بل القيمة الحققة هي ما ردهم الله تعالى إليه ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون﴾ (سبأ: ٣٧).

فالله سبحانه لا يغض من قيمة المال والأبناء ولكنه لا يعتبرهما قيمة حقيقية تحط وترفع وتعز وتذل ، فالقيمة الحققة عنده للإيمان والعمل الصالح ﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ (المطففين : ٢٦) .

وقد ضرب الله تعالى الأمثال للقيم المادية والقيم المعنوية ، ومنها قصة صاحب الجنتين التي ذكرها تعالى في سورة الكهف ، وفي قصة قارون عرض لصورتين نفيستين بإزاء فتنة المال والثراء ، صورة النفوس الضعيفة التي ازدهتها ثروة قارون وصورة النفوس المؤمنة التي اعتزت بإيمانها ولم تضعف أمام هذا الثراء الواسع ﴿ فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون ﴾ ثم يختم القصة بقوله : ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ . (القصص : ٧٩ - ٨٣) .

وبمثل هذه الأساليب المتنوعة حرر النفس الإنسانية من التأثر بالقيم المادية فباع المؤمنون دنياهم بأخراهم ، واشتروا باقياً بفان ، وسارعوا في البذل بسخاء لأنهم يرجون ثواب الله ولا يخشون من ذي العرش إقلالاً .

فالإسلام لا يغفل التحرر الكامل للوجدان ويسلك إلى هذه الغاية شتى السبل ومن بينها التحذير الإيحائي من فتنة الأموال والأولاد . ﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ، وأن الله عنده أجر عظيم ﴾ (الأنفال : ٢٨) .

﴿ يأيتها الذين آمنوا لا تلهمكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ﴾ (المنافقون : ٩) .

ولا يقولون كما يقول المنافقون : ﴿ شغلنا أموالنا وأهلونا ﴾
(الفتح : ١١) .

فالله يطلب من المؤمنين أن يحذروا الاندفاع وراء فتنة الأموال والأولاد وأن يقاوموا رغبتهم للمال وأن يحددوا حبهم للولد ، حتى لا يقعد بهم حب المال والولد عن طاعة الله ولينظر المؤمن ثواب الله وأجره العظيم الذي لا يعدله مال مهما بلغ ، ولا ولد مهما عز ونفع ، وليختر الباقي على الفاني . فلن يغني المال والولد من الله شيئاً : ﴿ لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ﴾ . (المجادلة : ١٧) .

ثم يتدرج الأسلوب الحكيم مع النفس شيئاً فشيئاً ، فبعد أن استل منها جميع المخاوف ، يأخذ في توطين المؤمن على الابتلاء والاختبار في بذل المال والنفس حتى لا تجزع وتنتكس إذا ما قوبلت بالشدة لأول مرة . فيقول تعالى : ﴿ لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً إن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾ . (آل عمران : ١٨٦) .

قال الرازي (١) : اختلفوا في معنى الابتلاء فقال بعضهم : المراد ما ينالهم من الشدة والفقر وما ينالهم من الفقر وما ينالهم من القتل والجرح والهزيمة من جهة الكفار ومن حيث أزموا الصبر والجهاد .

وقال الحسن : المراد به التكاليف الشديدة المتعلقة بالبدن والمال .

وقال ابن جرير (٢) : لتخبرن بالمصائب في أموالكم وأنفسكم .

(١) التفسير الكبير (١٢٧/٩) .

(٢) تفسير الطبري (٢٠٠/٤) .

وقال الزمخشري (١) : خوطب المؤمنون بذلك ليوطنوا أنفسهم على احتمال ما سيلقونه من الأذى والشدائد والصبر عليها إذا لقوها وهم مستعدون لا يرهقهم ما يرهق من يصيبه الشدة بغتة فينكرها وتشمئز منها نفسه .

ومن الابتلاء المدافعة عن الحق سواء أكان بالمال أو بالنفس ، فهو يوطن نفوسهم على الأخذ بالاحتياط من الأمور العامة والاستعانة عليها بالمال وتحمل المكاره ويحذرهم من الشره والطمع في المال . . . وذكر المال أولاً لأنه الوسيلة التي يكون لها الاستعداد لبذل النفس ، فبذل المال يحتاج إليه قبل بذل النفس .

ومن هنا تأخذ الآيات في ترغيب النفوس المؤمنة - التي تحررت من كل المخاوف والمعوقات في البذل بسخاء لإعداد وسائل الدفاع والقوة التي ترهب الأعداء .

﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ (الأنفال : ٦٠) .

فربطت الآية الكريمة بين إعداد القوة لإرهاب العدو ، وبين البذل والإنفاق ربطاً وثيقاً ، ووعدت المنفقين حسن الجزاء وأطيب الوفاء . وبدون الإنفاق والبذل فلن يكون هناك إعداد ، فكل إعداد للعدة أو تجهيز للمجاهدين يحتاج إلى المال ومن هنا كان الربط بين الإعداد والإنفاق .

(١) تفسير المنار (٤/ ٢٧٣) .

وقد رغب الله تعالى في بذل المال والنفس في سبيل إعلاء دينه بأن جعل ما يقدمه المؤمنون من مال ونفس صفقة تجارية بينهم وبين ربهم سبحانه ، الله سبحانه وتعالى هو المشتري والمؤمن هو البائع . والتمن هو الجنة .

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ . (التوبة : ١١١) .

قال الزمخشري (١) : لا نرى ترغيباً في الجهاد أحسن منه وأبلغ .
ومر أعرابي برسول الله ﷺ وهو يقرؤها فقال : كلام من ؟ قال :
كلام الله قال : يبع مربح لا نقيه ولا نستقيه ، فخرج إلى الغزو فاستشهد .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ (الصف : ١٠ - ١١) .

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم قالوا : لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملناه . فنزلت هذه الآية فمكثوا ما شاء الله يقولون : ليتنا نعلم ما هي فدلهم الله عليها بقوله تؤمنون - وهذا على أن تؤمنون كلام مستأنف ، وعلى أن الأمر الوارد على العمل به بعد عمله وإلا

(١) الكشاف (٢/٢١٦) .

فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها ﴿ ذلكم ﴾ يعني ما ذكر من الإيمان والجهاد خير لكم من أموالكم وأنفسكم ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ لأنكم إذا علمتم ذلك واعتقدتموه أحببتم الإيمان والجهاد فوق ما تحبون أنفسكم وأموالكم فتخلصون وتفرحون . . ولكم إلى هذه النعمة المذكورة من المغفرة والثواب من الآجلة نعمة أخرى عاجلة محبوبة إليكم ، هي الفتوح الكثيرة (١) .

وذلك في قوله تعالى : ﴿ يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ﴾ (الصف : ١٢ ، ١٣) .

وهذا كله من ربح تلك التجارة العظيمة التي لا تبور ، فيقول للمؤمنين إن فعلتم ما أمرتكم به ودللتكم عليه غفرت لكم الزلات وأدخلتكم الجنات والمساكن الطيبات والدرجات العالية . ﴿ وأخرى تحبونها ﴾ أي وأزيدكم على ذلك زيادة أخرى تحبونها وهي ﴿ نصر من الله وفتح قريب ﴾ فهذه الزيادة هي خير الدنيا موصولاً بنعيم الآخرة (٢) .

وقال في سورة التوبة : ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ (التوبة : ٤١) .

فالجهاد بالمال والنفس خير من الدنيا ومن فيها .

(١) الكشاف (٤/١٠٠) .

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٣٦١) .

وقد أكثر الله سبحانه من ضرب الأمثال للنفقة ومضاعفتها أضعافاً مضاعفة ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم . الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (البقرة : ٢٦١ ، ٢٦٢) .

قال الشوكاني^(١): اقتضت هذه الآية بأن نفقة الجهاد حسبتها بسبعمائة ضعف .

وقال الألوسي^(٢) : إن المراد الإنفاق في الجهاد لأنه هو الذي يضاعف هذه الأضعاف أما الإنفاق في غيره فلا يضاعف كذلك وإنما تجزى الحسنة بعشرة أمثالها . . .

وقيل : إن المقصود من الآية أن الإنسان إذا علم أنه إذا بذر حبه إذا أخرجت له ما ذكر فلا ينبغي له التقصير في ذلك . فكذلك ينبغي لطالب الأجر أن لا يترك الإنفاق إذا علم أنه يحصل له بالواحد سبعمائة^(٣) .

وكذا قال ابن كثير : هذا مثل ضربه الله لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته وان الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف .

وقال مكحول : يعني به في الجهاد من رباط الخيل وإعداد السلاح

(١) فتح القدير (١/٢٥٤) .

(٢) روح المعاني (٣/٣٢) .

(٣) تفسير الخازن (١/٢١٨) .

وغير ذلك . وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة .

أما الإمام القرطبي (١) : فيرى أن الحسنة تضاعف أكثر من سبعمائة ضعف لقوله تعالى : ﴿ والله يضاعف لمن يشاء ﴾ فهذا زيادة على السبعمائة .

وقد أخرج مسلم في صحيحه عن الرسول ﷺ : « أن رجلاً جاء بناقة مخطومة فقال : هذه في سبيل الله ، فقال رسول الله : لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة » .

ويعني رسول الله بسبيل الله (الجهاد) كما سبق أن وضعنا وكما جاء في حديث ابن ماجة (من أرسل بنفقة في سبيل الله ، وأقام في بيته فله بكل درهم سبعمائة درهم ومن غزا بنفسه في سبيل الله وأنفق في وجه الله ، فله في كل درهم سبعمائة ألف درهم ثم تلا هذه الآية ﴿ والله يضاعف لمن يشاء ﴾ (٢) .

وهذا الذي اعتمد عليه القرطبي في تأييد رأيه فلا ينبغي لمؤمن أن يبخل بدينار ولا درهم في سبيل الله بعدما سمع من مضاعفة ثوابه إلى هذه الأضعاف وان هذا الأجر لا يكون إلا في نفقة الجهاد ، لأهمية الجهاد بالمال وخطورة الإمساك والشح .

ولكن أي الإنفاق هذا الذي يربو وينمو إلى هذه الأضعاف المضاعفة ؟ وأي عطاء هذا الذي يضاعفه الله في الدنيا والآخرة كل هذه الأضعاف ؟

إنه الإنفاق الذي ينبعث عن أريحية ونقاء ، ويتجه إلى الله وحده ،

(١) تفسير القرطبي ٣/٣٠٥ .

(٢) سنن ابن ماجة (٢/٩٢٢) .

ابتغاء رضاه ﴿ وما تنفقوا من خير فلا أنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ (البقرة : ٢٧٢) .

فالمؤمن لا ينفق إلا ابتغاء وجه الله ، فلا تصدر نفقته عن هوى ولا يستهدف غرضاً من أغراض الدنيا . إذ أنه لا ينفق ماله أشراً ولا بطراً ولا رثاء الناس .

ولقد ضرب الله مثلاً للذين ينفقون أموالهم في سبيل الله وابتغاء مرضاته فقال عز من قائل : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعلمون بصير ﴾ (البقرة : ٢٦٥) .

قال الزمخشري ^(١) : فقد فسر قوله تعالى : ﴿ وتثبيتاً من أنفسهم ﴾ أي يثبتوا منها ببذل المال الذي هو شقيق الروح وبذله أشق شيء على النفس على سائر العبادات الشاقة وعلى الإيمان ، لأن النفس إذا رضيت بالتحامل عليها وتكليفها ما يصعب عليها ظلت خاضعة لصاحبها وقل طمعها في اتباع الشهوات وبالعكس . فكان إنفاق المال تثبيتاً على الإيمان واليقين ، فإذا بذل صاحب المال ماله لوجه الله فقد ثبت بعض نفسه ومن بذل ماله وروحه معاً فهو الذي ثبتها كلها ﴿ وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ﴾ (الصف : ١١) .

وقال الألوسي في قوله : ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ ترغيب وترهيب ، أي إنه سيجازي كلاً من المخلص والمرائي بما هو أعلم به . ففي الجملة ترغيب للأول وترهيب للثاني . مع ما فيه من الإشارة إلى

(١) الكشاف (١/٣٩٤) .

الحط على الأخير حيث قصد بعمله رؤية من لا تغني رؤيته شيئاً وترك وجه البصير الحقيقي الذي تغني رؤيته وتفقر عز شأنه .

وضرب الله مثلاً آخر رغب فيه بالإِنفاق في سبيله دون مَنْ ولا رثاء حتى لا يحبطه الله : ﴿ أَيُود أَحْذَكُم أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضِعْفَاءُ فَاصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ، كَذَلِكَ يَبِينُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (البقرة : ٢٦٦) .

قال الحسن : هذا مثل قل والله من يعقله من الناس ، شيخ كبير ضعف جسمه وكثر صبيانه أفقر ما كان إلى جنته ، وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا .

قال الزمخشري : وهذا مثل من يعمل الأعمال الحسنة ولا يتبغى بها وجه الله فإذا كان يوم القيامة وجدها محبطة فيتحسر عند ذلك .

وقد رغب الحق سبحانه المؤمنين في الإِنفاق بما أعده لهم عنده يوم القيامة من الأجر العظيم : ﴿ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة : ٢٧٤) .

قال ابن كثير^(١) : هذا مدح منه تعالى للمنفقين في سبيله بالليل والنهار سرّاً وعلانية في جميع الأوقات وقيل إنها نزلت في الذين يعلفون الخيل في سبيل الله .

(١) تفسير ابن كثير (١/٣٢٦) .

وكلمة ﴿ عند الله ﴾ فيها من التشريف والترغيب في النفقة ما يستجيش شعورهم ويحضهم على البذل بسخاء في سبيل الله الذي سيجدون عنده الثواب الجزيل .

وكل نفقة صغيرة كانت أم كبيرة تزيد في حسنات المنفقين وترفع درجاتهم وتعلي شأنهم عند الله يوم القيامة : ﴿ وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه ﴾ (البقرة : ٢٧٠) .

﴿ ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ﴾ (التوبة : ١٢١) .

﴿ وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ (الأنفال : ٦٠) .

وقد جعل الله سبحانه إنفاق المال في سبيله صفة أساسية للمؤمنين ترغيباً لهم في الإنفاق : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ (البقرة : ٣) .

﴿ قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ﴾ (إبراهيم : ٣١) .

﴿ الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ (الأنفال : ٣) .

وقد بلغت آيات سورة الحديد القمة في ترغيب المؤمنين من الإنفاق في سبيل الله : ﴿ آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير . . . وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين . . . هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من

الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم . ومالكم ألا تنفقوا في سبيل الله ، والله ميراث السموات والأرض لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير . من ذا الذي يقرض الله قرصاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم ﴿ (الحديد : ٧ - ١١) .

إن منهج القرآن وأسلوبه التربوي الحكيم لجدير بالوقوف أمامه طويلاً لتدبره .

ففي الإيقاعات الأولى في مطلع هذه السورة والتي ينتهي المقطع الأول منها في قوله تعالى : ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل . وهو عليم بذات الصدور ﴾ (الحديد : ٦) . . في هذا المقطع قوة وتوالت وعمق وتأثير يزلزل القلوب الجامدة زلزالاً ويهزها هزاً عنيفاً ويدعها مرهفة الحساسية ، مستعدة لتقبل جميع الأوامر الإلهية والعمل بها . ولكن القرآن لا يكل قلوب المؤمنين إلى هذه الإيقاعات الأولى ، بل يدعوهم إلى الإيمان والبذل في الفقرة الثانية : ﴿ آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ .

أليس المخاطبون مؤمنين ؟ فكيف يدعون إلى الإيمان بالله ورسوله ؟ إنهم يدعون إلى تحقيق حقيقة الإيمان في قلوبهم بمعناها الصحيح ، وهذه لفظة من اللفظات الدقيقة التي تربط بين الإيمان والإنفاق في سبيل الله .

ولمسة أخرى يلمس الله بها تلك القلوب المرهفة الشفافة أن ينفقوا مما جعلهم مستخلفين فيه لا من عند أنفسهم مما يثير الخجل والحياء من

الله في نفوسهم فما يمسكهم عن البذل والعطاء والمال الذي في أيديهم هو مال الله جعله أمانة عندهم وخلفاء فيه .

قال الزمخشري ^(١) : ﴿ مستخلفين فيه ﴾ يعني الأموال التي في أيديكم إنما هي أموال الله بخلقه وإنشائه لها ، وإنما مولكم إياها وخولكم الاستمتاع بها وجعلكم خلفاء في التصرف فيها ، فليست هي أموالكم في الحقيقة فانفقوا منها في حقوق الله وليهن عليكم الإنفاق منها كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره إذا أذن له فيه ، أو جعلكم مستخلفين ممن كان قبلكم فيما في أيديكم بتوريثه إياكم ، فاعتبروا بحالهم حيث انتقل منهم إليكم وسيقتل منكم إلى من بعدكم فلا تبخلوا به وانفقوا بالإنفاق منه أنفسكم ويزيد في تخجيلهم وترغيبهم بمؤثر جديد : ﴿ فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير ﴾ (الحديد : ٧) .

قال ابن كثير ^(٢) : (هذا ترغيب في الإيمان والإنفاق في الطاعة) .

ثم ينقلهم من موجبات الإيمان بالله ورسوله إلى موجبات الإنفاق : ﴿ ومالكم ألا تنفقوا في سبيل الله والله ميراث السموات والأرض ﴾ (الحديد : ١٠) .

قال الزمخشري ^(٣) : هذا من أبلغ البعث على الإنفاق في سبيل الله - وأي عذر لكم في ترك الإنفاق في سبيل الله والله مهلككم فوارث أموالكم .

(١) الكشاف (٦١/٤) .

(٢) تفسير ابن كثير (٣٠٤/٤) .

(٣) الكشاف (٦٢/٤) .

ثم في مرحلة أخرى من مراحل استجاشة القلوب للبدل بسخاء في سبيل الله قوله : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ﴾ (الحديد : ١١) .

وهذا مثل قوله تعالى في سورة التغابن : ﴿ إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حلیم ﴾ (التغابن : ١٧) .

قال أبو السعود^(١) : قوله : ﴿ من ذا الذي يقرض الله . . . ﴾ ندب بليغ من الله تعالى إلى الإنفاق في سبيله بعد الأمر به والتوبيخ على تركه وبيان درجات المنفقين . أي من ذا الذي ينفق ماله في سبيل الله تعالى رجاء أن يعوضه فإنه كمن يقرضه ﴿ وله أجر كريم ﴾ أي ذلك الأجر المضموم إلى الأضعاف كريم في نفسه حقيق أن يتنافس فيه المتنافسون وإن لم يضاعف فكيف وقد ضعف أضعافاً كثيرة .

وقال الأستاذ الإمام^(٢) : التعبير عن الإنفاق بالإقراض الذي يشعر بحاجة المستقرض إلى المقرض عادة جدير بأن يملك قلب المؤمن ويحيط بشعوره ويستغرق وجدانه حتى يسهل عليه الخروج عن كل ما يملك ابتغاء مرضاة الله وحياء منه ، وكيف وقد وعده برده أضعافاً مضاعفة ووعدته الحق ؟

وهذا التعبير إيقاظ قوي لقلوب المؤمنين ، أيكون مثل هذا اللطف من الله بعبده الذي غمره بنعمته وفضله ، على كثير من خلقه ثم يجمد قلبه وتنقبض يده ولا يستحي من ربه ولا يثق بوعدته ، ويقال مع هذا مؤمن به . . ؟

(١) تفسير أبي السعود (١٢٦/٥) .

(٢) تفسير المنار (٤٦١/٢) .

ويقول الشيخ رشيد رضا (١) : القتال للدفاع عن الحق أو لحماية الحقيقة يتوقف على بذل المال لتجهيز المقاتلة وغير ذلك ، ولذا قرن الله تعالى الأمر بالقتال ، بالحث على بذل المال ، فالمراد بالبذل هنا ما يعين على القتال ، وقد ذكر حكم هذا الإنفاق في سبيل الله بعبارة تستفز النفوس ، وأسلوب يحفز الهمم ويبسط الأكف بالكرم وهذه العبارة أبلغ من الأمر المجرد ، ومن الأمر المقرون ببيان الحكمة والتنبيه على الفائدة وقد بلغ سبحانه في الترغيب وحسبه أنه جعل البذل بمثابة الإقراض له وهو الغني عن العالمين ، وإنما يقترض المحتاج وانه عبر عن طلبه هذا بضرب من الاستفهام المستعمل للإكبار والاستعظام ، فإنه يقال من ذا الذي يفعل كذا ؟ في الأمر الذي يندر أن يقدر عليه أحد ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ (البقرة : ٢٥٥) ﴿ قل من ذا الذي يعصمكم من الله ﴾ (الأحزاب : ١٧) وإنه لم يكتف بتسميته إقراضاً ، وبالتعبير عنه بهذا الاستفهام حتى قال : ﴿ فيضاعفه الله أضعافاً كثيرة ﴾ (البقرة : ٢٤٥) زيادة في الترغيب .

وقال النيسابوري (٢) : لا يجوز أن يكون (من) و(ذا) بمنزلة اسم واحد كما كانت ماذا لأن (ما) أشد إبهاماً من (من) إذا كانت (من) لمن يعقل ، وقد بني الكلام على طريقة الاستفهام ، لأن ذلك أدخل في الترغيب على الفعل من ظاهر الأمر .

وروى ابن كثير في تفسيره (٣) : عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية قال أبو الدحداح الأنصاري يا رسول الله

(١) تفسير المنار (٢/٤٦٢) .

(٢) غرائب القرآن (٢/٣٠٥) .

(٣) تفسير ابن كثير (٤/٣٠٧) .

(وإن الله ليريد منا القرض؟ قال : نعم . . يا أبا الدحداح . قال : أرني يدك يا رسول الله . قال : فناوله يده ، قال : أقرضت ربي حائطي وله حائط فيه ستمائة نخلة ، وأم الدحداح وعيالها فيه ، فجاء أبو الدحداح فناداها : يا أم الدحداح قالت : لبيك ، قال اخرجي وقد أقرضته ربي عز وجل ، فقالت : ربح البيع يا أبا الدحداح ، ونقلت منه متاعها وصبيانها وإن رسول الله قال : كم من عذق رداح في الجنة لأبي الدحداح (وفي لفظ) رب نخلة مدلاة عروقتها در وياقوت لأبي الدحداح في الجنة .

وهكذا أثمرت دعوة الله المؤمنين إلى الإنفاق وآتت أكلها طيباً .

ولا يكفي السياق بما وصل إليه من نتائج بل يتابع ضرباته على أوتار تلك القلوب التي أفاض عليها من فضله ، عتاب فيه الود ، وفيه الحض ، وفيه الاستجاشة إلى الشعور بجلال الله والخشوع لذكره .

عن ابن عباس رضي الله عنه (١) ، قال : إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن .

وعن أبي بكر رضي الله عنه : (أن هذه الآية قرئت بين يديه وعنده قوم من أهل اليمامة ، فبكوا بكاء شديداً ، فنظر إليهم وقال : هكذا كنا حتى قست القلوب) (٢) .

وقوله تعالى : ﴿اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها﴾ (الحديد : ١٧) .

قيل هذا تمثيل لأثر الذكر في القلوب وإنه يحييها كما يحيي الغيث الأرض .

(١) تفسير ابن كثير (٤/٣١٠) .

(٢) الكشاف (٤/٦٤) .

ويتبع هذه اللمسة المحيية ، وذلك العتاب الرقيق ، بحافز جديد
للبدل بصدق نية لوجه الله تعالى : ﴿ إن المصدقين والمصدقات
واقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ . (الحديد : ١٨) .

وأية منزلة هذه التي رفع الله بها المنفقين أموالهم في سبيل الله ؟
إن مولاهم الكريم وضعهم في منزلة الصديقين والشهداء والأنبياء وحسن
أولئك رفيقاً .

وأخيراً بعد هذه الجولة القوية في أعماق القلوب ، يهتف الله
بالمؤمنين ليتسابقوا إلى جنة عرضها كعرض السموات الأرض ، أعدها
للمنفقين في سبيله .

﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السموات
والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله
ذو الفضل العظيم ﴾ (الحديد : ٢١) .

وهكذا ، تبلغ آيات الترغيب القمة في تحريك ودفن النفوس بأن
تجود بكل ما تملك في سبيل الله .

ثانياً : الترهيب .

وهنا يأخذ الخبير بخبايا النفوس وخفاياها ، العالم بأمراضها
وعلاجها يحضُّ نفوس المسلمين على الجهاد بالمال عن طريق الترهيب
بعد أن أخذهم فيه بطريق الترغيب ، فالنفوس التي لا تصلح بالرغبة لا
ينفعها إلا الرهبة والخوف الذي يقطع نياط القلوب .

وآيات الترهيب كثيرة ومتنوعة ومبكرة في النزول . . . ففي أول
سورة نزلت في القرآن الكريم ردع شديد لمن كفر بنعمة الله فطغى حين

كثر ماله ، وإنذار عنيف بأن ماله هو وماله إلى الله وسيحاسبه عليه حساباً
عسيراً ﴿ كلاً إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى إن إلى ربك الرجعى ﴾
(العلق : ٦ - ٨) .

قال ابن كثير (١) : يخبر تعالى عن الإنسان أنه ذو فرح وافر وبطر
وطغيان إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله ، ثم تهدده وتوعده ووعظه
﴿ إن إلى ربك الرجعى ﴾ أي إلى الله المصير والمرجع وسيحاسبك على
مالك من أين جمعته وفيم أنفقته .

وفي سورة نون السورة التالية لها : ذكر الله تعالى أن المال هو
الذي سبب لصاحبه الأحمق الكفر والطغيان وسوء الخلق ﴿ ولا تطع كل
حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك
زنيماً ، أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ،
سنسمه على الخرطوم ﴾ (القلم : ١٥ - ١٦) .

فالموصوف في هذه الآيات جامع الصفات الرذيلة ، مستحوذ
عليها .

فقد وصفه بالبخل الشديد في قوله تعالى ﴿ مناع للخير ﴾ وفي هذا
إشارة بالغة إلى تنبيه العقول والأفهام إلى أن البخل مذموم عند الله غاية
الذم من أول عهد المسلمين بالإسلام ، وفي سورة الهمزة ورد قوله
تعالى : ﴿ ويل لكل همزة لمزة ، الذي جمع مالا وعدده ، يحسب أن
ماله أخلده ، كلاً لينبذن في الحطمة ، وما أدراك ما الحطمة نار الله
الموقدة ، التي تطلع على الأفئدة ، إنها عليهم مؤصدة في عمد ممددة ﴾
(الهمزة : ١ - ٩) .

(١) تفسير ابن كثير (٤/٥٢٨) .

فهذه سورة كاملة تحمل من بدايتها حملة عنيفة تقشعر لهولها الأبدان - على الذي جعل المال إلهاً يعبد فالهاه جمعه وتكديسه عن الإيمان بالله وذكره . ﴿ كلا ﴾ ردع شديد ﴿ لينبذن في الحطمة ﴾ أي ليلقين هو وماله في نار تحطم عظامه وتلتهم كل ما يلقي فيها ثم يكرر التهديد والوعيد بتلك النار ﴿ وما أدراك ما الحطمة ﴾ إنها ﴿ نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة ﴾ حتى تصل إلى صدورهم وتطلع على أفئدتهم . وهي أوساط قلوبهم والتي لا شيء في بدن الإنسان ألطف من الفؤاد ولا أشد تألماً منه بأدنى أذى يمسّه ، فكيف إذا اطلعت عليه نار جهنم واستولت عليه .

ويا ليت الأمر يقف عند هذا ، ولكنها ﴿ عليهم مؤصدة في عمد ممددة ﴾ إنه العذاب المقيم الذي لا أمل في الخروج منه ، والله يؤكد تئسهم من الخروج ويقينهم بحبس الأبد فتؤصد عليهم الأبواب وتمدد على الأبواب عمد الحديد استيثاقاً في استيثاق (١) . . . فأى وعيد وأي تهديد أكثر من هذا .

وفي سورة (البلد) تخويف من جهنم وانه لا سبيل إلى النجاة منها إلا بإنفاق المال في سبيل الله ﴿ فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة ، أو مسكيناً ذا متربة ﴾ (البلد : ١١ - ١٦) .

وفي سورة (التكاثر) وعيد بعد وعيد يزلزل الجبال الراسيات لمن ألهاهم التكاثر عن طلب الآخرة وثوابها ﴿ ألهاكم التكاثر حتى زرتم

(١) الكشاف (٢٨٤/٤) وانظر تفسير ابن كثير (٥٤٨/٤) .

المقابر كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون ، كلا لو تعلمون علم
اليقين لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين ، ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴿
التكاثر : ١ - ٨﴾ .

قال الحسن (١) : في قوله تعالى : ﴿ كلا سوف تعلمون . ثم كلا
سوف تعلمون ﴾ وعيد بعد وعيد .

وقد توعد الله (عدوه أبا لهب) بالخسران والعذاب الشديد يوم
القيامة لأن ماله كان سبباً في بطره وجحوده وعناده ، ﴿ تبت يدا أبي لهب
وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته
حمالة الحطب ، في جيدها حبل من مسد ﴾ (المسد : ١ - ٥) .

هذه نماذج من الآيات المكية التي توعد الله تعالى فيها من كفروا
بأنعمه عليهم ، فأبظروهم الغنى فاستحقوا اللعنة في الدنيا والخزي
والعذاب الأليم في الآخرة .

وفي الآيات المكية والمدنية كثير من الآيات التي تدمم بالبخل
والبخلاء وتتوعدهم بأشد أنواع العذاب حتى يظن المتأمل في هذه الآيات
أن النار لم تخلق إلا لهم .

﴿ ولا يحسبن الذين يدخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم
بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة والله ميراث السموات
والأرض والله بما تعملون خبير ﴾ (آل عمران : ١٨٠) .

﴿ الذين يدخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من
فضله واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً ﴾ (النساء : ٣٧) .

(١) تفسير ابن كثير (٤/٢٤٥) .

﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد ﴾ . (الحديد : ٢٤) .

ومما يستفاد من قوله تعالى : ﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ﴾ زيادة على ما فيه من التهديد والوعيد تكشف الآية عن نفسية البخيل المنطوية على اللؤم والخسة ، فالبخيل يجد لذة في تزيين البخل لغيره ، فهو يعرف قبح البخل وحطة البخيل عند الله والناس ، فيسعى إلى حمل الناس على البخل حتى يكثر أمثاله من البخلاء ولا ينفرد هو بهذا النقص المعيب . وكما جعل الله سبحانه الاعتدال في كل شيء من صفات المؤمنين الذين لا يخرجهم الألم بالضراء ولا الفرح بالسراء عن دائرة التوجه إلى الله ، فإنه جعل الاختيال والفخر صفات ملازمة للبخلاء .

﴿ إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ﴾ (النساء : ٣٦ ، ٣٧) .

﴿ لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد ﴾ (الحديد : ٢٣ ، ٢٤) .

والصلة وثيقة بين الاختيال والفخر ، والبخل وأمر التأسى به ، ذلك أن البخيل خرج ببخله عن موجبات الإيمان ، فظن أن ما أوتيته من مال وجاه هو كسبه فيفخر ويختال ثم يبخل ببذل شيء منه ، ويحث غيره على البخل ليحقق مبدأه ومنهجه فاستحق بصفاته تلك بغض الله وكراهيته ﴿ إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً ﴾ .

وانتهت الآية بوعيد شديد للخلاء الأمرين الناس بالبخل ﴿ واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً ﴾ أي عذاباً ذا إهانة ، فيه الألم والمهانة والذلة جزاء وفاقاً لكبرهم ، وكفرهم ، وبخلهم . وقال ﴿ للكافرين ﴾ ولم يقل ﴿ لهم ﴾ لأن هذه الصفات الذميمة ليست من المؤمنين في شيء فكأن بخلهم قد أخرجهم عن دائرة الإيمان .

وقال تعالى أيضاً : ﴿ يأيتها الذين آمنوا انفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون ﴾ (البقرة : ٢٥٤) .

فلا نجاة للأشحة الباخلين بأموالهم في سبيل الله من عذاب ذلك اليوم الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون ، ولا تجزي نفس عن نفس شيئاً ، ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل .

فهنا يتوعدهم الله بعذاب ذلك اليوم ، فربما يفعل التهيب في نفوسهم ما لا يفعل الترغيب فكثير من النفوس لا تفعل الخير إلا خوفاً من العقاب والعذاب .

وقوله ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾ صفة ملازمة للذين كفروا بأنعم الله تعالى عليهم إذ لم يضعوها في موضعها ، فظلموا أنفسهم وقومهم بإمساكهم عن الإنفاق في سبيل الله . . وهذا ما قرره الأستاذ الإمام بقوله : (لوفتشتتم عن خفايا النفس لوجدتم أن حب المال أعلى في قلب المانع من حب الله ، وشأن المال أعظم في نفسه من حقوق الله لأن النفس تدعن لما هو أرجح في شعورها نفعاً وأعظم في وجدانها وقعاً ، مهما تعارضت وجوه المنافع) (١) .

(١) عن تفسير المنار (٢١/٣) .

والذي أجمع عليه علماء المسلمين أنه لا يكتمل إيمان المؤمن حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، استناداً إلى قوله تعالى في سورة التوبة : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ (التوبة : ٢٤) .

وإنها لمفاضلة عجيبة حين يضع الله تعالى كل مشتريات النفس في كفة ويضع في الأخرى حبه وحب رسوله وجهاداً في سبيله ، وللإنسان أن يختار الكفة الراجحة في اعتباره .

ويجب أن أنبه إلى أن الله لا يريد أن يؤثر المؤمنون حبه وحب رسوله والجهاد في سبيله كما يؤثر الدواء البشع ، بل لا بد أن يكون ذلك الإيثار عن رضا ومحبة . . . وإلا فليتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، ذلك الأمر الذي جعله مبهماً حتى تذهب النفس في أوديته كل مذهب ثم يأتي التعقيب الذي تفوح منه رائحة التهديد من مكان بعيد ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ الذين اختاروا الدنيا ومشترياتها على حب الله ورسوله وجهاد في سبيله .

يقول الزمخشري : وهذه آية شديدة لا نرى أشد منها ، كأنها تنعي على الناس ما هم عليه من رخاوة في عقدة الدين واضطراب جبل اليقين .

وقال الأستاذ محمد عرفة (١) : (ما روعتني آية من كتاب الله ما روعتني هذه الآية وما قرأتها قط إلا ارتعدت فرائصي وخيل إلي أن الأرض تدور بي في الفضاء) .

(١) مجلة الرسالة عدد ٧٠٥ سنة ١٩٤٧ م .

فقد جعل الله التخلف عن الجهاد في سبيله بالمال والنفس من صفات المنافقين الملازمة لهم : ﴿ لا يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، والله عليم بالمتقين . . إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون ﴾ (التوبة : ٤٤ ، ٤٥) .

ثم يقول تعالى في هؤلاء المنافقين الذين ينفقون أموالهم رياء الناس وعن كره ﴿ وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون ﴾ (التوبة : ٥٤) .

فقد ضمتهم الآية إلى زمرة الكفرة والمشركين .

أما مصيرهم فقد ذكرته هذه الآية : ﴿ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً ﴾ (النساء : ١٤٥) .

فهم أسوأ مصيراً من الكافرين يوم القيامة . إذ جعلهم الله وقوداً للنار ، وقد توعدهم الله تعالى أن يعذبهم جزاء بخلهم في الدنيا والآخرة وأن يموتوا على الكفر حتى لا يخفف عنهم العذاب ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهد أنفسهم وهم كافرون ﴾ (التوبة : ٥٥) .

ومن كل ما تقدم ، يتبين لنا جلياً مدى خطورة التخلف عن الجهاد بالمال والبخل عن الإنفاق في سبيل الله . فهؤلاء من أبغض خلق الله على الله ، إذ جعل الله تعالى التخلف عن الجهاد بالمال في درجة الكفر ، والفسق ، والظلم والنفاق بل هم رجس ونجس كما قال تعالى : ﴿ إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع

الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون . . . ﴿ إلى قوله :
﴿ إنهم رجس ، ومأواهم جهنم بما كانوا يكسبون ﴾
(التوبة : ٩٣ - ٩٥) .

واشتد عليهم غضب الله حتى جعلهم أصحاب النار ، وأهلها
كأنها لم تجعل إلا لهم فقال عز من قائل : ﴿ لن تغني عنهم أموالهم ولا
أولادهم من الله شيئاً وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ (آل
عمران : ١١٦) .

ونختتم هذه الطائفة من الإنذارات والتهديدات ، بهذا الإنذار
الرهيب للذين يكنزون المال ولا ينفقونه في سبيل الله : ﴿ والذين
يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعباب آليم .
يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم
هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ (التوبة : ٣٤ ، ٣٥) .

قال الزمخشري : قرن الله تعالى بين المسلمين غير المنفقين وبين
المشركين من اليهود والنصارى ، تغليظاً في استحقاق البشارة بالعذاب .

فهل يوجد تهديد أعظم من هذا التهديد ، ووعيد أهول من هذا
الوعيد إذ أن البخل وعدم الجهاد بالمال يخرج المسلم من دائرة الإسلام
إلى دائرة الكفر والشرك ، مع اليهود والنصارى والمشركين .

إذن ، فالمسألة خطيرة ، وخطيرة للغاية ، فعلى كل عاقل أن يتدبر
في هذه الإنذارات والتهديدات التي تقطع نياط القلب ، وأن يسارع إلى
البذل في سبيل الله بأريحية من قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه مال ولا
بنون ، من قبل أن يقف هو وأمواله التي كنزها وبخل عن الإنفاق منها في

سبيل إعلاء كلمة الله ، فيقال له يوم القيامة هذا مالك ﴿ هذا ما كنزتم لأنفسكم ﴾ فيتحول هذا الكنز إلى مكاوي من نار أحمى عليها من نار جهنم ، تلك النار التي أحمى عليها ألف عام حتى احمرت ، وألف عام حتى ابيضت ، وألف عام حتى اسودت . إن الذهب والفضة الذي كتزه صاحبه مائل أمامه يوم القيامة ، ولكن على شكل مكواة ﴿ فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ﴾ ثم لا يكتفي بتحريق هذه الأجزاء الحساسة بهذه النيران بل يلاحقهم التكبيت والتحقير والسخرية والاستهزاء ﴿ هذا ما كنزتم ﴾ أي هذا هو بذاته الذي كنزتموه للذة وبخلتم بإنفاقه في سبيل الله ، فانقلب أداة لهذا اللون من العذاب الأليم ﴿ فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ ذوقوه بذاته ، فهو الذي تذوقون مسه للجنوب والظهور والجباه .

وبعد : فهذه نماذج من الإنذارات الرهيبة الصارمة النافذة إلى أعماق النفس ، عالج بها القرآن الكريم داء البخل واستأصل شأفته من نفوس الرعيل الأول فكان الواحد ينفق كل ما عنده ، فإذا سئل ماذا أبقيت لأهلك ، يقال : أبقيت لهم الله ورسوله . .

وهكذا حققوا معنى الجهاد بالمال ، كما حققوا معنى الجهاد بالنفس ، فجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله .

رابعاً : الجهاد بالنفس .

إن القتال في سبيل الله فريضة شاقة على النفس ، وقد سجلت هذه الحقيقة الآية الكريمة ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم والله يعلم وانتم لا تعلمون ﴾ (البقرة : ٢١٦) .

وعسى أن تجبوا شيئاً وهو شر لكم

قال البيضاوي (١) : (كره) وهو بمعنى الإكراه كأنهم أكرهوا عليه لشدته وعظم مشقته كقوله تعالى : ﴿ حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً ﴾ (الأحقاف : ١٥) . وإنما كان الجهاد كرهاً لأن فيه إخراج المال ، ومفارقة الأهل والوطن ، والتعرض لذهاب النفس ، وفي التعبير بالمصدر وهو قوله (كره) مبالغة (٢) .

وقال الألوسي (٣) : وكون القتال مكروهاً لا ينافي الإيمان لأن تلك الكراهية طبيعية لما فيه من القتل والأسر وإفناء البدن وتلف المال .

والإسلام يحسب حساب الفطرة فلا ينكر مشقة هذه الفريضة ، ولا ينكر على النفس إحساسها الفطري بكراهيتها وثقلها ، وهو لا يماري الفطرة ، ولا يصادمها ، ولا يحرم عليها المشاعر التي ليس إلى إنكارها من سبيل .

﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ﴾ (النساء : ٧٧) .

﴿ ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت ﴾ (محمد : ٢٠) .

﴿ قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا

(١) أنوار التنزيل (١/١٠١) .

(٢) فتح القدير (١/١٩٠) .

(٣) روح المعاني (١/١٠٩) .

نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين ﴿ (البقرة : ٢٤٦) .

وهكذا تقرر هذه النصوص اعتراف الإسلام بما يجول في النفس الإنسانية من مشاعر الخوف . ثم لا يريدنا على هذه الأمور الصعبة بمجرد الأمر والتكليف ولكن يشعرها بالعطف الإلهي الذي يعرف مواضع ضعفها ، فلا تمل التكليف ولا تجزع عند الصدمة الأولى ، ولا تخور عند الشقة البادية . فقد قرر أن هذه الفريضة مرة كريهة المذاق ، ولكن لعل وراء المكروه خيراً ووراء المحبوب شراً .

وبهذا المنهج القرآني الذي يسלט الأضواء الكاشفة على خفايا القلوب وخبايا النفوس ، يعنى القرآن بتصحيح حقيقة الحياة والموت في نفوس المؤمنين حتى لا تحجم عن القتال في سبيله خوفاً من الموت ، ويعمل على تحريرها من مخافة الموت ، فيقرر الحقائق الآتية :

١ - إن الحياة والموت بيد الله وحده ، وإن لكل نفس أجلاً لا يقدمه الإقدام ولا يؤخره الإحجام ، فالله وحده هو الذي يحيي ويميت .
﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ﴾ (آل عمران : ١٤٥) .

﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ (الأعراف : ٣٤) .

﴿ إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير ﴾ (ق : ٤٣) .

قال ابن جرير^(١) : (والله معجل الموت لمن يشاء من حيث يشاء

(١) تفسير الطبري (٤/١٤٧) .

كما يشاء دون غيره من سائر خلقه ، وهذا من الله عز وجل ترغيب على جهاد عدوه ، والصبر على قتالهم ، وإخراج هيبتهم من صدورهم ، وإن قل عددهم وكثر عدد أعدائهم وإعلام منه أن الإمامة والإحياء بيده ، وأنه لن يموت أحد أو يقتل إلا بعد فناء أجله الذي كتب له .

وقد بين سبحانه وتعالى أن الحذر من الموت لا يرد قضاء ، ولا يؤخر أجلاً ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ (النساء : ٧٨) .

﴿ قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل ﴾ (الأحزاب : ١٦) .

(قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم) ﴿ (الجمعة : ٨) .

﴿ قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور ﴾ (آل عمران : ١٥٤) .

﴿ حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ (الأنعام : ٦١) .

فهذه الآيات الكريمة وأمثالها تلمس مكمّن الخوف من النفس لمسة موحية عن طريق بيان حقيقته وأنه من تدبير الله وابتلاء منه لعباده .

وإذا كان لكل نفس أجل ، ولن تموت حتى تستوفي أجلها ، فلم الخوف والهلع والحرص والطمع والتخلف عن القتال في سبيل الله ؟ فالشجاعة لا تقدم أجلاً والجبن لا يطيل عمراً . . .

﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾
(الأعراف : ٣٤) .

شجعاناً كانوا أم جبناً على فرشهم ، الجميع سيموت بمجرد انتهاء عمره الذي قدره الله له سواء في ميدان الشرف والقتال في سبيل الله ، أو على فراشه في حصنه وقلعته ، وحوله الحراس ، والأهل والأحباب فلن يتأخر عمره لا ساعة ولا أقل من الساعة .

ولكي تنطلق النفس من عقال الجبن وترتفع عن وهلة الخوف والفرع ضرب الله مثلاً بجماعة خرجوا من ديارهم ﴿ وهم أئوف حذر الموت ﴾ فلم ينفعهم الفرار والحذر شيئاً ، ولم تغن عنهم كثرتهم شيئاً ، فأدرکهم قدر الله الذي خرجوا حذراً منه فقال لهم كلمة واحدة ﴿ موتوا ﴾ فماتوا . وانتهى كل شيء . ثم أحياهم من بعد ما أماتهم دون أن يبذلوا جهداً في استرجاع الحياة ، وإنما هو قدر الله في الحالتين لأنه هو الذي يملك الحياة والموت فهو الذي خلق الحياة والموت ، وإليه المرجع والمصير .

﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم أئوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون . وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم ﴾
(البقرة : ٢٤٣ ، ٢٤٤) .

قال العلامة أبو السعود^(١) : قيل هم قوم من بني إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد فهربوا حذر الموت فأماتهم ثمانية أيام ثم أحياهم ،

(١) تفسير أبو السعود (١/١٨١) .

وهذا فيه تشجيع للمسلمين على الجهاد والتعرض لأسباب الشهادة، وأن الموت حيث لم يكن منه بد ولم ينفع منه المفر فأولى أن يكون في سبيل الله ، لكي ينال الإنسان شرف الدنيا وعز الآخرة وسعادتها .

وقال الألويسي (١) : وردت هذه القصة على سبيل التشجيع والتثبيت للمؤمنين والإعلام أنه لا ينجي حذر من قدر .

وعلى كل حال فقد عرض القرآن الكريم هذه القصة وأمثالها للتشجيع على الجهاد في سبيل الله ، والحرص على ذلك ، والرغبة فيه ، وألا يرهب المؤمن القتل أو الموت ، لأنه إن لم يمت بالسيف مات بغيره ، تنوعت الأسباب والموت واحد ولهذا نجد أن السياق القرآني بعد أن أورد قصة هؤلاء الهاربين من الموت ثم أماتهم الله ثم أحياهم ، وبعد أن عرفوا مغزاها ، وأن الموت والحياة بيد الله عقب على هذه القصة بهذا الأمر الدائم المستمر إلى قيام الساعة ﴿ وقاتلوا في سبيل الله ﴾ وهذا أمر فيه ترغيب وترهيب كيلا ينكص محب الحياة على عقبيه بسبب الخوف من الموت .

ثم يستمر التعقيب لتبيان الحقائق التي قد تغيب عن أذهان كثير من الناس : ﴿ إن الله لذو فضل على الناس ﴾ كافة بما جعل في موتهم من الحياة، إذ جعل المصائب والعظائم محمية للهمم والعزائم كما جعل الهلع والجبين وغيرها من الأخلاق التي أفسدها الترف والسرف، واعلموا أيها المؤمنون أن الجبن عن مدافعة الأعداء وتسليم الديار بالهزيمة والفرار من الموت هو الموت المحفوف بالخزي والعار والعذاب (٢) .

(١) روح المعاني (١/١٧٥) .

(٢) تفسير المنار (٢/٤٥٦) .

وقال ابن كثير : كما أن الحذر لا يغني من القدر كذلك الفرار من
الجهاد لا يبعد أجلاً ولا يقربه ، بل الأجل محتوم والرزق مقسوم ، مقدر
مقنن لا يزداد فيه ولا ينقص منه كما قال تعالى : ﴿ الذين قالوا لإخوانهم
وقعدوا : لو أطاعونا ما قتلوا قل فادعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم
صادقين ﴾ (آل عمران : ١٦٨) .

وروي عن خالد بن الوليد سيف الله المسلول أنه قال في سياق
الموت : (لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما من عضو من أعضائي إلا
وفيه رمية أو طعنة أو ضربة وهأنذا أموت على فراشي كما يموت العير ،
فلا نامت أعين الجبناء) (١) .

وبعد أن حرر الله النفس من الخوف من الموت ، أخذها بأسلوب
الترغيب والترهيب ليرتفع بها إلى أقصى غايات البذل والجود بالنفس دون
تهيب أو تردد بل جعلها تندفع إلى طلب الشهادة اندفاعاً وتتنافس في
ذلك منافسة .

وأول من يمتحن ما نبه عليه سبحانه وتعالى هو أنه يمتحن النفوس
المؤمنة بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات
تطميناً لها ، وتثبيتاً عند حلول الصدمة ، ووقوع المصيبة .

﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال
والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ﴾ (البقرة : ١٥٥) .

﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ﴾
(محمد : ٣١) .

(١) تفسير ابن كثير (١/٢٩٩) .

قال القاسمي^(١): (كل قائم بحق ، وداع إليه معرض للابتلاء بما ذكر الله كله أو بعضه . . . وإنما أخبر به قبل الوقوع ليوطنوا عليه أنفسهم ويزداد يقينهم ، عند مشاهدتهم له حسبما أخبر به وليعلموا أنه شيء يسير له عاقبة حميدة).

ثم أعقب هذه الآية بقوله : ﴿ الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ (البقرة : ١٥٦) .

أي قالوا هذا القول معبرين عن حالهم ومقتضى إيمانهم فأصحاب هذا الاعتقاد والشعور الجديرون بالصبر إيماناً وتسليماً ، لا يملك الجزع نفوسهم ولا تقعد المصائب همهم ، بل تزيدهم ثباتاً ومثابرة فيكونون هم الفائزين^(٢) .

ولذا ختم الله القول ببيان الجزاء المبشر به فقال : ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ (البقرة : ١٥٧) .

وقال ابن كثير^(٣) : هذا ثناء من الله عليهم ، وقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب نعم العدلان ونعمت العلاوة ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ﴾ فهذا العدلان ﴿ وأولئك هم المهتدون ﴾ فهذه العلاوة وهي ما توضع بين العدلين وهي زيادة في الحمل فكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضاً .

ومن الآيات التي تعد المؤمنين لما يمكن أن يصابوا به من

(١) محاسن التأويل (٢/٣٢٥) .

(٢) تفسير المنار (٢/٣٩) .

(٣) تفسير ابن كثير (١/١٩٦) .

المصائب والآلام والتي فيها حث لهم على الصبر والتحمل ، وتبشير
برضوان الله ونصره وتنويه بالمؤمنين الذين صبروا على البلاء .

وقوله تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين
خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول
والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾ (البقرة : ٢١٤) .

وقوله : ﴿ وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما
أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ﴾ (آل
عمران : ١٤٦) .

والتعبير بالحب من الله تعالى للصابرين ، له وقعه وله إيحائه فهو
الحب الذي يأسو الجراح ، ويمسح على القرع .

وفي الآيات ترغيب من الله للمقاتلين في القتال في سبيله . وفي
قوله تعالى : ﴿ ولئن قتلتهم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة
خير مما يجمعون ﴾ (آل عمران : ١٥٧) .

ترغيب للمؤمنين من الجهاد ، وإنه مما يجب أن يتنافس فيه
المتنافسون ، وفيه تعزية لهم وتسلية مما أصابهم في سبيل الله ، وقدم
القتل على الموت لأنه أكثر ثواباً وأعظم عند الله فترتب المغفرة والرحمة
عليه (١) .

وقد نهى الله تعالى المؤمنين عن الوهن والحزن عند حلول المصيبة
لأن قتال المؤمنين لأجل الله ، وقتلاهم شهداء عند ربهم يرزقون ،

(١) روح (٤/١٥٩) .

وبرجون من الله ما لا يرجو أعداؤهم وفي هذا تشجيع ولهم ترغيب في القتال :

﴿ ولا تهنوا في ابتغاء القوم ، إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً ﴾
﴿ النساء : ١٠٤ .

قال الألوسي : والظاهر أن المراد هنا التسلية والتشجيع ، وأن حقيقة النهي غير مرادة هنا وإن أريدت فلعل ذلك بالنسبة لما يترتب على الوهن والحزن من الآثار الاختيارية ، أي لا تفعلوا ما يترتب على ذلك . . . أو المراد : والحال إنكم أعلى منهم شأنًا ، فإنكم على الحق وقاتلكم لإعلاء كلمة ، وقتلكم في الجنة وإنهم على الباطل ، وقاتلكم لنصرة كلمة الشيطان وقتلهم في النار (١) .

وقوله تعالى : ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم ﴾ (محمد : ٣٥) .

﴿ والله معكم ﴾ : ففي هذا القول بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء .

والتربية الإسلامية تعالج هذا الوهن كما نرى - بشتى الأساليب ﴿ وأنتم الأعلون ﴾ أي الأعلون مكانة ونصرة وقوة ، أو أنتم الأغلبون الأمهرون . ﴿ والله معكم ﴾ يؤيدكم بقوة من قوته ، ويمدكم بمدد من عنده ، ولن يتخلى عنكم ويترككم وحدكم ، تجاهدون عدوه وعدوكم ،

(١) روح المعاني (٤/١٠٤) .

وهو حاضر معكم أينما كنتم فمن يكون أعداؤكم هؤلاء أمام قوة الله التي لا تغلب ؟

﴿ ولن يترككم أعمالكم ﴾ وكل ما تبذلون ، وما تفعلون ، وكل ما يصيبكم في سبيل الله محسوب لكم ، غير مضيع عليكم .

ثم كشف تعالى للمجاهدين عن مصير الذين يقتلون في سبيله :

﴿ والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم ﴾ (محمد : ٤ - ٦) .

وعلى الصفحة المقابلة يعرض مصير قتلى أعدائهم ﴿ والذين كفروا فتعسأ لهم وأضل أعمالهم ، ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم ﴾ (محمد : ٨ ، ٩) .

ثم نفى عند هذه الحقيقة الهائلة : حقيقة حياة الشهداء عند الله يوم القيامة : ﴿ ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون ﴾ (البقرة : ١٥٤) .

﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴾ (آل عمران : ١٦٩ - ١٧١) .

فقوله تعالى : ﴿ فرحين بما آتاهم ﴾ أي الذين قتلوا في سبيل الله أحياء عند ربهم وهم فرحون بما هم فيه من النعمة والغبطة ومستبشرون بإخوانهم الذين يقتلون بعدهم في سبيل الله إنهم يقدمون عليهم ، وإنهم لا يخافون مما أمامهم ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم .

قال سعيد بن جبير : لما دخلوا الجنة ورأوا ما فيها من الكرامة للشهداء قالوا : يا ليت إخواننا الذين في الدنيا يعلمون ما عرفناه من الكرامة ، فإذا شهدوا القتال بأشروه بأنفسهم حتى يستشهدوا فيصيبوا ما أصبناه من الخير فأخبرهم ربهم أنني قد أنزلت على نبيكم وأخبرته بأمركم وما أنتم فيه فاستبشروا بذلك (١) .

وقوله تعالى أيضاً : ﴿ والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً وإن الله لهو خير الرازقين ﴾ (الحج : ٥٨) .

﴿ ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ﴾ (آل عمران : ١٥٧) .

﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ﴾ (آل عمران : ١٤٠) .

وهذه الحقيقة الضخمة ﴿ حياة الشهداء ﴾ ضخمة في ذاتها وفي آثارها .

فهم ليسوا أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ، لم ينقطعوا عن حياة الجماعة المسلمة من بعدهم ولا عن أحداثها ، فهم متأثرون مؤثرون فيها ، والتأثير والتأثر أهم خصائص الحياة فلا حسرة على استشهادهم إذن .

إن جلاء هذه الحقيقة الكبيرة ذو قيمة ضخمة في تصور الأمور ، فليس الموت نهاية المطاف بل ليس حاجزاً بين ما قبله وما بعده ، فلا

(١) تفسير ابن كثير (١/٤٢٨ ، ٤٢٩) .

فواصل ولا حواجز بالقياس إلى المؤمنين الذين يتعاملون مع الله .

فهذه النظرة الجديدة تعديل لمفهوم الموت متى كان في سبيل الله وللمشاعر المصاحبة له في نفوس المجاهدين أنفسهم ، وفي النفوس التي يخلفونها من ورائهم .

وفقاً لهذا المفهوم الجديد الذي أقامته هذه الآيات ومثيلاتها في نفوس المجاهدين ، عن حقيقة الحياة والموت ، سارعوا إلى طلب الشهادة في سبيل الله في كل موقعة خاضوها مع أعداء الله . . . فكانت منهم تلك النماذج الرائعة التي زينت صفحات التاريخ الإسلامي ، وشهد لهم العدو قبل الصديق بالبطولة والإقدام .

ولقد كان صحابة رسول الله مثلاً عالياً في الشجاعة والبسالة وتمني الشهادة والرغبة الصادقة في الجهاد في سبيل الله وثواب الآخرة فهذا عبد الله بن جحش يتمنى على الله أن يموت شهيداً ، وأن يمثل الأعداء به غاية التمثيل ، فقال : (اللهم إني أقسم عليك أن نلقى العدو غداً فيقتلونني ، ويبقرون بطني ، ويمثلون بي فألقاك مقتولاً قد صنع هذا بي ، فتقول : فيم صنع بك هذا فأقول : فيك يارب وفي رسولك ، فتقول : صدقت).

فقاتل حتى قتل يوم (أحد) ووجد وقد صنع به ما تمنى . فقد قتل ومثل به الأعداء فجدعوا أنفه وأذنه قال سعد بن أبي وقاص : فلقد رأيتَه آخر النهار وأن أنفه وأذنه لمعلقتان في خيط .

وقال سعيد بن المسيب : أرجو أن يبر الله آخر قسمه كما أبر أوله (١) .

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/١٠٩) وعبد الرزاق في مصنفه (٥/٢٦٢) عن طريق سفيان عن ابن جدعان .

وكان عمرو بن الجموح رجلاً أعرج شديد العرج وكان له بنون أربعة مثل الأسد ، يشهدون مع رسول الله المشاهد ، فلما كان يوم أحد أرادوا حبسه وقالوا له : إن الله عز وجل قد عذرك ، فأتى رسول الله ﷺ فقال : إن بني يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه والخروج معك فيه ، فوالله إنني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة ، فقال رسول الله : أما أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك وقال لبنيه ما عليكم أن لا تمنعوه لعل الله يرزقه الشهادة فخرج معه فقتل يوم أحد (١) .

وقد لقي المسلمون في غزوة مؤتة عدوهم من الروم في مائتي ألف مقاتل وهم لا يزيدون عن الثلاث آلاف وقد وقف فيهم خطيباً في ذلك اليوم أميرهم عبد الله بن رواحة فقال : (يا قوم ، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسينين إما ظهور وإما شهادة) (٢) .

والحق أن الإنسان ليحترق في الاختيار فكل صحابة رسول الله أبطال مغاوير فهموا كتاب الله وساروا على هداه ، ومالأوا صفحات التاريخ بأعمالهم الفذة وبطولاتهم النادرة .

فقد باع المجاهدون في سبيل الله أرواحهم لله مولاهم بثمان مضمون هو الجنة وقد أشاد القرآن الكريم بهذه الصفقة الرابحة في كثير من المواضع : ﴿ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ، والله رءوف بالعباد ﴾ (البقرة : ٢٠٧) .

(١) سيرة ابن هشام (٦٠٣/٣) تحقيق محيي الدين عبد الحميد .

(٢) سيرة ابن هشام (٣٧٥/٢) تحقيق مصطفى السقا وجماعة .

وقوله تعالى : ﴿ فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴾ (النساء : ٧٤) .

فقد وعد الله المقاتل في سبيله ظافراً أو مظفوراً به الأجر العظيم على جهاده .

وفي سورة التوبة قال تعالى : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ (التوبة : ١١١) .

وفي هذه الآيات تشجيع قوي ينفذ إلى أعماق النفس من شأنه أن يدفع المؤمن إلى التضحية بنفسه إلى القتال راضياً مطمئناً إلى ربحه العظيم وفوزه بالجنة التي باع نفسه من أجلها .

فقد كان مجرد سماع المجاهد في سبيل الله لكلمة من هذه الكلمات كافياً لأن يقذف بنفسه إلى المهالك دون تردد ولا وجل .

روى ابن اسحق : عن النبي ﷺ أنه قال حين غشيه القوم يوم أحد : من رجل يشري لنا نفسه ؟ فقام خمسة من الأنصار فقاتلوا دون رسول الله رجلاً ثم رجلاً ، يقتلون دونه . وترس دون رسول الله أبو دجانة بنفسه ، يقع النبل في ظهره ، وهو منحني عليه ، حتى كثر فيه النبل .

وقالت نسيبة بنت كعب رضي الله عنها : (لما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله فقامت أباشر القتال ، وأذب عنه بالسيف ، وأرمي

عن القوس حتى خلصت الجراح إلي . وفيها يقول رسول الله ما التفت
يميناً ولا شمالاً إلا رأيتها تقاتل دوني) .

لقد حرص المجاهدون على الاستشهاد في سبيل الله حرصاً شديداً
لا يعدلون به أي شيء آخر .

روى ابن اسحق أن رسول الله حرص المسلمين على القتال يوم
بدر وقال : والذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً
محتسباً ، مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة . فقال عمير بن الحمام
وفي يده تمرات يأكلهن : بخ بخ ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن
يقتلني هؤلاء ، ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى
قتل .

وقال عوف بن عفراء : يا رسول الله ما يضحك الرب من عبده ؟
قال غمسه يده في العدو حاسراً فنزع درعاً كانت عليه فقذفها ، ثم أخذ
سيفه فقاتل القوم حتى قتل .

ولقد زرع القرآن الكريم والرسول العظيم شجرة البطولة وحب
البذل والتضحية بالنفس ، حتى نمت وترعرعت وأينعت ، وحن قطافها
فكان فيها هذه النماذج التي عرضت لها وكثير غيرها ملأت صفحات
السيرة وكتب التاريخ إذ أنها كانت ثمرة للتربية القرآنية والسنة النبوية
بأسلوب الترويح والترهيب .

ومن نماذج أساليب القرآن في التربية على بذل النفس في سبيل
الله دون تهيب أو تردد ، ما وعده الله للذين يجاهدون في سبيله في قوله
تعالى :

﴿ يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم ، وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ﴾ (الصف : ١٠ - ١٣) .

فقد وعدهم بخيري الدنيا والآخرة فلا توجد رغبة من رغائب النفس إلا وقد وعد الله تعالى بتحقيقها سواء أكانت رغبة عاجلة أم آجلة .

والمسلمون لا يرجون بجهادهم إلا رحمة الله ومغفرته والتقرب إليه ويؤثرون ما عنده من ثواب الآخرة الخالد ، على متاع الدنيا الفاني .

﴿ لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون ، أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم ﴾ (التوبة : ٨٨ ، ٨٩) .

وكثيراً ما يرغب الله تعالى المجاهدين بالجنة وحسن ثوابها فيقول : ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ﴾ (الحديد : ٢١ - ٢٢) .

وقد حث القرآن الكريم المسلمين بأسلوب قوي ينفذ إلى أعماق النفس فيثير حماسها ويوقظ حميتها وأنفثها في قوله تعالى : ﴿ وما لكم لا

تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً ﴿ (النساء : ٧٥) .

فالآية هتاف بالمؤمنين المخلصين بالمسارعة إلى إنقاذ إخوانهم الذين وقعوا تحت سيطرة الظالمين ، ولا يملكون حولاً ولا قوة في الدفاع عن أنفسهم .

قال الزمخشري (١) : (لقد رغب الله تعالى المؤمنين ترغيباً وشجعهم تشجيعاً بإخبارهم أنهم يقاتلون في سبيل الله وهو وليهم وناصرهم ، وأعدائهم يقاتلون في سبيل الشيطان فلا ولي لهم إلا الشيطان ، وكيد الشيطان للمؤمنين إلى جنب كيد الله للكافرين أضعف شيء وأوهنه وذلك لقوله تعالى : ﴿ الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴾ (النساء : ٧٦) .

وفي السورة نفسها قال تعالى : ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ﴾ (النساء : ٩٥) .

قال الزمخشري : فإن قلت معلوم أن القاعد بغير عذر والمجاهد لا يستويان فما فائدة نفي الاستواء ؟ قلت : معناه الإنكار بما بينهما من

(١) الكشاف (٢/٥٤٣) .

التفاوت العظيم والبون البعيد ليأنف القاعد ويرفع بنفسه عن انحطاط منزلته فيهتز للجهاد ويرغب فيه وفي ارتفاع طبقته .

وفي نفس السورة تصل الآيات إلى قمة الترغيب في القتال والحض عليه .

﴿ فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك ، وحرص المؤمنين ، عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا ، والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً ﴾ (النساء : ٨٤) .

فالآية توجه الخطاب إلى رسول الله بأن يجاهد في سبيل الله ولو كان وحيداً ولم يخرج للقتال أحد غيره ، فإنه لا يحمل في الجهاد إلا تبعة شخصه وفي الوقت ذاته يحرص المؤمنين على القتال ، وكذلك يوحى إلى النفوس بالطمأنينة ورجاء النصر ، فالله هو الذي يتولى المعركة ، وهو أشد بأساً وأشد تنكيلاً بأعدائه وأعدائهم .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ يأيتها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين يأيتها النبي حرص المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ (الأنفال : ٦٤ ، ٦٥) .

قال ابن كثير : (يحرص تعالى نبيه والمؤمنين على القتال ومناجزة الأعداء ومبارزة الأقران ويخبرهم أنه حسبهم ، أي كافيهم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم وإن كثرت أعدادهم وترادفت أمدادهم ، ولو قل عدد المؤمنين) .

والتحريض في قوله ﴿ وحرص . . . ﴾ هو المبالغة في الحث على

الأمر من الحرص وهو أن ينهكه المرض ويتبالغ فيه . وفي الآية عدة من الله وبشارة بأن الجماعة من المؤمنين إن صبروا غلبوا عشرة أمثالهم من الكفار بعون الله وتأييده وفي ذلك إغراء من الله تعالى بقتال أعدائهم وترغيب لهم فيه ﴿ بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ بسبب كفرهم وأنهم يقاتلون على غير احتساب وطلب ثواب خلاف من يقاتل على بصيرة ومعه ما يستوجب به النصر والإظهار من الله تعالى (١) .

وجاء في سورة التوبة قوله تعالى : ﴿ انفروا خفافاً وثقلاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ (التوبة : ٤١) .

قال الطبرسي^(٢) : وهذا يدل على أن الجهاد بالنفس والمال واجب على من استطاع بهما ومن لم يستطع على الوجهين فعليه أن يجاهد بما استطاع ﴿ ذلكم خير لكم ﴾ أي الخروج والجهاد بالنفس والمال خير لكم من التناقل وترك الجهاد .

ونتيجة لهذه اللمسات المؤثرة ، وهذا الحث المتواصل على الجهاد والترغيب فيه تراحم الرعيل الأول من المؤمنين واحتشدوا من كل حذب وصوب على رسول الله يسألونه الخروج معه للجهاد والاستشهاد في سبيل الله فكان لا يجد ما يحملهم عليه فيعود الفقراء إلى دورهم وقد فاضت عيونهم بالبكاء حزناً على ما فاتهم من الخروج للقتال وقد حكى الله حالهم فقال : ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما

(١) الكشاف (٢/١٦٧) .

(٢) مجمع البيان (١/٦٧) .

أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون ﴿ (التوبة : ٩٢) .

وكما سلك القرآن في تهيج النفوس المؤمنة واستثارها إلى القتال في سبيل الله بالترغيب والتشجيع فقد اتجه إلى تلك النفوس المتعاسة والمتثاقلة والمعوقة والمخذلة والمتخلفة عن الخروج إلى القتال بالترهيب والحملات التنديدية القارعة حتى تقوى قلوبهم ، وتشتد نفوسهم ، ويخفوا إلى اللحاق بإخوانهم الصادقين إلى الجهاد في سبيل الله بأنفسهم .

فقد حملت الآيات القرآنية حملات قوية على المتثاقلين فقال : ﴿ يأيتها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ، إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضره شيئاً ، والله على كل شيء قدير ، إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين . . . ﴾ إلى قوله : ﴿ والله عزيز حكيم ﴾ (التوبة : ٣٨ - ٤٠) .

فقوله : ﴿ إلا تنفروا . . . ﴾ فيه سخط عظيم على المتثاقلين حيث توعدهم بعذاب أليم مطلق يتناول عذاب الدارين ، وأنه يهلكهم ويستبدل قوماً آخرين خيراً منهم وأطوع وأنه غني عنهم في نصره دينه لا يقدرح ثقافتهم فيه شيئاً^(١) .

وفي الآية تذكير ما كان من نصر الله لرسوله ، قبل أن يكون معه أحد منهم وبقدرته على إعادة النصر بدونهم فلا ينالهم عندئذ إلا إثم التخلف والتقصير .

(١) الكشاف (٢/١٩٨) .

وقال تعالى : ﴿ إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون ، ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدین ﴾ (التوبة : ٤٦) .

فقد توعدهم بالعذاب الأليم لقعودهم عن الخروج للجهاد .

وفي سورة آل عمران : ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله وليعلم المؤمنین وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون ﴾ (آل عمران : ١٦٦ ، ١٦٧) .

فهؤلاء لم يمنعهم من الاشتراك في قتال العدو إلا كفرهم وجحودهم وبغضهم للمسلمين . . . وقيل هم لأهل الكفر أقرب نصره منهم لأهل الإيمان ، لأن تقليلهم سواد المسلمين بالانخزال تقوية للمشركين (١) .

وقوله تعالى : ﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا . . ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم ، وكان ذلك على الله يسيراً ﴾ (الأحزاب : ١٨ - ١٩) .

فإن الله تعالى يندد بهم على تفريطهم في الجهاد وحرصهم على تعويق غيرهم عنه ، ويتوعدهم بالخسران في الدنيا والآخرة ، ويصمهم بالكفر والخروج عن دائرة الإيمان .

(١) الكشاف (٢/٤٧٨) .

وفي سورة الفتح وعيد شديد بالعذاب للمتخلفين عن الخروج للقتال . . . ﴿ سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلنا أموالنا وأهلونا . . . ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً . . . ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإننا اعتدنا للكافرين سعيراً ﴾ (الفتح : ١١ - ١٣) .

وفي سورة الصف : ﴿ يأيتها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون . إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾ (الصف : ٢ - ٤) .

قال أبو السعود ^(١) : (إن المسلمين قالوا لو علمنا أحب الأعمال إلى الله لبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا فلما نزل الجهاد كرهوه . وقوله ﴿ كبر مقتاً عند الله ﴾ بيان لغاية قبح ما فعلوه وفرط سماجته .

قال الزمخشري : واختير لفظ المقت لأنه أشد البغض وأبلغه ولم يقتصر على أن جعل البغض كبيراً حتى جعل أشده وأفحشه و﴿ عند الله ﴾ أبلغ من ذلك لأنه إذا ثبت كبر مقته عند الله فقد تم كبره وشدته وانزاحت عنه الشكوك .

وقد احتوت الآيات الجهادية حملات تقريع شديدة متنوعة الأساليب للذين يتقاعسون ويتأقلون ويتخلفون ويتهربون ويتخوفون من الجهاد والنفار في سبيل الله ، بما من شأنه أن يحط بالمنافقين والمثبطين والقاعدين والمتقاعسين والمترددين والمتأقلين بجو من الحقارة والزراية والمقت ويهوي بهم إلى الحضيض أو يجتث تلك النفسية الخبيثة

(١) تفسير أبي السعود (٥/١٥٩) ، وتفسير الطبري (٢٨/٨٢) .

والقلوب المريضة التي تعمل عملها فيهم وتردهم إلى الصواب إن لم يكن عن قناعة فعن خوف وحياء (١) .

ولقد كان هذا هو الذي وقع كما تدل عليه الآيات القرآنية . . .

وهكذا بلغ أسلوب القرآن الكريم القمة في ترغيب المسلمين وترهيبهم فخرجوا إلى الجهاد مع رسول الله لم يتخلف عنه إلا من طمس الله على قلبه ، وكره خروجه مع صفوف المجاهدين .

لقد كان وقع هذه الحملات القرآنية على المتقاعسين شديداً للغاية وكان أشد ما يكون على النفوس المؤمنة الحساسة إذ أخذوا يتهافتون على القتال تهافت الفراش على النار . وخير دليل على المستوى الرفيع الذي وصلت إليه حملات الترغيب والترهيب أنه خرج مع رسول الله ﷺ في آخر غزوة غزاها (تبوك) ثلاثون ألف مجاهد ولم يتخلف عن الخروج للقتال إلا ثلاثة أنفار من المؤمنين الصادقين ذكرت سورة التوبة قصتهم ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم﴾ (التوبة : ١١٨) .

ولشدة إقبال المسلمين على الخروج إلى القتال في أعداد هائلة على الرغم من بعد المسافة بين المدينة وبلاد الروم وشدة الحر وقفر الناس الشديد حتى إن الرسول كان يعتذر للمتطوعين للخروج بأن لا يجد ما يحملهم عليه . فأخذوا يبكون بكاء شديداً لفوات شرف مشاركتهم للجهاد مع رسول الله حتى اشتد الأمر على رسول الله نتيجة إلحاحهم في

(١) الدستور القرآني (١/٤٧٣) .

الخروج معه ، فأنزل الله عذرهم من السماء واصفاً حالتهم خيراً وصف فقال عز من قائل : ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم . ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون ﴾ (التوبة : ٩١ - ٩٢) .

وظلت أعداد المجاهدين الكبيرة تتزايد ، وظل حرصهم على القتال يشتد حتى هجروا أعمالهم ، ومن هنا جاء التشريع السماوي منظماً لهذه الحركة الجهادية فقال تعالى : ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ (التوبة : ١٢٢) .

ولقد كانت هذه الآية تتويجاً للمنهج القرآني في التربية الجهادية ومعالجة أمراض النفوس واستلال كل مخاوفها وغرس شجرة البطولة والفداء في قلوب الرجال حتى ظهرت منهم الأعاجيب .

هذا ما عملته الآيات القرآنية وإلى جانبها الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة التي تحض على الجهاد في سبيل الله ، وترفع من درجة المجاهدين ، وتبين لهم حسن الجزاء ، وكريم المثوبة وهي أكثر من أن تحصر ، فنذكر منها على سبيل المثال قوله ﷺ : القتلى ثلاثة رجال ، رجل مؤمن جاهد بنفسه وماله في سبيل الله حتى إذا لقي العدو قاتلهم حتى يقتل ، ذلك الشهيد الممتحن^(١) ، في خيمة الله تحت عرشه ، لا

(١) الشهيد الممتحن : هو المصفي المذهب المخلص . لسان العرب (٤٠١/١٣) .

يفضله النبيون إلا بدرجة النبوة ، ورجل مؤمن قرف (١) على نفسه من الذنوب والخطايا ، جاهد بنفسه وماله في سبيل الله ، حتى إذا لقي العدو قاتل حتى يقتل ، فتلك ممصصة (٢) محت ذنوبه وخطاياها ، إن السيف محاء للخطايا ، وأدخل من أي أبواب الجنة شاء ، فإن لها ثمانية أبواب ، ولجهنم سبعة أبواب ، وبعضها أسفل من بعض . ورجل منافق جاهد بنفسه وماله في سبيل الله حتى إذا لقي العدو قاتل حتى يقتل ، فذلك في النار . إن السيف لا يمحو النفاق (٣) .

وروي عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن مثل المجاهد في سبيله - والله أعلم بمن يجاهد في سبيله - كمثل القائم الصائم الخاشع الراكع الساجد) أخرجه النسائي (١٨/٦) .

وعن الحسن أن رسول الله بعث جيشاً فيهم عبد الله بن رواحة ، فغدا الجيش وأقام عبد الله بن رواحة ليشهد الصلاة مع رسول الله ﷺ ، فلما قضى النبي ﷺ صلاته ، قال : يا ابن رواحة ، ألم تكن في الجيش ؟ قال : بلى يا رسول الله ، ولكني أحببت أن أشهد الصلاة معك ، وقد علمت منزلهم ، فأروح وأدركهم قال : والذي نفسي في يده ، لو أنفقت ما في الأرض ما أدركت فضل غدوتهم (٤) .

(١) قرف الذنب واقترافه : إذا كسبه وعمله (النهاية ٢٤٥/٣) .

(٢) أي مطهرة من دنس الخطايا . النهاية (٩٧/٤) .

(٣) أخرجه الدارمي (٢٠٦/٢) والطيالسي (٢٣٤/١) وابن حبان - موارد الظمآن (ص ٣٨٨) . والبيهقي (١٦٤/٩) من طريق المصنف . وزاد الدارمي : قال عبد الله : يقال للثوب إذا غسل ممصص . وأخرجه أحمد والطبراني عن عتبة بن عبد السلمي مرفوعاً . قال الهيثمي (٢٩١/٥) ورجال أحمد رجال الصحيح .

(٤) رواية محمد بن الحسن من السير الكبير (٣٤/١) عن الحسن وذكره الشوكاني في نيل الأوطار (٢٣٧/٧) .

وقال ﷺ : (لكل أمة رهبانية ، ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله) رواه محمد بن الحسن في السير الكبير (٢٣/١) .

وقال رسول الله ﷺ : (روحة في سبيل الله أو غدوة خير من الدنيا وما فيها ، أو ما عليها). أخرجه البخاري (١٣٦/٢) ومسلم (١٤٩٩/٣) والترمذي (٢٨٧/٥) والنسائي (١٥/٦) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ذكر الشهداء عند النبي ﷺ فقال: (لا تجف الأرض من دمه حتى تبتره زوجته كأنهما ظئران ^(١) أضلتا فصيلهما في براح ^(٢) من الأرض بيداء ، وفي يد كل واحدة منهما حلة خير من الدنيا وما فيها) أخرجه ابن ماجة (٩٣٥/٢) وعبد الرزاق في مصنفه (٢٦٦/٥) وجاء في رواية عبد الرزاق (تبدو كل واحدة في حلة خير من الدنيا وما فيها) .

وجاء في صحيح البخاري عن أنس بن مالك ، قال : (غدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها ، ولقاب قوس أو قيد أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة أطلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينها ، ولملأت الأرض طيباً ، ولنصيفها خير من الدنيا وما فيها) .

وعن شعبة عن السدي عن مرة قال : ذكروا عند عبد الله قوماً قتلوا في سبيل الله فقال : إنه ليس علي تذهبون وترون ، إنه إذا التقى الزحفان

(١) ظئران : الظئر هي المرضع ومعنى الحديث أن زوجته من الحور العين تبترانه وتحنون عليه كما تحنو الناقة المرضع على فصلها ، شبه بدارهما إليه باللهفة والشوق كبداء الناقة المرضع الذي أضلته . الترغيب والترهيب (٣٢٢/٢) .

(٢) البراح : هي الأرض المتسعة ، لا زرع فيها ولا شجر . الصحاح (٣٥٥/١) .

نزلت الملائكة فتكتب الناس على منازلهم فلان يقاتل للدنيا ، وفلان يقاتل للملك ، وفلان يقاتل للذكر ، ونحو هذا ، وفلان يقاتل يريد وجه الله فذلك في الجنة .

وعن زائدة بن قدامة عن منصور عن مجاهد قال : كان يزيد بن شجرة ممن يذكرنا فيبكي ، ويصدق بكاءه بفعله ، ويقول : يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم ما أحسن أثر نعمة الله عليكم فلو ترون ما أرى ما بين أصفر وأحمر وأبيض وأسود وفي الرجال ما فيها إن الصلاة إذا أقيمت فتحت السماء وأبواب الجنة وأبواب النار فإذا التقى الصفان ، فتحت أبواب السماء وأبواب الجنة وأبواب النار وزين الحور العين ، فاطلعن فإذا أقبل الرجل بوجهه ، قلن : اللهم ثبته ، اللهم أعنه ، فإذا أدبر احتجبن منه ، وقلن : اللهم اغفر له . فأنهكوا وجوه القوم ، فداكم أبي وأمي ولا تخزوا الحور العين ، فإذا قتل كانت أول نفحة من دمه تحط عنه خطاياها كما يحط الورق من غصن الشجرة ، وتنزل إليه إثنان فتمسحان عن وجهه ، وقلن قد أنى لك وقال لهما : قد أنى لكما . ثم كسي مائة حلة ، لو جعلها بين أصبعيه لوسعت ليس من نسج بني آدم ، ولكن من نبت الجنة (١) .

وعن أنس بن مالك ، قال : غدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها ، ولقاب قوس أو قيد أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة أطلعت إلى الأرض لأضاءت ما

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٢٥٦/٥) عن الثوري عن منصور عن مجاهد عن يزيد بن شجرة وأخرجه الحاكم في المستدرک (٤٩٤/٣) وقال الهيثمي (٢٩٤/٥) رواه الطبراني من طريقين رجال أحدهما رجال الصحيح . وذكره الحافظ في الإصابة (٦٢١/٣) .

بينهما ، ولملأت الأرض طيباً ولنصيفها (١) خير من الدنيا وما فيها (٢) .

وكم للشهيد من فضل وكرامة عند ربه سبحانه وتعالى ، فالله سبحانه يتولى تكريمه ويتحجب إليه بالهدايا والهبات ، ليدخل إلى نفسه الأنس والطمأنينة ، حتى ينعم إلى جوار ربه الذي بذل نفسه من أجل رضاه .

جاء في كتاب الجهاد لعبد الله بن المبارك : حدثنا محمد ، قال حدثنا المطلب بن حنطب قال إن للشهيد غرفة كما بين صنعاء والجابية (٣) ، أعلاها الدر والياقوت ، وجوفها المسك والكافور . قال : فتدخل عليه الملائكة بهدية من ربه تبارك وتعالى ، فما تخرج حتى يدخل عليه ملائكة آخرون من باب آخر بهدية من ربهم .

وليس لأحد من الكرامة مثل ما للشهيد ، فهو يبعث يوم القيامة كيوم قتل في سبيل الله يسيل الدم من جسده ، ليشهد دمه على ظالمه بالقتل ، وليظهر شرفه ومنزلته عند ربه أمام أهل المشهد والموقف حيث ينبعث من جرحه رائحة المسك ويفوح منه الطيب . كما قال ﷺ : « كل كلم يكلمه المسلم في سبيل الله يكون يوم القيامة كهيأتها إذا طعنت تفجر دماً ، فاللون لون دم والعرف عرف مسك » (٤) .

(١) النصف : هو الخمار . النهاية (١٤٩/٤) .

(٢) أخرجه البخاري (١٣٦/٢) والترمذي (٢٨٧/٥) وأحمد وفيض القدير (٢٧٧/٥) .

(٣) الجابية : قرية من أعمال دمشق من ناحية الجولان ، قرب مرج الصفر في شمال حوران . معجم البلدان (٩١/٢) والروض المعطار (ص ١٥٣) .

(٤) أخرجه البيهقي (١٦٥/٩) وعبد الرزاق في مصنفه (٢٥٣/٥) والنسائي (٢٦/٦) . والكلم الجرح . والعرف : هو الريح .

وجاء في أحاديث أخرى كثيرة تصرح بتكريم الله تعالى للشهداء عن عطارده أنه سمع شهر بن حوشب يحدث ، قال سمعت ابن عباس يقول : يجيء الله تبارك وتعالى في ظلل من الغمام والملائكة ، ثم ينادي مناد : سيعلم أهل الجمع لمن الكرم اليوم ، فيقول : عليكم بأوليائي الذين أهرقوا دماءهم ابتغاء مرضاتي ، فيتطلعون حتى يدنون (١) .

وعن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا ما شاء الله ﴾ قال هم الشهداء ، هم ثنية الله ، حول العرش متقلدين السيوف (٢) .

ومن المزايا التي اختص الله تعالى بها الشهيد ، هي أن أول الناس دخولاً للجنة هم الشهداء .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله قال : عرض علي أول ثلاثة يدخلون الجنة ، وأول ثلاثة يدخلون النار ، فأما أول ثلاثة يدخلون الجنة : فالشهيد ، وعبد مملوك أحسن عبادة ربه ونصح لسيده ، وعفيف متعفف ذو عيال . وأول ثلاثة يدخلون النار أمير مسلط ، وذو ثرة من المال لا يعطي حقه ، وفقير فخور (٣) .

وإن ربنا سبحانه وتعالى يضحك للشهداء ، ولا يحاسبهم ، وهؤلاء هم أفضل الشهداء . قال رسول الله ﷺ : «أفضل الشهداء عند

(١) أهرقوا : أي أراقوا . الصحاح (٤/١٥٧٠) جاء الحديث في كتاب الجهاد لعبد الله بن المبارك (ص ٨١) تحقيق الدكتور نزيه حماد .

(٢) ثنية الله : أي هم الذين استثناهم الله من الصعق . رواه البخاري في تاريخه الكبير (٢/٦٨١) ورواه الطبراني في التفسير (٢٤/٣٠) .

(٣) أخرجه ابن حبان - موارد الظمان (ص ٣٨٧) والترمذي (٥/٢٧١) .

الله الذين يلقون في الصف ، فلا يلفتون وجوههم حتى يقتلوا ، أولئك يتلبطون في الغرف العلى في الجنة ، يضحك إليهم ربهم ، إن ربك إذا ضحك إلى قوم فلا حساب عليهم » (١) .

وعن خالد بن معدان أن رسول الله ﷺ قال : (الشهداء أمناء الله قتلوا أو ماتوا على فرشهم) (٢) .

وقال رسول الله ﷺ : لما أصيب إخوانكم بأحد ، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ، ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مطعمهم ، ورأوا حسن منقلهم قالوا يا ليت إخواننا يعلمون ما أكرمنا الله به ، وما نحن فيه ، لئلا يزهدوا في الجهاد ، ولا ينكلوا عند الحرب ، فقال الله : أنا أبلغهم عنكم ، فانزل الله تبارك وتعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله . . . ﴾ (٣) (آل عمران : ١٦٩) .

وتأمل ما يروى عن أبي هريرة قال : أستطيع أحدكم أن يقوم فلا يفتر ويصوم فلا يفطر ما كان حياً ؟ ف قيل له : يا أبا هريرة ، ومن يطيق هذا . فقال والذي نفسي بيده إن يوم المجاهد في سبيل الله أفضل منه .

(١) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٩٥/٢/٤) وأحمد وأبو يعلى والطبراني في الأوسط . ومعنى يتلبطون أي يضطجعون ويتمرغون .

(٢) رواج أحمد . قال الهيثمي (٣٠٢/٥) ورجاله ثقات . وعن أبي هريرة قال : إنما الشهيد الذي لومات على فراشه دخل الجنة . يعني الذي يموت على فراشه ولا ذنب له (مصنف عبد الرزاق ٥/٢٦٨) .

(٣) أخرجه أبو داود (١٤/٢) والبيهقي (١٦٣/٩) والحاكم في المستدرک (٨٨/٢) . ينكلون يعني يجبنون .

وقال ﷺ: (يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه فلينظر كل امرئ منكم لنفسه (١) .

وجاء في كتاب الجهاد لعبد الله بن المبارك أن رجلاً قتل ، فدفن ومعه نفقة له ، فكلم أمير الناس أن ينبشوا عنه فيأخذوا نفقته ، فأذن لهم . قال : فخرجنا إلى قبره ، فكشفنا عنه التراب ، فاستقبلنا ريح المسك والعنبر ، فلم نزل نكشف عنه حتى بلغنا لحده فلم نجد فيه شيئاً .

وها هو رسول الله ﷺ يضع المجاهد في سبيل الله بعد الأنبياء والأصفياء ، فيقول لمن سأله : أي الناس خير منزلة عند الله عز وجل بعد أنبيائه وأصفياؤه؟ قال؛ المجاهد في سبيل الله عز وجل بماله ونفسه حتى تأتيه دعوة الله عز وجل ، وهو على متن فرسه ، أو آخذاً بعنانه (٢) . . إلخ .

وقد تكرر تعيين منزلة المجاهد في سبيل الله بماله ونفسه في أحاديث الرسول ﷺ مراراً تشجيعاً لأئمة على الجهاد الذي به عزها وشرفها .

فقد روي عن الخطاب بن سعيد قال : خطبنا رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، وهو مضيف ظهره إلى نخلة ، فقال: (ألا أنبئكم بخير الناس وشر الناس؟ إن خير الناس رجل عمل في سبيل الله عز وجل على ظهر فرسه ، أو على ظهر بعيره ، أو قدميه حتى يأتيه الموت وهو على ذلك ، وإن من شر الناس رجلاً فاجراً جريئاً يقرأ كتاب الله عز وجل ولا يرعوي على شيء منه) (٣) .

(١) أخرجه البيهقي (١٦١/٩) والترمذي (٣٠٩/٥) والنسائي (٤٠/٦) والحاكم في المستدرک

(٢) وقال حديث صحيح على شرط البخاري .

(٢) أخرجه الطيالسي (٢٣٣/١) من طريق حماد بن سلمة .

(٣) أخرجه النسائي (١٢/٦) والبيهقي (١٦٠/٩) والحاكم في المستدرک (٦٧/٢) وقال هذا

حديث حسن الإسناد . ولم يخرجاه .

وقال أبو سعيد الخدري : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : إن خير الناس رجل مجاهد ، فذكر نحوه (١) .

فضل الجهاد في البحر :

جهاد البحر أفضل من جهاد البر لما فيه من شدة الخطر والهول الذي يتعرض له المجاهد في البحر ، ويقاس عليه جهاد الجوف فهو أشد خطراً وأعظم أجراً - والله تعالى أعلم - فالمجاهد في البر أفضل وأعظم أجراً من غير المجاهد ، وقد رأينا كيف ميز الله شهيد البر على سائر الناس ، وما أعده الله له من كرامات وعظيم درجات في الجنة . ولكن الغازي في البحر أفضل منه لأن مخاطر البحر أكثر من مخاطر البر ، ومخاطر الجوف أكثر من مخاطر البحر ، والأجر على قدر المشقة .

وقد ورد العديد من الأحاديث في فضل المجاهد في البحر وما أعده الله للذين يرزقهم الله الشهادة منهم .

من ذلك ما جاء عن النبي ﷺ :

عن أنس رضي الله عنه أنه قال : كان رسول الله ﷺ يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت فدخل عليها رسول الله ﷺ فأطعمته وجعلت تفلّي رأسه فنام ثم استيقظ وهو يضحك قال : فقلت : وما يضحكك يا رسول الله ؟ قال : ناس من أمتي عرضوا عليّ غزاةً في سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر مملوكاً على الأسرة ، أو مثل الملوكة على الأسرة قالت : فقلت يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم ، فدعا لها رسول الله ، ثم وضع رأسه ، ثم استيقظ وهو يضحك ،

(١) أخرجه البخاري (١٣٥/٢) ومسلم (١٥٠٣/٣) وأبو داود (٥٥/٢) والترمذي (٣٠١/٥) وغيرهم كثير .

فقلت: وما يضحكك يا رسول الله، قال: ناس من أمتي عُرضوا عليّ غزاة في سبيل الله، كما قال في الأول، فقلت: يا رسول الله ادعُ الله أن يجعلني منهم؟ قال: أنت من الأولين. فركبت البحر في زمن معاوية بن أبي سفيان، فَصُرعت عن دابتها حين خرجت من البحر^(١)، وزاد مسلم (فهلكت رضي الله عنها).

وعن أبي الدرداء أن رسول الله ﷺ: «غزوة في البحر مثل عشر غزوات في البر والذي يسدر في البحر كالمتشحط في دمه في سبيل الله سبحانه»^(٢).

وعن أم سليم بن عامر قال: سمعت أبا أمامة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «شهيد البحر مثل شهيدي البر والمائد في البحر كالمتشحط في دمه في البر وما بين الموجتين كقاطع الدنيا في طاعة الله وإن الله عز وجل وكل ملكاً يقبض الأرواح إلا شهيد البحر فإنه يتولى قبض أرواحهم ويغفر لشهيد البر الذنوب كلها إلا الدين ولشهيد البحر الذنوب والدين»^(٣).

عن أم حرام عن النبي ﷺ أنه قال: «المائد في البحر الذي يصيبه القياء له أجر شهيد والفرق له أجر شهيدين»^(٤).

وعن أم حرام عن النبي ﷺ أنه قال: «المائد في البحر الذي يصيبه

(١) رواه البخاري في كتاب «الجهاد» باب الدعاء بالجهاد والشهادة للرجال والنساء ٢٠١/٣. كما رواه مسلم.

(٢) رواه ابن ماجه - كتاب الجهاد - باب فضل غز البحر ٩٢٨/٣ ورواه الحاكم في مستدرکه وقال صحيح على شرط البخاري .

(٣) رواه ابن ماجه - كتاب الجهاد - باب فضل غزو البحر ٩٢٨/٣.

(٤) سنن أبي داود - كتاب الجهاد - باب فضل الغزو في البحر ١٦/٣.

القيء له أجر شهيد والفرق له أجر شهيدين»^(١) .

وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «غزوة في البحر أفضل من عشر غزوات في البر ومن جاز البحر فكأنما جاز الأودية والمائد في السفينة كالمشحط في دمه»^(٢) .

وعن علقمة بن شهاب القشيري قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يدرك الغزو معي فليغز في البحر فإن أجر يوم في البحر كأجر شهر في البر وإن القتل في البحر كالقتل في البر وإن المائد في السفينة كالمشحط في دمه وإن خيار شهداء أمتي أصحاب الكفاء قالوا: وما أصحاب الكفاء يا رسول الله قال: قوم تتكفؤ بهم مراكبهم في سبيل الله»^(٣) .

عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: من غزا في سبيل الله غزوة في البحر - والله أعلم بمن يغزو في سبيله - فقد أدى إلى الله طاعته كلها وطلب الجنة كلَّ مطلب وهرب من النار كل مهرب»^(٤) .

وعنه ﷺ قال: «شهيد البر يغفر له كل ذنب إلا الدين والأمانة، وشهيد البحر يغفر له كل ذنبه والدين والأمانة»^(٥) .

هذا قليل من كثير مما ورد من أحاديث فضل الغزو في البحر وشهيد البحر. وفي هذا لفت النظر أولى الأمر في الأمة الإسلامية إلى وجوب

(١) سنن أبي داود - كتاب الجهاد - باب فضل الغزو في البحر ١٣/٣ .

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ٢٨٥/٥ ، كتاب الجهاد - باب فضل الغزو في البحر .

(٣) مصنف ابن أبي شيبة - كتاب الجهاد - باب فضل الغزو في البحر ٢٨٦/٥ .

(٤) رواه الطبراني . وقال حديث حسن .

(٥) رواه أبو نعيم في الحلية . وقال حديث حسن .

العناية بحفظ سواحلها وتقوية أسطولها . والعناية بحراسة وحماية ثغورها ومياها وخيراتها .

وفي هذا ما فيه من التشجيع لجنود البحرية والعاملين فيها على الصبر على مخاطر البحر وأهوله ، وأن يتحملوا ذلك محتسبين الأجر على الله تعالى . فإن عظيم الأجر ينسى الخطر ، وإن ما أعده الله لهؤلاء المجاهدين من الكرامة يهون عليهم كل ما يلقونه في سبيل الله .

وعليهم أن يتذكروا دائماً وأبداً أن يكون جهدهم وجهادهم خالصاً لوجه الله الكريم ، حتى يتحقق لهم الأجر الجزيل ، والمثوبة العظيمة ، فهذه الكرامة للمجاهدين في سبيل الله وحده لا في سبيل الدنيا وأغراضها !!

وإذا كانت كل هذه الأجر لشهيد البحر وللغازي في البحر فإن أجر المجاهد في الجو - لا يقل أبداً والله تعالى أعلم - عن المجاهد في البحر . وهو في تقديري أعظم وأكرم لما يتعرض له من المخاطر ، ولما يصيبه من المتاعب والأهوال . وفي كل هذا تشجيع أي تشجيع لنسور الجو على تحمل المصاعب والمتاعب والمخاطر في سبيل الله ، وأن يتذكروا أن جهادهم ، وتدريبهم ، وسهرهم ، وقتالهم ، وحراستهم ، كل ذلك في ميزان حسناتهم ، وأنهم سينالون شرف الدنيا والآخرة ، فهم مع النبيين والصالحين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا . إنهم في الفردوس الأعلى فهل يبخل مسلم يؤمن بالله واليوم الآله خرب روحه وراحته بعدما عرف ما أعده الله تعالى له من الأجر والمثوبة ؟

الرباط في سبيل الله .

وكما حث القرآن الكريم على الجهاد والرباط فقد حث السنة أيضاً على ذلك كثيراً . فالله تعالى يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا

وصابروا وربطوا ﴿ آل عمران ٢٠٠ ﴾ . فقد أمرهم أن يصابروا على دينهم ، ولا يتركوه لشدة ولا رخاء ولا سراء ولا ضراء وأمهم أن يصابروا الكفار ، وأن يربطوا للمشركين .

فقد روى أن عبد الله بن المبارك كان يقول : صابروا المشركين وربطوا في سبيل الله .

وذلك لأن المرابطة وتحصين ثغور المسلمين وحراسة الحدود والوقوف في وجه الأعداء حتى لا يغيروا على المسلمين من أعظم الأعمال والقربات إلى الله إذ أن المرابط هو المنقطع للجهاد في سبيل الله ، حتى هجر الدنيا وترك زراعته أو صناعته أو تجارته ، وتفرغ للجهاد ومنازلة الأعداء ، فهو أعظم منزلة عند الله وأكبر أجراً . لذلك شجع الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام على الرباط ، وبين أجر المرابط فقال : (رباط يوم وليلة - أو يوم أو ليلة - كصيام شهر وقيامه ومن مات مرابطاً أجرى عليه مثل ذلك الأجر ، وأجرى عليه الرزق ، وأمن الفتان ^(١) . واقرأوا إن شئتم : ﴿ والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً ﴾ . . إلى آخر الآيتين) . . (٢) .

وإذا كان عمل ابن آدم ينقطع بالموت ومفارقة روحه جسده ، فإن عمل المرابط في سبيل الله لا ينقطع بل إن ثواب عمله يستمر وينمو حتى بعد موته ، ويضاف إلى رصيد أعماله وحسناته .

قال ﷺ : (كل ميت يختم على عمله الذي مات عليه إلا المرابط

(١) أخرجه مسلم (٣/١٥٢٠) والترمذي (٥/٣٠٦) والنسائي (٦/٣٩) والبيهقي (٩/٣٨) وغيرهم كثير .

(٢) الحج (٥٨ ، ٥٩) وبقيتهما : ﴿ وإن الله لهو خير الرازقين ، ليدخلنهم مدخلاً يرضونه ، وإن الله لعليم حليم ﴾ .

في سبيل الله عز وجل ، فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة ، ويأمن من فتنة القبر (١) .

وليس لأحد من الأجر وعظيم الثواب مثل ما للمرابط في سبيل الله .

قال رسول الله ﷺ : «من نزل منزلاً يخيف فيه المشركين ويخيفونه حتى يدركه الموت ، كتب له كأجر ساجد لا يرفع رأسه إلى يوم القيامة وأجر قائم لا يقعد إلى يوم القيامة ، وأجر صائم لا يفطر» (٢) .

ولا أحد أسهل اجتيازاً للصراف من المرابط ، إذ أنه يمر بدون حساب ولا عذاب ولا سؤال ، قال ﷺ : «يبعث الله عز وجل أقواماً يمرون على الصراف كهيئة الريح ، ليس عليهم حساب ، ولا عذاب . قالوا : ومن هم يا رسول الله ؟ قال : أقوام يدركهم موتهم في الرباط» (٣) .

فشتان بين مرابط في سبيل الله ، يحرس في سبيل الله ، لا تنام عيناه آخذاً بعنان فرسه ، وبين الذين يتقلبون على وثير الفراش ويتمتعون بلذيذ الطعام والشراب ، فالذين تسد بهم الثغور يقول عنهم رسول الله عليه السلام : «أولئك مني وأنا منهم ، أولئك مني وأنا منهم» (٤) .

فهذه العين الساهرة في سبيل الله ، أكرمها الله بتحريم النار عليها

(١) المرجع السابق .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (١٤٤/٢) وأبو داود (٩/٢) والترمذي (٢٥٠/٥) وأحمد فيض القدير (٣٥/٥) وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين .

(٣) من كتاب الجهاد لعبد الله بن المبارك (ص ١٦٤) تحقيق الدكتور نزيه حماد .

(٤) من كتاب الجهاد لعبد الله بن المبارك (ص ١٦٥) .

يوم القيامة فلا تمسها ، وكل عين باكية يوم القيامة إلا عين سهرت في سبيل الله . فرسول الله يقول : «ثلاثة أعين لا تحرقهم النار أبداً ، عين بكت من خشية الله ، وعين سهرت بكتاب الله ، وعين حرست في سبيل الله عز وجل» (١) .

عن شهاب بن سعد رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها» (٢) .

وعن سلمان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات فيه جرى عليه عمله الذي كان يعمل وأجرى عليه رزقه وأمن من الفتان» (٣) .
وزاد الطبراني : (وبعث يوم القيامة شهيداً) .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : «رباط شهر خير من صيام دهر ومن مات مرابطاً في سبيل الله أمن الفزع الأكبر وغُدي عليه برزقه وريح من الجنة ويجري عليه أجر المرابط حتى يبعثه الله عز وجل» (٤) .

(١) أخرجه ابن المبارك في كتاب الجهاد (ص ١٦٨) وأخرج نحوه الحاكم في المستدرک (٨٢/٢) وأبو نعيم في الحلية (٢٠٩/٥) . ولفظ الحاكم (ثلاثة أعين لا تمسها النار : عين فقتت في سبيل الله وعين حرست في سبيل الله وعين بكت من خشية الله) ولفظ أبي نعيم (حرمت النار على ثلاثة أعين عين بكت من خشية الله ، وعين غضت عن محارم الله ، وعين سهرت في سبيل الله) .

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم .

(٣) رواه مسلم واللفظ له والترمذي والنسائي والطبراني .

(٤) رواه الطبراني ورواه ثقات .

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل» (١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة. وزاد في رواية: وعبد القطيفة: إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط تعس وانكس وإذا شيك فلا انتقش. طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه مغبرة قدماء إن كان في الحراسة كان في الحراسة وإن كان في الساقة كان في الساقة وإن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يشفع» (٢).

وما أكثر الأحاديث النبوية الشريفة التي تحض على حراسة معسكر المسلمين وتحصين ثغورهم، وحماية حدودهم، والسهر على أمنهم وصيانة مقدساتهم. لا أجر أعظم ولا فضل أكرم من أجر هؤلاء.

أخرج الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه والدارمي والحاكم واللفظ له عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال وهو يخطب على المنبر: (إني محدثكم حديثاً لم يمنعني أن أحدثكم به إلا الضن بكم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: حرس ليلة في سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليها ويصام نهارها).

وأخرج الحاكم بسنده عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «ألا أنبئكم بليلة أفضل من ليلة القدر؟ حارس حرس في أرض خوف لعله أن لا يرجع إلى أهله» (٣).

(١) رواه النسائي والترمذي. وقال: حديث حسن غريب.

(٢) رواه البخاري.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢/٨٠، ٨١) وصححه. وقلت: الحديث صحيح ورجاله ثقات.

وقد دلت الأحاديث الصحيحة على وجوب الجنة لمن حرس ليلة في سبيل الله وكثرة هذه الأحاديث تغني عن ذكرها. ولكن سنذكر منها على سبيل المثال ما أخرجه الحاكم وأبو داود - واللفظ له - عن سهل بن الحنظلية: (أنهم ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حنين ثم قال رسول الله ﷺ: «من يحرسنا الليلة؟ قال: أنس بن أبي مرثد الغنوي: أنا يا رسول الله قال: فاركب، فركب فرساً له فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: استقبل هذا الشعب حتى تكون في أعلاه، ولا نُغَرَّنَّ من قبلك الليلة. فلما أصبحنا خرج رسول الله ﷺ إلى مصلاه فركع ركعتين ثم قال: أحسستم فارسكم؟ فقالوا يا لاسول الله ما أحسنناه؟ فتؤب بالصلاة، فجعل رسول الله ﷺ وهو يلتفت إلى الشعب حتى إذا قضى صلاته وسلم قال: أبشروا، فقد جاءكم فارسكم، فجعلنا ننظر إلى خلال الشجر في الشعب فإذا هو قد جاء حتى وقف على رسول الله ﷺ فقال: إني انطلقت حتى كنت في أعلى هذا الشعب حيث أمرني رسول الله ﷺ، فلما أصبحت أطلعت الشعبين كليهما فنظرت فلم أرَ أحداً، فقال له رسول الله ﷺ: وهل نزلت الليلة؟ قال: لا، إلا مصلياً أو قاضياً حاجة، فقال له رسول الله ﷺ: قد أوجبت فلا عليك أن لا تعمل بعدها...» . . .

ولا تعجب - أخي المجاهد في سبيل الله - مما أعده الله لك من الأجر الجزيل - ما دمت في سبيل الله - وتأكد أن حراستك لحدود بلادك ومرابطتك على ثغورها خير من الاعتكاف في المسجد الحرام والمسجد النبوي والمسجد الأقصى .

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد - باب في فضل الحرس في سبيل الله ٩/٣ . والحاكم في المستدرک ٨٣/٢ ، ٨٤) وصححه . والحديث إسناده صحيح ، ورجاله ثقات .

وقد سئل شيخ الإسلام - ابن تيمية رحمه الله - عن سكنى مكة وبيت المقدس والمدينة المنورة على نية العبادة والانقطاع إلى الله تعالى ، والسكنى بدمياط والإسكندرية وطرابلس على نية الرباط ، أيهم أفضل؟ فأجاب بقوله : (الحمد لله بل المقام في ثغور المسلمين كالثغور الشامية والمصرية أفضل من المجاورة في المساجد الثلاثة ، وما أعلم في هذا نزاعاً بين أهل العلم وقد نص على ذلك غير واحد من الأئمة ، وذلك لأن الرباط من جنس الجهاد والمجاورة غايتها أن تكون من جنس الحج كما قال تعالى : ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله ، لا يستون عند الله ﴾ (١) .

ولكن هذه الأجور العظيمة والدرجات الكريمة عند الله يوم القيامة ، لا تكون إلا للمجاهدين والمرابطين في سبيل الله وحده ، لا لغرض من أغراض الدنيا ولا لغرض من أعراضها . وإذا شابت نية المجاهد أية مصلحة دنيوية ، حتى ولو أراد معها الجهاد في سبيل الله ، فلا أجر له ، ولا كرامة له . فالله لا يريد جهاداً أو رباطاً مشوباً بغرض من أغراض الدنيا ، بل يجب أن تكون نية المجاهد والمرابط خالصة لله ، يقاتل أعداء الله ، ليقم حكم الله ، ويطبق شرع الله وترفع راية لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وليحكم الناس بما أنزل الله دون أن يفكر بنفسه ، أو يرغب في مصلحة من المصالح كالرياسة ، أو الزعامة أو السمعة وحسن الأحداث أو إرضاء القائد ، أو تسجيل الاسم في سجل الخالدين أو لمجرد الدفاع عن الحرم والأوطان والشرف والكرامة . . لا . . يجب أن تكون النية معقودة على إعلاء كلمة الله وتطبيق شرع الله

(١) مجموعة فتاوى ابن تيمية ٥/٢٨ ، وانظر سورة التوبة / ١٩ .

وإحلال شريعة الله وإنفاذ حكمه هو الهدف وهو الغاية التي يسعى إليها
المجاهد وإلا حرم الأجر والثواب عند الله . ويقال له يوم القيامة إذهب
وخذ أجرك لمن قاتلت في سبيله .

عن أبي هريرة أن رجلاً قال يا رسول الله رجل يريد الجهاد في
سبيل الله وهو يتبعني عرضاً من الدنيا فقال رسول الله ﷺ : لا أجر له
فأعظم ذلك الناس ، فقالوا للرجل : عد إلى رسول الله ﷺ فلعلك لم
تفهمه . فقال الرجل : يا رسول الله . . . رجل يريد الجهاد في سبيل الله
عز وجل وهو يتبعني من عرض الدنيا فقال : لا أجر له ، فأعظم ذلك
الناس ، فقالوا للرجل عد إلى رسول الله ﷺ فقال في الثالثة : رجل يريد
الجهاد في سبيل الله عز وجل ، وهو يتبعني عرض الدنيا فقال لا أجر
له (١) .

هذا ، وقد سبق أن أفردنا لمفهوم (سبيل الله) فصلاً خاصاً به .

ونرى لزاماً علينا أن نبين في فصل آخر أهداف الجهاد وغاياته ،
حتى يعرف المقاتل لماذا يقاتل ؟ وكيف يقاتل ؟ وما هي آداب القتال
المشروع في الإسلام على ضوء الكتاب والسنة .

(١) أخرجه أبو داود (١٣/٢) وابن حبان - موارد الظمان (ص ٣٨٦) والبيهقي (١٦٩/٩)
وغيرهم .

بواعث الجهاد وغاياته

عرفنا أن الجهاد في الإسلام هو الجهاد في (سبيل الله) وقلنا إن الإسلام لا يعرف جهاداً في غير هذا السبيل . وسبيل الله هو طرق الخير والعدالة والرحمة والوحدانية ، وإن شئت قل هو الدعوة الإسلامية نفسها . ولهذا إذا أردنا أن نتعرف على بواعث الجهاد فيجب علينا أن نلتمسها في طبيعة الإسلام وأهدافه نفسها ، لأن الجهاد إنما شرع من أجل الدعوة الإسلامية وحرية نشرها ، فلا بد إذن أن تكون بواعث الجهاد وغاياته ذروة السمو لأنها من الله وإليه .

والمتمعن في آيات الجهاد في القرآن الكريم يجد أن الجهاد إنما شرع للأغراض النبيلة والبواعث السامية الآتية :

أولاً : رد الاعتداء .

ليس الإسلام دين الاستسلام ، وليست الفضيلة فيه الركون إلى الدعة وطلب المعيشة الذليلة ، إنما الفضيلة في الإسلام رد الاعتداء ، ومنع الخضوع للأقوياء ولذلك شرع القتال لمنع الفساد في الأرض إذ لو ترك الأشرار يعيشون في الأرض فساداً من غير رادع يردعهم ، ولا مانع يمنعهم لعم الفساد البر والبحر^(١) .

(١) الجهاد (ص ٤) للشيخ محمد أبو زهرة . من أعمال المؤتمر الرابع للبحوث الإسلامية .

ولذا فقد قرر سبحانه حق الانتصار والدفاع والمقابلة للمبغى عليهم وندد بالظلم والظالمين الذين يعتدون على الناس . فجاء في سورة الشورى قوله تعالى : ﴿ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ، وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، إنه لا يحب الظالمين ، ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبيغون في الأرض بغير الحق ، أولئك لهم عذاب أليم ﴾ (الشورى : ٣٩ - ٤٢) .

وفي أول آية أباح الله للمسلمين القتال ورد الاعتداء عن أنفسهم بين سبحانه وتعالى أن الأديان لا بد لها من قوة تحميها وترد عنها أذى المعتدين ، حتى لا ينتصر الشر على الخير وحتى يقف المعتدون عند حدهم .

﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا ، إن الله لا يحب كل خوان كفور . أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، والله عاقبة الأمور ﴾ (الحج : ٣٨ - ٤١) .

قال الواحدي : كان المشركون يؤذون أصحاب رسول الله فلا يزالون يجيئون بين مضروب ومشجوج ، فشكوهم إلى رسول الله فيقول : اصبروا فإنني لم أؤمر بقتال حتى هاجر رسول الله . فأنزل الله هذه الآية ، وقوله تعالى : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ﴾ أي لولا ما شرعه

الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء لاستولى أهل الشرك وعطلوا ما بنته أرباب الديانات من مواضع العبادات ، ولكنه دفع بأن أوجب القتال ليتفرغ أهل الدين للعبادة .

فالجهد أمر متقدم في الأمم ، وبه صلحت الشرائع واجتمعت المتعبدات ، فلولا القتال والجهد لتغلب على الحق من كل أمة (١) .

فأولى آيات الجهاد نزولاً حددت الباعث عليه بصراحة ، وأقرت أمر الدفاع عن النفس ورد الظلم والطغيان والوقوف في وجه المعتدين ، وقد وعد الله بنصر المظلوم الذي يدافع عن نفسه .

والآية تقرر أن القتال أمر فطري في البشر ﴿ ولولا دفع الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾ وهذا ما توصل إلى معرفته علماء النفس والاجتماع أخيراً .

وقال ابن خلدون: (إن الحرب وأنواع المقاتلة لم تنزل واقعة في الخليقة منذ برأها الله وأصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض ، وهي أمر طبيعي في البشر لا تخلو منه أمة ولا جيل . وسبب هذا الانتقام في الأكثر إما غيرة ومنافسة وإما عدوان ، وإما غضب لله ولدينه ، وإما غضب للملك وسعي في تمهيدته) (٢) .

فالظلم والعدوان من طبيعة البشر . وقد قرر القرآن الكريم هذه الحقيقة وأشار إلى هذه النزعة بقوله: ﴿ إن الإنسان لظلم كفار ﴾

(١) تفسير ابن كثير (٣/٢٢٦) وتفسير القرطبي (١٢/٦٨) والكشاف (٣/١٥) .

(٢) مقدمة ابن خلدون (ص ٢٧٠ ، ٢٧١) .

(إبراهيم: ٣٤) وقوله تعالى: ﴿إِنَّه كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾
(الأحزاب: ٧٢).

وجاءت الأديان السماوية تهذب هذه الطبيعة وتعمل على تقويمها وتدعو الناس للتعاون والمسالمة وتضع القوانين التي تضمن العدالة، ولكن أكثر الناس نفروا من الأديان وأكثر الذين اعتنقوها حرفوها لتلائم طباعهم العدوانية، وجاء الإسلام وحفظ الله كتابه من التحريف. ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾. (الحجر: ٩).

وذلك ليكون دستوراً وملاذاً ومنازة للبشرية الضالة ليخرجها من الظلمات إلى النور بإذن ربها. فقد تضمن هذا الدستور الخالد تشريع القتال، وحدد أسبابه وأهدافه، وحدد علاقات البشر في حالي السلم والحرب، وجعل الحرب وسيلة إذا عجز السلام المحض أن يمنح البشرية الأمن والسلامة، فعلى مر التاريخ لم يسعد قوم إلا بعد أن دافعوا عن أنفسهم وأثبتوا لمن حولهم أنهم يستطيعون حماية الزمار والدفاع عن الدار حتى لقد ارتبط عز الأقوم بجهادهم^(١).

وقد بينت أول آيات سورة البقرة نزولاً الباعث على القتال والغاية منه حيث يقول الحق سبحانه: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين. فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة

(١) الجهاد في التفكير الإسلامي (ص ٥٥)، د. أحمد شلبي.

ويكون الدين لله، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين، الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص. فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴿ (البقرة: ١٩٠ - ١٩٤).

فالأيات الكريمة تأمر المؤمنين بقتال المشركين الذين قاتلوهم وأخرجوهم من ديارهم، وآذوهم في دينهم وفتنوهم في عقيدتهم من مشركي قريش، وأمرت بقتال من يقاتلهم في كل وقت وفي كل مكان، ولكن بشرط عدم الاعتداء لأن الله لا يحب المعتدين ﴿ إن الله لا يحب المعتدين ﴾.

فالأيات صريحة في تحديد هدف القتال، وما يبعث المسلمين على قتال الكافرين ﴿ قاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ﴾ فالقتال يجب أن يكون الباعث عليه (سبيل الله)، لا لغرض من أغراض الدنيا، لا للمغنم والمكسب، ولا في سبيل المجد وذئوع الصيت والشهرة أو للاستبداد والطغيان، والتوسع والنفوذ، فهذا كله خارج عن (سبيل الله) وليس من القتال المشروع الذي يحض عليه القرآن والسنة لأن قتال المسلمين خالص لوجه الله وإعلاء كلمته، ورفع راية التوحيد لإقامة حكم الله في الأرض، ونشر عدالته بين الناس، والقضاء على أي نظام غير نظام الإسلام من أنظمة الطواغيت.

قال القرطبي^(١): لا تعتدوا في القتال لغير الله وجه الله كالحماية وكسب الذكر، بل قاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم، يعني ديناً وإظهار للكلمة .

(١) تفسير القرطبي (٢/٣٥٠).

ومما يؤكد ما ذهب إليه القرطبي قوله تعالى : ﴿ الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ﴾ (النساء : ٧٦).

فالذين آمنوا يقاتلون أعداء الله لإقامة العدل بين الناس وإقرار منهج الله ودينه ورفع راية الحق، فقتالهم باسم الله وعلى بركة الله، ليس لأنفسهم ولا من أنفسهم ولا لقومهم ولا لجنسهم، ولا لقرابتهم وعشيرتهم. إنما هو لله وحده لإقامة منهجه وتطبيق شرعه، حتى يتفرد الله وحده بالحكمة المطلقة، فلا قوانين وضعية يضعها الطواغيت ولا أنظمة ودساتير، مهما كان مصدر هذه الدساتير وسواء أكانت من الطاغوت ذاته، أو من جماعة من الجماعات، أو صدرت باسم الشعب أو الأمة أو... . فكل هذه الأسماء ما أنزل الله بها من سلطان فيجب على المجاهدين في سبيل الله ألا يبذلوا دماءهم وأموالهم ليخلصوا أوطانهم من حكم الطواغيت الأجانب ليقيموا نظاماً جديداً لطواغيت يسمون بأسماء إسلامية. فالفيصل بين القتال في سبيل الله والقتال في سبيل الطاغوت هو هدف المقاتلين: هل هو لإقامة حكم إسلامي حسب الكتاب والسنة أم لاستبدال نظام جاهلي بنظام جاهلي آخر، أو تغيير أسماء الطواغيت من أجنبية إلى إسلامية. فإذا كان ذلك كذلك فلن يكون جهاداً في سبيل الله.

ولذلك بين الحق سبحانه ماذا يفعل المجاهد إذا انتصر على الأعداء فقال عز من قائل: ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر... ﴾ فليست الغاية من تحقيق النصر على الأعداء توسعاً في الملك كما تفعل الدول الكافرة

اليوم، ولا الاستيلاء على موارد الثروات الطبيعية للشعوب، ولا علواً ولا استكباراً في الأرض لكي يكون جنس أعلى من جنس، وأمة أربى من أمة، ولكن المؤمنين إذا انتصروا ﴿ أقاموا الصلاة ﴾ أي أنهم توجهوا إلى السمو الروحي من عبادة الله وتطهير أنفسهم ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ أي أنهم حققوا العدالة الاجتماعية من إعطاء المحتاجين حقهم في هذه الحياة ﴿ وأمروا بالمعروف ﴾ أي أشاعوا الخير والحق بين الناس ﴿ ونهوا عن المنكر ﴾ أي حاربوا الشر والفساد واستأصلوهما من المجتمع^(١).

ثم يحدد سبحانه كيفية وقف القتال بين المسلمين والمشركين، ويبين متى يجب أن يتوقف أعمال القتال بين الطرفين فقال تعالى: ﴿ فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم ﴾ (البقرة: ١٩٢).

ويفسر جمهور المسلمين (الانتهاء) بمعنى الإسلام، أي انتهاء المشركين عن شركهم وكفرهم، وقبولهم بالدين الإسلامي، وإعلان إسلامهم فيجب على المجاهدين في سبيل الله أن يستمروا في مقاتلة المشركين إلى أن يسلموا. فهذا هو الانتهاء الذي يستحق رحمة الله ومغفرته لا مجرد الانتهاء المؤقت عن قتال المسلمين كما يتبادر إلى أذهان بعض المحدثين من المسلمين^(٢).

وقد فسر الحق سبحانه (الانتهاء) في الآية التالية بقوله ﴿ حتى لا تكون فتنة ﴾ والذي عليه جميع المفسرين أن الفتنة تعني الشرك والكفر.

قال الإمام القرطبي: ﴿ فإن انتهوا ﴾ أي عن قتالكم بالإيمان، فإن الله

(١) روح الدين الإسلامي (ص ٣٧٨) عفيف طبارة.

(٢) انظر الدستور القرآني (١/٣٩٥). والتفسير الحديث محمد عزة دروزة وغيره كثير.

يغفر لهم جميع ما تقدم ويرحم كلاً منهم بالعفو عما اجترم، ونظيره قوله تعالى: ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين ﴾ (الأنفال: ٣٨).

فقوله: ﴿ إن ينتهوا ﴾ يريد عن الكفر.

قال ابن عطية: ولا بد والحامل على ذلك جواب الشرط ﴿ يغفر لهم ما قد سلف ﴾.

ومغفرة ما قد سلف لا تكون إلا لمتته عن الكفر، وقوله: ﴿ إن يعودوا ﴾ يريد إلى القتال، لأن لفظة (عاد) إذا جاءت مطلقة فإنما تتضمن الرجوع إلى حالة كان الإنسان عليها ثم انتقل منها ﴿ فقد مضت سنة الأولين ﴾ عبارة تجمع الوعيد والتهديد.

ونظير ذلك قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿ وقتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير. وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير ﴾ (الأنفال: ٣٩، ٤٠).

قال الزمخشري: ﴿ فإن انتهوا ﴾ أي عن الشرك والقتال ﴿ حتى لا تكون فتنة ﴾ أي شرك ﴿ ويكون الدين لله ﴾ أي خالصاً ليس للشيطان فيه نصيب ﴿ فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾ فلا تعتدوا على المنتهين لأن مقاتلتهم عدوان وظلم، فوضع قوله على الظالمين موضع قوله على المنتهين.. فالمجاهدون في سبيل الله مأمورون بأن يقاتلوا أعداء دينهم (من المشركين) حتى يقضوا على هذه القوة المعتدية الظالمة، وحتى يصبح الدين كله لله.

وتكرار الحديث عن الفتنة بعد تفضيها واعتبارها أشد من القتل لأن الأعداء على العقيدة أشد خطراً من الاعتداء على النفس.. فالعقيدة

عند الله أعظم قيمة من الحياة، وإذا كان المؤمن مأذوناً في القتال للدفاع عن حياته وماله فهو من باب أولى مأذون بأن يدافع عن عقيدته ودينه .

وقد وعد الله تعالى الذين يفتنون الناس عن دينهم بعذاب الحريق :
﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴾ (البروج : ١٠) .

﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ﴾ (البقرة : ٢١٧) .

وقوله تعالى : ﴿ ذوقوا فنتنكم هذا الذي كنتم به تستعجلون ﴾ (الذاريات : ١٤) .

﴿ ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كل ما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً ﴾ (النساء : ٩١) .

فالهدف الذي حددته الآيات الكريمة من القتال هو حماية عقيدة الناس من الفتنة، بالأخص إذا صرف أحد عن دينه ولا يؤدي في عقيدته بالقوة والتعذيب والإغراء . . وأن يعز جانب دين الله، وترتفع رايته فلا يجروء أحد على التعرض لمعتنقيه بالفتنة .

ولا شك أن هذه غاية سامية وهدف نبيل .

قال صاحب المنار^(١) : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ﴾ هذه الآية

(١) عن تفسير المنار (٢/٢١١) .

بينت غاية القتال وهي ألا يوجد شيء من الفتنة في الدين ﴿ ويكون الدين كله لله ﴾ أي يكون دين كل شخص خالصاً لله لا أثر لخشية غيره فيه، فلا يفتن لصدده عنه ولا يؤذى فيه ولا يحتاج فيه إلى الدهان والممارسة أو الاستخفاء والمحابة.. وغاية قتال الإسلام للمشركين هي القتل أو الإسلام لأنهم يقاتلون المسلمين دائماً لإرجاعهم عن دينهم وصددهم عن سبيل الله ومنعهم نشر الدعوة.

وعلى أية حال فإن الإسلام قرر مبدأ رد الاعتداء والدفاع عن النفس والدين بكل صوره وأشكاله.

والاعتداء يتصور ويتحقق بالاعتداء على النفس أو المال أو العقيدة أو الأرض. كأن يتدّى العدو بقتال المسلمين بأن يتقدم لغزو الأرض الإسلامية ويحاول إخراج المرابطين بالفعل من أماكنهم فالاعتداء في هذه الحال كائن بالفعل وإن لم يدخل الديار لأنه لا يكون منه بعد ذلك إلا أن يدخلها، فهنا يجب أن يقف المقاتلون لرد كيد العدو في نحره ويستجيبوا لقوله تعالى: ﴿ يأيتها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار، وليجدا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ (التوبة: ١٢٣).

ومن صور الاعتداء اضطهاد العدو للمسلمين الذين يقيمون في أرضه ومحاولته أن يفتنهم عن دينهم الذي ارتضوه كما فعل كفار قريش مع المستضعفين الذين عجزوا عن الهجرة مع النبي ﷺ وأصحابه وقد ذاقوا أشد ما يبتلى به مؤمن في دينه، كما أودى النبي ﷺ وأصحابه قبل الهجرة.

وقد قرر القرآن الكريم مبدأ الدفاع عن المسلم أينما كان بغض

النظر عن المكان الذي يعيش فيه واعتبر الظلم والبغي والاضطهاد الذي يقع على مسلم ولو كان في أقصى الشرق أو الغرب مبرراً لانتصار سائر إخوانه المسلمين، وقاتل عدوه قال تعالى: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون: ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾ (النساء: ٧٥).

فالآية الكريمة تحض المسلمين على تخليص إخوانهم المستضعفين المضطهدين وإنقاذهم ونصرتهم على ظالمهم والمعتدين عليهم، ودفع الأذى عنهم فأباح الله التدخل في شئون الغير الداخلية لإنقاذ المسلمين الذين يقعون تحت سيطرتهم وتعذيبهم وهذا هو الجهاد المشروع الذي جعله الله (في سبيله) كما قال ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله﴾.

وليس للمجاهد في هذا العمل النبيل أي مكسب أو مغنم دنيوي شخصي بل هو عمل خالص لوجه الله، وابتغاء رضاه، بتخليص المؤمنين بالله من تعذيب وفتنة أعداء الله وأن يبذل في سبيل هذا الهدف الغالي والرخيص حتى ولو كلفه ذلك روحه. طمعاً في رضوان الله وجنته، وخوفاً من سخطه والنار.

قال القرطبي^(١): حض الله تعالى على تخليص المستضعفين من أيدي الكفرة المشركين الذين يسومونهم سوء العذاب ويفتنونهم عن الدين، فأوجب الله الجهاد لإعلاء كلمته وإظهار دينه واستنقاذ المؤمنين الضعفاء من عباده، وإن كان في ذلك تلف النفوس.

فهدف المجاهدين في سبيل الله في كل زمان ومكان تخليص

(١) تفسير القرطبي (٥/٢٧٩).

إخوانهم المسلمين من سيطرة الكافرين من الفتنة والبلاء .

ولا زالت هذه الآية الكريمة تهتف بالمؤمنين في كل مكان وتستشير حميتهم ونخوتهم لإنقاذ إخوانهم المسلمين الذين وقعوا تحت ضغط الاستعمار وسيطرة الاحتلال حتى يتخلصوا من ذل الكفرة وفتنتهم .

فالله سبحانه ﴿ يمقت الظلم والظالمين ﴾ والذين يرضون الإقامة على الذل والخسف ويقبلون بالهوان، ولا يقومون بالدفاع عن أنفسهم، ويحاولون التخلص من الظالمين بكل وسيلة ممكنة .

فقد ورد في سورة النساء: ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، أولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً ﴾ (النساء: ٩٧ - ٩٩) .

﴿ ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ (النساء : ١٠٠) .

فالأيات صرخة مدوية في وجه الظلم والرضا به، ووعيد وتهديد لمن يقبل الظلم على نفسه ولا يهب للدفاع عنها، وفيها ترغيب للخروج من دار الذل إلى دار العزة والقوة، حيث يتمكن المظلوم من إعداد العدة للقضاء على الظالمين واجتثاث شجرة ظلمهم من الأرض وتخليص الضعفاء الذين قعد بهم عجزهم عن الهجرة والدفاع عن أنفسهم .

وقد ندد الله تنديداً عنيفاً بالذين لم يلحقوا بدار الإسلام ورغبوا في

الإقامة في دار الكفر: ﴿ إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير ﴾ (الأنفال: ٧٣).

وقد عدهم الله سبحانه من المنافقين والمرتدين عن الإسلام وأمر بأخذهم أسرى وتقتيلهم تقتيلاً شديداً وألا تكون بينهم وبين المسلمين مودة ولا مولاة، فلا تأخذهم بهم رحمة ولا شفقة.

﴿ فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله ، فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً ﴾ (النساء: ٨٨ - ٨٩) .

قال مجاهد: هم قوم خرجوا من مكة حتى جاءوا المدينة يزعمون أنهم مهاجرون ثم ارتدوا بعد ذلك، فاستأذنوا النبي عليه الصلاة والسلام إلى مكة ليأتوا ببضائع لهم يتجرون فيها فاختلف فيهم المؤمنون فقائل يقول: هم منافقون، وقائل يقول: هم مؤمنون فبين الله تعالى نفاقهم وأنزل هذه الآية وأمر بقتلهم.

ويروى أيضاً أن قوماً من العرب أتوا رسول الله فأسلموا وأصابوا وباء المدينة وحمّاهما فأركسوا، فخرجوا من المدينة فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله، فقالوا: ما لكم رجعتم فقالوا: أصابنا وباء المدينة فاجتوبيناها فقالوا: أمالكم في رسول الله أسوة؟ فقال بعضهم: نافقوا وقال

بعضهم لم ينافقوا هم مسلمون فأنزل الله هذه الآية^(١).

فقال القرطبي: هذان القولان يعضدان سياق آخر من قوله تعالى:

﴿ حتى يهاجروا ﴾ وهذا وإن كلمة (ظلم) ومشتقاتها قد وردت في القرآن الكريم نيفاً وثلاثمائة مرة حيث يدل هذا على ما أولته حكمة التنزيل من اهتمام عظيم لمعالجة ما انطوى في هذه الكلمة التي تتجسد فيها معانٍ عديدة ما تلهمه الآيات التي وردت فيها كالجور الذي هو ضد العدل، والانحراف عن طريق الحق، والجنابة على النفس والإضرار بها وبالغير، والعدوان على حريات الناس وحقوقهم وأموالهم ودمائهم وبخاصة الضعفاء، واستغلالهم والتحكم فيهم والاستكبار عن دين الله وسبيله والصد عنهما واقتراف الآثام. وبكلمة أخرى كل المنكرات والفواحش.

والآيات القرآنية كلها تنطوي على هتاف مدوٍ ضد الظلم والظالمين ودعوة مدوية إلى وجوب جهاد الظلم واقتلاع جذور الظالمين. ومن صور الاعتداء التي يجب ردها النكث في العهد، فإن نكث الأعداء أيمانهم حق قتالهم دفعاً للاعتداء الواقع أو الشر المتوقع، لقوله تعالى: ﴿ إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون. فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون. وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴾ (الأنفال: ٥٥ - ٥٨).

فالناكث للعهد أو الذي يخشى غدره وخيانتته يجب أن يحارب وينكل به دفعاً لشره وأذاه، وقد حرص سبحانه على قتال الناكثين لعهودهم كثيراً فقال: ﴿ ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج

(١) أسباب النزول (ص ١١٢) للواحدي.

الرسول وهم بدأوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين، قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ﴿ (التوبة: ١٣، ١٤).

وإن من صور الاعتداء، دخول العدو أرض الإسلام غازياً متتهكاً الحرمات مخرباً الديار، فإن الاعتداء في هذه الحال يكون شديد الوقع قوي الأثر، إذ هو غزو للإسلام في داره.

وفي هذه الحالة يكون القتال فرض عين يجب على كل من يقدر على حمل السلاح أن يحمله بعدت الديار أو دنت لأن أرض الإسلام واحدة.

وقد أباح الله تعالى القتال في الأشهر الحرم، وفي المسجد الحرام في هذه الحالة دفعا للاعتداء وحتى لا يطمع فيهم العدو، الذي لا يرعى حرمة للشهر الحرام ولا للبلد الحرام.

هذا هو الباعث الأول على القتال المشروع في الإسلام، وهو يتفق مع كل ما قررتَه الطبائع البشرية ونزلت به الأديان السماوية.

الباعث الثاني: حماية حرية نشر الدعوة:

إن الأمة الإسلامية مكلفة بنشر الدعوة الإسلامية وتوصيلها للناس كافة في كل زمان ومكان. وهذه هي رسالتها التي كلفها الله ورسوله بها، وقد ورد هذا التكليف في أكثر من موضع من كتاب الله: ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون ﴾ (آل عمران: ١٠٤).

وإن قصرُوا في ذلك فهم آثمون مستحقون لمقت الله وغضبه في

الدنيا والآخرة، كما غضب الله تعالى على بني إسرائيل بسبب تقصيرهم في هذا الواجب المقدس ﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ (المائدة : ٧٨ ، ٧٩) .

وقد مدح الله تعالى هذه الأمة وشهد بأنها خير أمة لقيامها بهذا الواجب ﴿ كتتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ (آل عمران : ١١٠) .

وقد جعل الله تعالى الغاية من القتال في سبيله هي القيام بنشر الدعوة وأمر الناس بالمعروف ونهيهم عن المنكر: ﴿ ولينصرون الله من ينصره إن الله لقوي عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، والله عاقبة الأمور ﴾ (الحج : ٤٠ - ٤١) .

والقيام بهذا الواجب يجب أن يقوم به المسلمون دولاً وأفراداً بصفة ثابتة ومستمرة حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ولنستمع إلى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده، هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج، ملة أبيكم إبراهيم، هو سماكم المسلمين من قبل، وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾ (الحج : ٧٨) .

فالله تعالى قد كرم الأمة المحمدية باختيارهم لنصرة دينه وتبليغ رسالته للناس وجعلهم شهداء على الناس جميعاً يوم القيامة .

قال الإمام القرطبي : وهذه الآية تدخل في كثير من الأحكام، وهي

مما خص الله به هذه الأمة . . روى معمر عن قتادة: أعطيت هذه الأمة ثلاثاً لم يعطها نبي . كان يقال للنبي اذهب فلا حرج عليك وقيل لهذه الأمة ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ﴾ ويقال للنبي : سل تعطه - وقيل لهذه الأمة : ﴿ ادعوني استجب لكم ﴾ ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ (البقرة: ١٤٣).

وتدل هذه الآيات وأمثالها دلالة واضحة على تكليف المسلمين بتبليغ دعوة الإسلام إلى الناس كافة، كما بلغهم إياها رسول الله ﷺ . . وهذا الهدف الخير من أسمى أهداف الجهاد في الإسلام، إذ وعد الله الذين يسيرون على هدى الرسول في تبليغ الرسالة الجزاء الأوفى والصلاح والفلاح في الدنيا والآخرة وفي الوقت نفسه توعدهم الذين ينكصون على الأعقاب ولا يمضون على طريق نشر الدعوة بعد موته بقوله تعالى :

﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً، وسيجزي الله الشاكرين ﴾ . (آل عمران: ١٤٤).

ولما كانت رسالة النبي عليه الصلاة والسلام آخر الرسالات، ودينه آخر الأديان وهو آخر الأنبياء للناس كافة وحتى تقوم الساعة، فقد جعل الله تعالى هذه الرسالة عامة للناس جميعاً أسودهم وأحمرهم وأبيضهم وأصفرهم، وليست لجنس دون جنس أو لون دون لون أو لغة دون لغة . وهذا ما شهد به الحق تبارك وتعالى . . فقد أكد سبحانه هذه الحقيقة في مواضع كثيرة وبأساليب عديدة وفي سور متعددة، ومناسبات مختلفة .

﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾
(الفرقان : ١).

﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾ (سبأ : ٢٨).

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ (الأنبياء : ١٠٧)،

﴿ قل يأيتها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك
السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبي
الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾
(الأعراف : ١٥٨) وانظر أيضاً (المائدة : ١٥ ، ١٦ ، ٤٨).
(الأنعام : ١٥٣).

﴿ قل يأيتها الناس إنما أنا لكم نذير مبين ﴾ (الحج : ٤٩).

فالدين الإسلامي هو دين الإنسانية العام، ولا يقبل الله من الناس
ديناً غيره وقد وعد الله بأن يظهره على سائر الأديان كلها ولو كره
الكافرون.

﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ (آل عمران : ١٩).

﴿ ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من
الخاسرين ﴾ (آل عمران : ٨٥).

﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين
كله ولو كره المشركون ﴾ (التوبة : ٣٣).

ووعده الله تعالى الذين يسعون لإقامة هذا الدين بالاستخلاف في

الأرض، وبالتمكين لهم ولدينهم ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ﴾ (النور: ٥٥).

والنصوص القرآنية الكثيرة التي تأمر النبي ﷺ والمؤمنين بتبليغ هذه الرسالة للناس كافة تؤكد على هذه الحقيقة (عالمية الدعوة الإسلامية) وتطالب كل من ينتسب إلى الإسلام أن يجاهد بنفسه وماله في سبيل نشرها ﴿ يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ (المائدة: ٦٧).

﴿ فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ ﴾ (المائدة: ٩٢) .
﴿ فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ ﴾ (الشورى: ٤٨)

وانظر (آل عمران: ٢٠) (المائدة: ٩٩) (الرعد: ٤٠) (إبراهيم: ٥٢) (النحل: ٣٥، ٨٢) (النور: ٥٤) (العنكبوت: ١٨) (التغابن: ١٢) .. إلخ .

وقد أنكر الكثير من المستشرقين ومن نهلوا من سمهم من المستغربين هذه الحقيقة واستشهدوا على مفترياتهم ببعض الآيات المكية المبكرة النزول مثل قوله تعالى: ﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها ﴾ (الشورى: ٧).

وقوله: ﴿ فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون ﴾ (الدخان: ٥٨).

﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ﴾ (إبراهيم: ٤).

﴿ ولكل أمة رسول ﴾ (يونس : ٤٧).

واستشهادهم بهذه الآيات يدل على سوء فهمهم لها، ولطبيعة الدعوة الإسلامية نفسها. فلا حجة لهم في الاستشهاد بها، لأن الدعوة الإسلامية نزلت في الأمة العربية التي اختارها الله للقيام بهذا الواجب، لتكون سيدة الأمم كلها وخير أمة أخرجت للناس. فمن الطبيعي والأمر كذلك أن يبدأ الرسول عليه السلام بأقرب الناس إليه وهم عشيرته وأهل قريته ومن حولها من القرى لتكون مكة (أم القرى) قاعدة الانطلاق الكبرى نحو مختلف شعوب الأرض. ومن الطبيعي أن يكون القرآن الكريم باللغة العربية لأنه نزل في نبي عربي وفي أمة ناطقة باللغة العربية ولا تفهم غير هذه اللغة. فهل يريد هؤلاء وهؤلاء أن ينزل القرآن بالأعجمية أم بشتى لغات أهل الأرض حتى يكون عالمياً وللناس كافة؟

لا شك أن هذه حجة واهية، بل هي أضعف من بيت العنكبوت، ولكن المرء والتعصب الذميم يصنعان أكثر من ذلك.

وادعى البعض أيضاً أن الدعوة الإسلامية لم يخاطب بها أهل الكتاب وهذا الادعاء أسخف من سابقه، فأيات الله البينات التي تدعو أهل الكتاب كثيرة كثرة مفرطة، حتى يكاد القرآن يكون حديثاً متصلاً عنهم ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله. فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ (آل عمران : ٦٤).

وقد أثنى الله تعالى على الذين آمنوا برسالة محمد عليه السلام من أهل الكتاب، مما يدل على أن الدعوة وجهت إليهم ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة

والإنجيل . . . ﴿ إلى قوله ﴾ واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم
المفلحون ﴿ (الأعراف: ١٥٧) .

وها هي الكتب الثمانية التي أرسلها رسول الله عليه الصلاة والسلام
إلى ملوك زمانه كافة ومنهم أهل الكتاب يدعواهم كغيرهم من الناس إلى
الإسلام، شاهدة على كذب المستشرقين وكيدهم وتعصبهم. وقد وردت
في هذه الكتب عبارة ﴿ إني رسول الله إلى الناس كافة . . . ﴾ .

فهذه رسالة رسول الله ﷺ إلى كسرى ملك الفرس :

(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم
فارس سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا
الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله عز
وجل فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على
الكافرين، اسلم تسلم، فإن توليت فعليك إثم المجوس) (١) .

والحق أن المستشرقين ليسوا سواء في هذه المسألة، فقد عرف
بعضهم هذه الحقيقة واعترف بها، ونشر اعترافه في الناس من هؤلاء
الكاتب الفرنسي الكبير (ديسون) (٢) قال: (وبلغ محمد الدعوة إلى أكثر
ملوك الأرض، ذلك أن الإسلام لم يكن ديناً للعرب وإنما هو دين
الإنسانية من أقصى الأرض إلى أقصاها) .

وقال المؤرخ الإنجليزي (أرنولد) (٣) قولاً فصلاً في هذه المسألة:

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٩٦)، وإمتاع الأسماع (١/٣٠٩)، للمقرئزي والأنوار المحمدية من

المواهب اللدنية (ص ١١٦) .

(٢) المحمديات (ص ٤٧) تعريب عمر أبو النصر .

(٣) The caliphate p.p. 43 - 48 .

(لم تكن رسالة محمد مقصورة على بلاد العرب، بل للعالم أجمع نصيب فيها، ولما لم يكن هناك إلا إله واحد كذلك لا يكون هناك غير دين واحد يدعى إليه الناس كافة ولكي تكون هذه الدعوة عامة وتحدث أثرها المنشود في جميع الناس وفي جميع الشعوب نراها تتخذ صورة عملية في الكتب التي بعث بها محمد في السنة السادسة من الهجرة إلى عظماء ملوك العصر.. وهكذا صرح الرسول بكل وضوح وجلاء أن الإسلام ليس مقصوراً على الجنس العربي قبل أن يدور بخلد العرب أي شيء يتعلق بحياة الفتح والغزو بزمن طويل.

ويكمل قوله مستنكراً قول من يزعم بأن الدعوة الإسلامية ليست دعوة عالمية فيقول: (ومن الغريب أن ينكر بعض المؤرخين أن الإسلام قد قصد به مؤسسه في بادئ الأمر، أن يكون ديناً عالمياً برغم هذه الآيات البينات ومن بينهم (وليم ميور)، إذ يقول: (إن فكرة عالمية الدعوة قد جاءت فيما بعد، وأن هذه الفكرة على الرغم من كثرة الآيات والأحاديث التي تؤيدها لم يفكر فيها محمد نفسه، وعلى فرض أنه فكر فيها فقد كان تفكيره غامضاً فإن عالمه الذي كان يفكر فيه إنما كان بلاد العرب، كما أن هذا الدين الجديد لم يهياً لها وأن محمداً لم يوجه دعوته منذ بعث إلى أن مات إلا للعرب دون غيرهم).

وتقول الدكتورة (لورا فيشيا فاغلييري)^(١) الإيطالية: (إن حكمة الله وحده كانت مسئولة عن رسالة محمد، آخر الأنبياء الكبار حملة الشرائع، والنبي الذي ختم سلسلتهم إلى الأبد إن مثل هذه الرسالة كان يتعين

(١) دفاع عن الإسلام (ص ٢٨) تعريب منير البعلبكي.

عليها أن تكون رسالة عالمية لجميع أفراد الجنس البشري من غير تمييز وعلى اختلاف الجنسيات والأوطان والأعراق).

وتقول عن الذين ينكرون عالمية الدعوة (لقد كان أولئك إما عمياً وإما غير راغبين في أن يروا).

وقد فند المستشرق الأمريكي (لوثرروب ستودارد) أقوال الذين ينكرون عالمية الدعوة الإسلامية تفنيداً علمياً دقيقاً، وقد دعم رأيه بكثير من أقوال المنصفين في فهم هذه الحقيقة بالذات.

وحسبي هذه الشهادات من المستشرقين المنصفين بجنسياتهم المختلفة للرد على إخوانهم من الذين أعماهم التعصب عن رؤية نور هذه الحقيقة الناصعة، ولكي يتنبه المسلمون الذين أفزعتهم حملات المستشرقين الماكرة على الجهاد الإسلامي إذ راحوا يقولون: إن الجهاد لا يهدف إلا الدفاع عن النفس والوطن العربي وصحارى الجزيرة العربية ومكة والمدينة فقط لا غير.

وقد أطلت قليلاً في تبين هذه الحقيقة (عالمية الدعوة) لأنها الأساس الذي تقوم عليه شرعية الهدف التالي من أهداف الجهاد وهو العمل على نشر الدعوة الإسلامية وتوصيلها إلى الناس كافة.

ذلك أنه لما كانت هذه الدعوة ليست للعرب وحدهم وإنما هي للناس كافة فمن حق البشرية كلها على المسلمين عامة وعلى المجاهدين خاصة أن تبلغ إليهم هذه الدعوة، وألا تقف أية عقبة أو حاجز أو سلطة في وجه من يقوم بتوصيلها إلى الناس. فإذا وقفت أية قوة في وجه الدعاة وحالت بينهم وبين أسماع الناس وقلوبهم وجب على

الجماعة المسلمة أن تجاهد لتحطم الحواجز والنظم الطاغية، وتقيم مكانها نظاماً عادلاً يكفل حرية الدعوة إلى الحق ويضمن سلامة الدعاة وأمن الذين يسلمون من الأذى والاضطهاد والفتنة في الدين. ولهذا فقد توعده الله تعالى الذين يصدون الناس عن الحق في أكثر من أربعين آية مكية ومدنية من ذلك قوله تعالى: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب﴾ (النحل: ٨٨).

﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم﴾
(محمد: ١).

وكان أهل الكتاب يصدون عن سبيل الله فعاتبهم الله في أكثر من موضع ﴿قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون، يأبها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ (آل عمران: ٩٩، ١٠٠).

وقد برر الله تعالى الإذن بقتال المشركين بسبب صداهم عن سبيل الله كثيراً ﴿خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله﴾ (الأنفال: ٤٧).

فقتال هؤلاء الطغاة الذين أقاموا الحواجز في طريق الدعاة وصدوهم عن تبليغ دعوة الله للناس، وصدوا عن الإيمان بالله وفتنواهم عن دينهم، قتالهم واجب على كل مسلم، وجهاد بالمال والنفس من أوجب الواجبات، وأفضل القربات عند الله، ولهذا فقد أمر الله تعالى بقتالهم وشدد النكير على أئمتهم وكبرائهم الذين يتزعمون مقاومة الدعوة. فقال

سبحانه موجهاً الأمر للمجاهدين ﴿ فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون ﴾ (التوبة: ١٢).

أي لعلهم ينتهون عن كفرهم وباطلهم وصددهم عن سبيل الله، وفتنهم من آمن بالله. ولذلك يكون الغرض من مقاتلتهم دفع ضررهم لينتهوا عن قتالنا ويدخلوا في ديننا.

والآية الكريمة خصت (أئمة الكفر) بالقتال. وهم ذوو الرياسة والتقدم في الكفر لا يشق كافر غبارهم^(١).

وهم الذين يتصدون لصد الدعوة وتعطيل حرية نشر الدعوة حفاظاً على مكاسبهم ونفوذهم وسلطانهم، فإذا توجه المجاهدون إليهم بالقتل زالت الحواجز التي يضعونها بين دعاة الإسلام وبين شعوبهم. وهذا ما يهدف إليه الجهاد في سبيل الله. فالقتال يتوجه للمقاتلين والصادقين عن سبيل الله، الذين يعترضون طريق الدعوة، ولا يتعرض المجاهدون للشعوب والمسالمين الذين لا يريدون شراً بالإسلام وبالمسلمين.

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على الأهداف النبيلة التي يهدف إليها الجهاد في سبيل الله.

فمن أهداف الجهاد النبيلة السامية إزالة هؤلاء الطواغيت الذين يستعبدون شعوبهم ويصرفونهم عن رؤية الحقيقة، ويدعون لأنفسهم الألوهية من غير الله ويشرعون للناس الأحكام والقوانين.

فمن حق هذه الشعوب على المسلمين أن يحرروهم من العبودية

(١) الكشاف (١٧٧/٢).

لغير الله وتحطيم كل النظم الباغية التي يتخذ الناس فيها بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله .

وقد تضمنت كتب الرسول عليه الصلاة والسلام إلى ملوك الأرض التعبير عن هذا الهدف النبيل . فهذا كتاب النبي ﷺ إلى هرقل عظيم الروم^(١) : «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، اسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإنّ عليك إثم الأريسيين» ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ (آل عمران : ٦٤) .

وهو نص الكتاب الذي وجهه عليه الصلاة والسلام يحتمل المقوقس إثم القبط (فإن توليت فعليك إثم القبط، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا)^(٢) .

ومن هذا نفهم أن الوقوف في وجه الدعوة إلى الله وسبيله، وصد الناس عنها وتعطيلها، والحيلولة دون حريتها والظعن فيها، والعدوان على دعائها والمستجيبين إليها، مما يبرر للدولة وللمسلمين عامة الجهاد والنضال حتى ينتهي الباغون عن موقفهم ويضمن للدعوة ودعاتها والمستجيبين إليها الحرية والصيانة والانطلاق^(٣) .

(١) الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية (ص ١٦٦) .

(٢) فتوح مصر (٤٢/٢) ابن عبد الحكم . إمتاع الأسماع (٣٠٨/١) للمقريزي .

(٣) الدستور القرآني (٥٧٧/١) محمد عزة دروزة .

فكل ما تفعله سيوف المجاهدين هو إزالة حكم الطواغيت، حتى يستطيع الناس أن يتحرروا من ظلمهم وأن يختاروا الذي يصلحهم ويرضي عقولهم وقلوبهم ويستطيع الدعاة أيضاً أن يمارسوا حريتهم التامة في دعوة الناس وشرح تعاليم الله دون خوف من فتنة أو خشية اعتداء من أحد.

فغاية الجهاد في سبيل الله إذن القضاء على هؤلاء الطواغيت ونظمهم الباطلة الجائرة وأن يستبدل بها نظاماً صالحاً ومنهاجاً معتدلاً فيه خير الإنسانية وسعادتها ونجاتها من الشر والطغيان وعندها ﴿لا تكون فتنة﴾
﴿ويكون الدين كله لله﴾، وتصبح كلمة الله هي العليا.

وقد فهم المجاهدون في سبيل الله هذه الأهداف النبيلة والأغراض السامية للجهاد في سبيل الله فانطلقوا بها من قاعدة الإسلام - الجزيرة العربية - إلى أمم الأرض شرقاً وغرباً لا يريدون توسعاً في الملك ولا زيادة في الثروة ولا استعلاء في الأرض، بل أرادوا أن يحرروا الناس من عبادة الناس إلى عبادة الله ومن جور الحكام إلى عدل الله سبحانه .

انطلقت هذه المعاني السامية على لسان أحد المجاهدين أمثال (ربيعي بن عامر) رسول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه إلى رستم في القادسية، وقد دخل على القائد العظيم في ثياب صفيقة فوق فرس قصير لا يزال راجبها حتى يدوس بها طرف البساط ثم يترجل فيربطها ببعض الوسائد، ويقبل، وعليه سلاحه ودرعه وبيضته فوق رأسه ليرد على من صاح به أن يلقي سلاحه . . (إنما جئكم حين دعوتكموني فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت) ثم يتوكأ على رمحه فوق النمارق يقول مدوياً مجيباً من سأله عن سبب مجيء المسلمين . . ما جاء بكم؟ (الله ابتعثنا لنخرج من

شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل السماء^(١).

وقال الأستاذ علي الطنطاوي^(٢): لقد وصف الإمام العبقري (ابن تيمية) الفتح الإسلامي بكلمة جامعة (لو كان إعجاز بعد القرآن، لقلت إنها من معجزات البيان، هي أن المسلمين الأولين لم ينقلوا الإسلام إلى الأمم، ولكن نقلوا الأمم إلى الإسلام).

إن هذه الكلمة القصيرة هي سر الفتح الإسلامي ومزاياه وعلّة بقائه واستمراره فإنها لم تدر في الأرض رحي حرب، ولم يظأها جيش فاتح إلا ابتغاء أرض يضمها إلى أرضه، أو شعب يحكمه مع شعبه، أو غنائم ينالها أو ثأر يطلبه، أو خيارات يستولي عليها أو كنز يملكه. هذه هي غايات الحروب، وهذه هي مقاصد الفاتحين.

أما المسلمون فقد خرجوا يعلنون كلمة الله وينشرون دينه، ويبذلون في سبيل ذلك دماءهم وأرواحهم ويفارقون من أجله ديارهم وأولادهم، لا يريدون علواً في الأرض ولا استكباراً، ولا يبتغون دنيا ولا يريدون مالا، وكانت غايتهم إصلاح البشر في أخلاقهم ومعايشهم وسعادة الناس في دنياهم وآخرتهم، فكانوا يحملون إليهم مفتاح هذه السعادة وهو القرآن الكريم.

وقد صرح الكمال ابن الهمام بأن المقصود من القتال هو إخلاء العالم من الفساد^(٣).

(١) تاريخ الطبري (٥/٢٢٧٠) طبعة أوروبا.

(٢) عن مجلة الرسالة عدد ٦٢٢ سنة ١٩٤٦ م.

(٣) فتح القدير (٤/٢٧٧).

فهدف الإسلام إذن في غاية السمو، لأن قتال المسلمين للرحمة بمجموع الأمة أن تفسد، فالإسلام هو الرحمة المهداة للعالمين.

وإذا قيل: بأن هذا يأذن بالتدخل المستمر في شؤون الغير، والتدخل اعتداء من الدولة الإسلامية، وقيل إن الدولة الإسلامية غرضها نفسها، وليس لها أن تقيم من نفسها شرطياً عالمياً.

قلنا: إن عصبة الأمم المتحدة بعد أربعة عشر قرناً من إعلان الإسلام لهذا المبدأ السامي أقرت مبدأ التدخل الجماعي للسلامة الجماعية، ولإحقاق الحق وإزهاق الباطل، وهو مشروع أيضاً دفاعاً عن الإنسانية في حالة اضطهاد دولة للأقليات من رعاياها^(١).

وإذا اعتبرنا التكافل البشري سبب العمران، وأن العدل أساسه، فالحيلولة بين المعتدي وبين نقض أساس العمران هي دفاع عن العمران نفسه.

وعلى هذه الصورة دفاع حتى عن المعتدي نفسه بمنعه من شر نفسه. كما صور ذلك رسول الله ﷺ في قوله: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) فقيل: كيف نصره ظالماً؟ فقال: بأن ترده عن الظلم.

فالبشرية كلها كراكبي السفينة إذا أحدهم أراد أن يخرق موضعه كان عليهم أن يمنعوه ويضربوا على يده ويكفوه لئلا يهلك نفسه ويهلكهم معه.

(١) الرسالة الخالدة (ص ١٠٣، ١٠٤) عبد الرحمن عزام، وأصول القانون الدولي (ص ٥٨٣) للدكتور حامد سلطان وعبد الله العريان، والقانون الدولي العام (ص ٢٠٦) للدكتور علي أبو هيف.

والعبرة في الأعمال بالنية، فهي التي تصلح الأعمال أو تفسدها.

ولا شك في حسن نية الدولة الإسلامية القائمة على شرع الله والتي تحكم بما أنزل الله . فالباعث على تدخلها في شئون الغير هو ما يوصي به الضمير وتستلزمه العقيدة من غرض سام يقصد به وجه الله وحده وإحقاق الحق .

هذه هي بواعث القتال في سبيل الله وهذه هي أهدافه النبيلة .

وقد صرح القرآن الكريم بتحريم كل قتال لغير هذه الأهداف .

وأكدت هذا التحريم أحاديث رسول الله ﷺ وتعاليمه ووصاياه للمقاتلين في سبيل الله .

فأي سمو بعد هذا السمو، وأية غاية أنبل من غاية الجهاد في سبيل الله حين لا يخرج المقاتل من بيته لغرض دنيوي أو مصلحة شخصية، أو هوى نفسي فلا يخرجها إلا لتحقيق أغراض الجهاد التي شرعها الله، وأمر بها رسول الله فغاياته إذن إرضاء الله وإرضاء رسوله، والفوز بالجنة ونعيمها .

والمجاهد لا يحرص في جهاده على شيء أكثر من هداية الناس إلى دين الله الحق واتباع سبيل الله، وصراطه المستقيم، فهو لا يريد من جهاده أكثر من تبليغ الناس ما أمر الله به أن يبلغ حتى لا يأتهم على التقصير في أداء هذا الواجب، وحتى يلقي الله وهو يقول: (اللهم قد بلغت اللهم فاشهد) كما قال رسول الله ﷺ ذلك للمسلمين في حجة الوداع (اللهم قد بلغت اللهم اشهد ألا فليبلغ الشاهد الغائب).

وهكذا يتبين لكل مسلم لماذا يجاهد بماله ونفسه، وتحقق في نفسه مبادئ الإسلام الخالدة، وهو يعرض نفسه للموت وماله للتلف في سبيل حماية إخوانه المسلمين ورد الاعتداء عنهم أو في سبيل نشر دين رب العالمين وتحرير شعوب الأرض كافة من ظلم الطواغيت، ومنحهم حرية اختيار الدين الذين يقتنعون به ﴿لا إكراه في الدين﴾ بدون إكراه أحد على اعتناق دين لا يعتقد به. فما على الرسول إلا القيام بما أرسل به للناس، فهو مبشر ونذير وليس بجبار ولا وكيل ولا مسيطر على الناس. وهذا ما شهدت به الآيات القرآنية التي تغني كثرتها عن ذكرها.

وعلى أساس هذه الآيات البينات ترك الناس وقلوبهم لله، يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وهذا ما أدركه رسول الله عليه الصلاة والسلام وخلفاؤه الراشدون من بعده، فمما فهموه بعمق من أسلوب الدعوة أن العقائد لا تأخذ طريقها إلى القلوب بالقهر والتخويف وإنما تستقر وتتمكن بالإقناع والاقتناع وبخطاب العقل والقلب معاً. ولقد جعلت الدعوة إلى سبيل الله المقام الأول للعقل في قبول الإسلام أو رفضه.

فمن القواعد الشرعية الثابتة أن الإسلام الذي يأتي عن طريق الإكراه لا قيمة له عند الله.

وكما أن الله تعالى لا يقبل إيمان المكروه والمقلد، فإنه أيضاً لا يؤخذ المؤمن إذا أكره على كلمة الكفر ما دام قلبه مطمئناً بالإيمان. لأن الإيمان محله القلب، والله يملكه وهو وحده صاحب التصرف فيه كيف يشاء فلا تستطيع أية قوة أن تصل إليه: ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم﴾ (النحل: ١٠٦).

قال الإمام القرطبي^(١): لما سمح الله عز وجل بالكفر به وهو أصل الشريعة عند الإكراه ولم يؤخذ به حمل العلماء عليه فروع الشريعة كلها، فإذا وقع الإكراه عليها لم يؤخذ به ولم يترتب عليه حكم وبه جاء الأثر المشهور عن النبي ﷺ (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه).

وأجمع أهل العلم على أن من أكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل، إنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان ولا يحكم عليه بالكفر. هذا قول مالك والشافعي والكوفيين. ولذا فإن الله تعالى يقول للمجاهدين: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله...﴾ إلى قوله: ﴿حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ ولم يقل قاتلوهم حتى يسلموا كرها إن كانوا لا يسلمون، كل ما هنالك من حكم السيف إنه قد أبطل حكم السيف الذي لا يدين بالحجة ولا بالرأي، وترك الناس لضمائرهم يدينون بما اختاروه من دين الله^(٢).

(١) تفسير القرطبي (١٠/١٨١).

(٢) الفلسفة القرآنية (ص ٨١) عباس محمود العقاد.

مفتريات المستشرقين على الجهاد في سبيل الله وأهدافها

لقد أرفج المرجفون من فقهاء القانون الدولي وكتاب التاريخ في أوروبا وافتروا على الإسلام بما هو منه براء، واتهموه بما ليس فيه، فصوروه بصورة بشعة من ذلك مثلاً:

أولاً: قولهم بأنه يقوم على القهر والغلبة، يريد أن يفرض نفسه على مخلوقات الله من جميع الأجناس والأديان قوة واقتداراً.

ثانياً: إنه يحرم الناس من حرية الرأي والعقيدة.

ثالثاً: إن الإسلام في سبيل نشر دعوته أعلن الحرب ضد جميع الشعوب والأجناس من مختلف الملل والنحل.

رابعاً: إن الحرب هي أصل الصلة بين الإسلام وبين جميع الأمم والدول والسلم لا يكون موقوتاً لضرورة مؤقتة.

خامساً: زعموا أن الإسلام لا يرعى العهد ولا يحفظ الذمة ولا يحترم المواثيق والمعاهدات.

سادساً: ويذهب بعض كتاب القانون الدولي في الغرب إلى إدخال المسلمين في عداد الشعوب الهمجية التي يجب ألا تنال شرف الانتساب إلى الجماعة الدولية.

ومن هؤلاء الكتاب (تيودور رويش) حيث قال في كتابه (الحق إلى الحرب): (ويكفي تمجيدها للكنيسة أنها أقنعت المسيحية بوحدتها وبوجوب تكوين جمعية دولية تقوم في وجه المسلمين الهمج)^(١).

وقد أكد الكتاب الأوروبيون مراراً أن النبي ﷺ سلك مسلكاً جديداً تمام الجدة منذ أن هاجر إلى المدينة ومنذ أن تغيرت ظروف حياته هناك وأنه لم يعد هناك البشير المرسل إلى الناس الذي كان قد أقنعهم بالحجة بصدق الذي أوحى إليه، وإنما ظهر الآن أقرب إلى أن يكون متعصباً مندفعاً يستغل كل ما في سلطته من قوة ومهارة وسياسة في فرض نفسه وفرض آرائه.

وقد صرح بهذه التهمة أكثر من كاتب من المستشرقين منهم (ميور) حيث قال: (إن الدعائم التي سار عليها محمد قد كانت سياسية محضة إذ إنه لم يكن قد أقر حتى ذلك الحين طريقة إكراه الناس على اعتناق الإسلام أو معاقبتهم على رفضه).

ويقصد بذلك الحين (مذبحة بني قريظة) لأنه ساق هذا الحديث بعدها وتعليقاً عليها.

وقال (واشنجتون أرفنج): (بدأت فترة هامة في حياة محمد فقد ظل حتى الآن يبشر بالإسلام معتمداً على الحجة والإقناع، صابراً على ما يلقاه من أذى المشركين، حتى نزل كثير من الآيات التي تحث المسلمين على الجهاد وتبشر من استشهد بالجنة. . وهكذا انتقل الإسلام

(١) الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام (ص ٢٢٧) علي علي منصور.

من دور الحجّة والإقناع إلى دور الجهاد والقوة ولم يكن ذلك غريباً على العرب الذين عرفوا بالشجاعة والإقدام وحب القتال^(١).

وقال أيضاً: (إن محمداً بعد الهجرة إلى المدينة قد وصل إلى نقطة تحول كبرى وانحرف عن تعاليم سيدنا عيسى وهو عدم الإكراه واجتئاب وسائل القوة للوصول إلى قلوب الكفار).

وتحدث (Wells ويلس) تحت عنوان: (غدر محمد) قائلاً: (كان دين الله الوحيد قد بدأ بتعدد هجوم وغارات نحو قوافل مكة)^(٢).

وصرح هاملتون جب^(٣): إن الحروب الإسلامية عدوانية توسعية.

وهذا قليل من كثير مما وسم به كتاب الغرب المتعصبون الجهاد الإسلامي.

وقبل الشروع في الرد على مطاعن المستشرقين وحملاهم المسعورة على الجهاد في سبيل الله، أود أن أشير إلى أهداف هذه الحملات إشارة سريعة، وأبين لماذا اختصوا الجهاد بالذات بكل هذه المطاعن والترهات؟ وهل أثمرت حملاتهم أم لا؟ وكيف كان ذلك؟

والإجابة عن كل هذه الأسئلة تطول، ولكن نذكر من هذه الأهداف الاستشراقية الماكرة على سبيل المثال لا الحصر.

من ذلك أنهم حاولوا في خبث أن يخمدوا روح الجهاد ويهونوا من شأنه بل يحقروه ويهجنوه وينفروا منه حتى يصلوا في النهاية إلى أنه لا

(١) حياة محمد (ص ١٤٠، ١٤٢).

(٢) Wells H.G. The outline of the history P.100.

(٣) دراسات في حضارة الإسلام (ص ٥٠) وما بعدها.

ضرورة له مطلقاً لا اليوم ولا غداً. فالجهاد أداة (مخيفة) و (همجية) على حد تعبيرهم. بل لا حاجة إلى ذكر اسم الجهاد على الألسنة لأنه ضرب من التعصب والقسوة التي لا تليق بخلق الرجل المتمدن. وحتى يصل المسلمون في النهاية إلى إعلان براءتهم التامة من الجهاد والدعوة إليه. وإمعاناً في المكر والدهاء وإخفاء لحروبهم الدينية وتعصبهم ضد المسلمين ألقوا في خلد المسلمين أن الحرب بين الاستعمار وبينهم ليست حرب عقيدة أبداً تقتضي الجهاد، وإنما هي فقط حرب أسواق وخامات ومراكز وقواعد، ومن ثم فلا داعي للجهاد.

وراحوا يرمون المسلمين بالتعصب والهمجية والقسوة وإبعاداً لهذه الشبهة عنهم، إذ إن كل إناء بما فيه ينضح.

وأرادوا أن ييثوا في نفوس ذراري المسلمين الذين لم يبق لهم من الإسلام إلا العنوان أن آباءهم وأجدادهم أسلموا مكرهين خوفاً من سيوف المسلمين وما دام لا خوف منها اليوم فلا حاجة إلى الإسلام بل عليهم بدين عيسى وموسى، دين السلام والرحمة والتسامح..

وهذا قليل من كثير مما يهدف إليه أعداء الإسلام وخصومه. وصدق الله العلي العظيم ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ (البقرة: ٢١٧).

وقوله: ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾ (البقرة: ١٢٠).

ولكن اليهود والنصارى لم يستطيعوا قديماً تحقيق أهدافهم لأن سيوف المجاهدين كانت لهم بالمرصاد وهم اليوم وقد حققوا الكثير من أهدافهم في غيبة المجاهدين في سبيل الله - لا يخافون شيئاً أكثر من

انبعث روح الجهاد في نفوس المسلمين مرة أخرى، تلك الروح التي لم يتمكنوا من الوقوف أمامها ولو مرة واحدة في ميدان .

ومن حق البحث علي أن أشير إلى بعض النصوص الواردة في التوراة والإنجيل وموقفهما من القتال فالحرب في الديانة اليهودية حرب إبادة وتدمير وإفناء لكل ما يتصل بالعدو .

فقد جاء في الإصحاح الثالث عشر من تثنية الاشتراع (١٥ ، ١٦) :

(فضرباً تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف وتحرقها بكل ما فيها من بهائمها بحد السيف، تجمع كل أمتعتها إلى وسط ساحتها وتحرق بالنار المدينة وكل أمتعتها كاملة للرب إلهك فتكون تلا إلى الأبد لا تبني بعد) .

وجاء في الإصحاح العشرين :

(إذا خرجت للحرب على عدوك ورأيت خيلاً ومراكب قوم أكثر منك فلا تخف منهم لأن معك الرب إلهك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك، وإن لم تسالمك وعملت معك حرباً فحاصرها وإن دفعها الرب إلهك إلى يديك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف . وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك . هكذا تفعل في جميع المدن البعيدة جداً . أما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبقي منها نسمة ما) .

وإذا قال قائل إنما كان ذلك في العصور القديمة فإنني أقول فما بال مذابح اليهود في فلسطين هذه الأيام . وإذا قال قائل تلك الصهيونية وليست اليهودية . . . فأقول له ما قاله «موشي ديان» بعد حزب الأيام

السته سنة ١٩٦٧ (الآن فتحت الطريق إلى خير) !! .

وماذا يقول المسيحيون الذين يرمون الإسلام بالأباطيل في هذه النصوص التي وردت في إنجيلهم على لسان السيد المسيح (لا تظنوا أنني جئت لألقي سلاماً بل سيفاً فأني جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه والإبنة ضد أمها والكنة ضد حماتها . وأعداء الإنسان أهل بيته . من أحب أباً أو أمماً أكثر مني فلا يستحقني ، ومن لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يستحقني ، ومن وجد حياته يضيعها ، ومن أضاع حياته من أجلي يجدها) . . (١) .

وقال أيضاً : (جئت لألقي ناراً على الأرض . فماذا أريد لو اضطرمت . ولي صبغة أصطبغها حتى تكمل أتظنون أنني جئت لأعطي سلاماً . كلا أقول لكم بل انقساماً) (٢) .

ومحاولات اليهودية والمسيحية للقضاء على الإسلام منذ بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام معروفة . والحروب الصليبية طيلة ثلاثة قرون تشهد على تعصبهم وعدواتهم الشديدة للمسلمين . . . ونقل هنا بعض أقوال كتاب الغرب المسيحيين المنصفين كشاهد على ما أقول .

قال (جيبون) : (إن الحملة الصليبية الأولى تركت في التاريخ أقسى ما عرف من التعصب لا ضد المسلمين فحسب بل ضد مسيحيي الشرق . فإن الصليبيين خدام الرب يوم أن استولوا على بيت المقدس في ١٥/٧/١٠٩٩ رأوا أن يكرموا الرب بذبح سبعين ألف مسلم لم

(١) الإصحاح العاشر من إنجيل متى العهد الجديد ٢٤ - ٣٩ .

(٢) الإصحاح الثاني عشر من إنجيل لوقا (العهد الجديد) ٤٩ - ٥٠ .

يرحموا الشيوخ ولا الأطفال فقد حطموا رؤوس الصبيان على الجدران :
وألقوا الأطفال الرضع من أسوار المعقل والحصون ، وشوي الرجل على
النار ، وبقر بطون الحوامل ليروا هل ابتلع أهلها الذهب واستمرت هذه
المذبحة ثلاثة أيام ولم تنته إلا لما أعياهم الإجهاد من القتل وقد شوهد
القاصد الرسولي مندوب البابا وهو يشارك في هذا الانتصار (١) . .

ويقول (لودفيج) : (كيف ساغ لهؤلاء بعد هذه المذبحة البشعة أن
يضرعوا بجوار قبر المسيح طالبين البركة والغفران) (٢) . . .

وقال (لوبون) : (وقد لقي المسلمون أشد العذاب وأنكر الظلم من
محاكم التفتيش التي كانت تأمر بتعميد العرب كرهاً ، ثم بحرق كثير من
المعمدين ، ونصح كاردينال طليطلة التقي الذي كان رئيساً لمحاكم
التفتيش بقطع رؤوس جميع من لم يتنصر من العرب رجالاً ونساء وشيوخاً
وولداناً) . . (٣) .

وأراد شارلمان (أن يستأصل شأفة الإسلام تأييداً لهيبة الكنيسة وأن
يسحق دولة الأندلس المستقلة احتفاظاً بكبرياء الفتح والظفر) (٤) .

وقد عقد مسلمو غرناطة معاهدة التسليم والأمان مع الملكين
(فردناند وايزابيللا) اللذين نكثا بالعهود والمواثيق ، فكبد هذا المسلمين
فقدان ما يقارب ثلاثة ملايين من بني جلدتهم (٥) وفي سنة ١٤٥٤ أصدر

(١) الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام - ٢٤٢ - وروح الإسلام سيد أمير علي ٨٦ والرسالة
الخالدة للأستاذ عزام / ٢٤٨ .

(٢) Draper History of the Intellectual Development of Eurog Vol. II P. 77

(٣) حضارة العرب ٢ / ٣٣٥ والإسلام ومستر سكوت ٧٠ . .

(٤) تاريخ العرب في إسبانيا ٧٦ الأستاذ عبد الله عنان .

(٥) العلاقات السياسية الدولية للعمري / ١٢١ .

«البابا» مرسوماً منح فيه هنري البحار البرتغالي الحق في أن يغزو ويحتل ويخضع جميع الشعوب والأقاليم التي يسودها حكم أعداء المسيح ، وأن يحتل ويحوز البحار اللازمة للقضاء على انتشار «طاعون الإسلام» . والقضاء على أعداء الله وأعداء المسيح من المسلمين الكفرة (١) . . .

وقال (هوكر خروتوس) الهولندي وهو من مؤسسي الحقوق الدولية الحديثة في مقدمة كتابه في (حقوق الحرب والسلام) ما نصه : (إن المسيحيين في عصرنا يُقدمون في حروبهم على أعمال تستحي منها الوحوش أنفسها) (٢) .

وأصدر البابا نيقولا الرابع والبابا أريانوس السادس هذه الفتوى الدينية التاريخية (إن الغدر إثم ولكن الوفاء مع المسلمين أكثر إثماً) (٣) . .

أبعد هذا يحق للمبشرين والمستشرقين وأعداء المسلمين أن يتهموا الإسلام بالهمجية والمجاهدين بسفك الدماء ؟ وأن روح المسيحية السمحة تُنكر القتال على إطلاقه ومنذ فجر المسيحية إلى يومنا هذا خضبت أقطار الأرض جميعاً بالدماء باسم السيد المسيح . . وقد ظلت الجيوش باسم الصليب تنحدر من أوروبا خلال مئات السنين قاصدة أقطار الشرق الإسلامية تقاتل وتحارب وتريق الدماء . وفي كل مرة كان البابوات خلفاء المسيح يباركون هذه الجيوش الزاحفة للاستيلاء على بيت المقدس وعلى الأماكن النصرانية المقدسة . أفكان هؤلاء البابوات جميعاً

(١) آثار الحرب في الفقه الإسلامي - ٥٢ .

(٢) أحكام أهل الذمة لابن القيم ٧٦/١ من تقديم الدكتور محمد حميد الله .

(٣) . P. 216 . (Ovigre du droit des gens (engd .)

هرطقة وكانت مسيحتهم زائفة ؟ أم كانوا أدياء جهالاً لا يعرفون أن المسيحية تنكر القتال على إطلاقه ؟ أم يقولون تلك كانت العصور الوسطى عصور الظلام فلا يحتج على المسيحية بها ؟ إن يكن ذلك بعض ما يقولون ، فإن هذا القرن العشرين الذي نعيش فيه والذي يسمونه عصر الحضارة الإنسانية العليا ، قد رأى ما رأت العصور الوسطى المظلمة فقد وقف اللورد اللنبي ممثل الحلفاء ، إنجلترا وفرنسا وإيطاليا ورومانيا وأمريكا يقول في بيت المقدس ١٩١٨ حين استيلائه عليه في أخريات الحرب العالمية الأولى : (اليوم انتهت الحروب الصليبية) (١) . .

وقال الدكتور (بيترس سميث) : مثل هذا القول في كتابه عن سيرة المسيح : (إن هذا الاستيلاء على بيت المقدس كان حرباً صليبية شاملة أدركت المسيحية فيها غايتها) (٢) .

وحسي في الرد على مطاعن المستشرقين التي ذكرتها والتي لم يتسع لها المقام ما قدمته في هذا الفصل من شرح طبيعة الإسلام وأهداف الجهاد معتمداً على كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ومعتمداً على الوقائع التاريخية وشهادات المنصفين من المستشرقين أنفسهم والتي ذكرت طرفاً منها . وأضيف إليها هذه الشهادات العادلة :

ولعل من نوادر هؤلاء الغربيين المنصفين الذين جمعوا بين حسن النية وحسن الفهم في مسألة الجهاد (توماس كارليل) الحكيم الذي يسميه

(١) حياة محمد / ٢٥٣ محمد حسين هيكل .

(٢) المرجع السابق / ٥٧٨ .

نقاد الغرب نبي الكتاب ، فهو ينتهي بزعم الزاعمين أن الإسلام قد انتشر بالسيف إلى الغاية من السخف والعتاثة ولا يرتضي أن يعتبر هذا من أكاذيب التاريخ ، فإنه أضعف من أن يحسب من الأكاذيب التي تحتاج إلى تصحيح ، وهو أظهر بطلاناً من أن يبطل بالمناقشة ، فمن يقول إن رجلاً واحداً حمل سيفه وخرج إلى جميع مخالفيه ليعث فيهم الخوف من سيفه وحده ويسوقهم كرهاً إلى اعتقاد ما ينكرون ، فيعتقدون ويثبتون عليه ثم يحملون السيف معه لتخويف الآخرين^(١) . .

ويقول (جوستاف لوبون) : إن القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن فقد ترك العرب المغلوبين أحراراً في أديانهم ، فإذا ما حدث واعتنق بعض الأقوام النصرانية الإسلام واتخذوا العربية لغة لهم فذلك لما رأوا من عدل العرب الغالبين ما لم يروا مثله من سادتهم السابقين .
ويقول : والعبارات الآتية التي اقتطفها من كتب الكثيرين من علماء الغرب تثبت أن رأينا في هذه المسألة ليس خاصاً بنا ، قال روبر طمسون في كتابه (تاريخ شارلكن) : (إن المسلمين وحدهم الذين جمعوا الغيرة الدينية وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى وإنهم مع امتشاقهم الحسام نشراً لدينهم ، تركوا من لم يرغبوا فيه أحراراً في التمسك بتعاليمه) .

وقال (ميشود) في كتابه (تاريخ الحروب الصليبية) : (إن القرآن الذي أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى ، وقد أعفى البطارقة والرهبان وخدمهم من الضرائب وحرّم قتل الرهبان لعكوفهم على

(١) ما يقال عن الإسلام ١٦٨ للمرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد .

العبادات ، ولم يمس عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس بينما ذبح الصليبيون المسلمين بلا رحمة حين دخلوها وقال الراهب (ميشو) في كتاب (رحلة دينية في الشرق) : ومن المؤسف أن تقتبس الشعوب النصرانية من المسلمين التسامح الذي هو آية الإحسان بين الأمم واحترام عقائد الآخرين وعدم فرض أي معتقد عليهم بالقوة وقال أيضاً : قد أثبت التاريخ أن الأديان لا تفرض بالقوة ، فلما قهر النصارى عرب الأندلس ، فضل هؤلاء القتل والطرده عن آخرهم على ترك الإسلام . . ولم ينتشر القرآن بالسيف إذن ، بل انتشر بالدعوة وحدها ، وبالدعوة وحدها اعتنقت الشعوب التي قهرت العرب مؤخراً كالترك والمغول ، وبلغ القرآن من الانتشار في الهند التي ما كان العرب فيها غير عابري سبيل ، ما زاد معه عدد المسلمين على خمسين مليون نفس فيها ، ويزيد عدد مسلمي الهند يوماً فيوماً ، مع أن الإنجليز الذين هم سادة الهند في الوقت الحاضر ، يجهزون البعثات التبشيرية ويرسلونها تباعاً إلى الهند لتنصير مسلميها على غير جدوى ولم يكن القرآن أقل انتشاراً في الصين التي لم يفتح العرب أي جزء منها قط .

وبهذا نفس السبب في عدم تنصر أي أمة بعد أن رضيت بالإسلام ديناً ، سواء كانت هذه الأمة غالبية أم مغلوبة (١) .

وقال (ديسون) (٢) الكاتب الفرنسي من الخطأ أن يصدق المرء ما يروج له البعض من أن السيف كان المبشر الأول في تقدم الإسلام وتبسطه ، ذلك أن السبب الأول في انتشار الإسلام يعود إلى هذه الأخوة

(١) حضارة العرب / ١٢٥ - ١٢٨ .

(٢) المحمديات / ٢١ وما بعدها .

الدينية الفريدة وإلى هذه الحياة الاجتماعية التي دعا إليها ومكن لها ، وإلى الإيمان القوي الذي راح يدفع المسلم غازياً فاتحاً من أقصى الأرض إلى أقصاها ، ثم هذه الحياة الشريفة الطاهرة التي راح يحيها محمد وخلفاؤه من بعده والتي بلغت من العفة والتضحية حداً جعل الإسلام قوة عظيمة لا تغلب ، وما زال الإسلام يتقدم غازياً فاتحاً في كل موطن يحتاج إلى الفتح والغزو وكلما تقدم تنهار أمامه الديانات القومية وهو في تقدمه هذا العجيب لا يرتد عن أرض راح يفتحها ويغزوها بعقائده وتقاليده وبساطة تعاليمه . . وهذا أمر يعرفه المبشرون الذين حاولوا غير مرة أن يحملوا بعض القبائل التي تقبلت الإسلام على قبول المسيحية ، فكانوا دائماً يرتدون فشلين منكسرين ، ومما يجب أن يذكر أن كثيراً من القبائل التي راحت تتقبل المسيحية أو لا تتركها وتتقبل الإسلام ديناً حين تتصل بالمسلمين ، ولا يذكر التاريخ المعاصر أن قبيلة مسلمة أبدلت دينها واعتنقت ديناً غيره) .

وقد وصف الفيلسوف الروسي (تولستوي) ^(١) المسلمين بالتساهل العظيم مع أصحاب الديانات الأخرى ودافعت الدكتور (لورافيشيا فاغلييري) دفاعاً علمياً نزيهاً مدعماً بالأدلة المنطقية السليمة عن الإسلام ونبي الإسلام : (لقد زعموا أنه كان ديناً فرض بالسيف ، ولقد اتهموه باللاتسامح ، بل اتهموا محمداً نفسه بالكذب والقسوة وبالشبق ، وقد حاولوا أن يحطموا عمله الرائع في الإصلاح الاجتماعي والديني ، وحاولوا إظهار إخلاص صحابته وتفانيهم بمظهر المصلحة الشخصية ، وصوروهم كأنهم أناس لا تعمر نفوسهم غير الرغبة في الثروة والنجاح الديني . . .

(١) حكم النبي محمد / ٨ .

وتقول : إن أحداً لا يستطيع اليوم أن يزعم أن سيف الفاتح هو الذي يمهد السبيل أمام الإسلام على العكس - ففي الأصقاع التي كانت في يوم من الأيام دولاً إسلامية تولت مقاليد السلطة حكومات جديدة تنسب إلى أديان أخرى ، وعملت في أوساط المسلمين طوال فترات عديدة منظمات تبشيرية قوية ، ومع ذلك فإن هذه الحكومات وتلك المنظمات لم توفق إلى زحزحة الإسلام وإقصائه عن حياة الشعوب الإسلامية (١) .

ونكتفي بهذا القدر من شهادات المنصفين من المستشرقين . ونمضي لنرى أثر الحملة الاستشراقية الخبيثة على علماء المسلمين وكيف ردوا عليها ، ودافعوا عن الجهاد . وأعني هنا بردود العلماء الذين هزموا روحياً وعقلياً تحت ضغط الواقع الحاضر للمسلمين وأمام حملات المستشرقين - والذين حاولوا أن يدفعوا عن دينهم تلك الشبهات دون أن يتدبروا خطورة ما يكتبون فقد راح هؤلاء العلماء يتلمسون الأعذار للجهاد ، ويؤولون النصوص القرآنية المحكمة ويزيفون الوقائع التاريخية ليقولوا لهؤلاء المستشرقين إننا براء من الجهاد والسيف وقد فرض الجهاد لظروف طارئة مؤقتة وقد زالت بزوال السبب وليس للجهاد عندنا من هدف سوى (الدفاع عن النفس والأرض التي نعيش عليها) .

وصاغوا آراءهم في عبارات تبعث على الإشفاق والضحك من تفكيرهم وما وصلوا إليه من هزال لا يرضاه الله ولا طبيعة هذا الدين القوي المتين . . وظنوا أنهم بذلك قد أحسنوا صنعاً للإسلام ونبي

(١) دفاع عن الإسلام / ٢٨ - ٤٠ .

الإسلام إذ أنهم ردوا عنه تهم المستشرقين ، من رميه بالتعصب وعدم التسامح واستعمال القوة وأظهروا دينهم الإسلامي بأنه دين السلام بل إن شئت قل دين الاستسلام .

ولا يتسع بحثي هنا لاستعراض آراء هؤلاء ولكنني سأذكر شواهد منهم ومن أفكارهم :

(لم يقف الرسول موقف المهاجم ، ولكنه وقف موقف المدافع فقط ، حتى جاءت قريش فهاجمته ، وعند ذلك قام ليدافع عن نفسه وقومه ودعوته . وهذا هو الجهاد المشروع في الدين الإسلامي) .

ومن ذلك يتبين أن القتال كان تديباً وقتياً لأسباب خاصة محدودة ، وأن المسلمين اضطروا إليه اضطراراً ، وحملوه تحميلاً ، ولم يدخل محمد في حرب إلا مضطراً^(١) .

(ومسألة جهاد العدو بالسيف ليس فيها إجماع من المسلمين إلا في حالة اعتداء إذ يتعين الجهاد عندما يلتقي الجيشان أو ينزل الكفار ببلدنا ، أو يستنفر الإمام قوماً فيلزمهم النفير)^(٢) .

(ونعلم من هذا أن النبي إنما اضطر إلى القتال اضطراراً ودفاعاً عن النفس ، ولم يكن فيه ميل إلى سفك الدماء كما يدعي بعض المارقين)^(٣) .

(وبالجملة فالحرب محدودة بحدود الدفاع المشروع لا تستقدم عنه

(١) روح الإسلام - محمد عطية الأبراشي ٧٢ ، ٧٣ .

(٢) قصة الأضطهاد : توفيق الطويل / ١٦٤ .

(٣) مورد الصفا في سيرة المصطفى - أحمد الحملاوي ٥٦ .

خطوة ولا تتأخر خطوة^(١) . (ونظرة واحدة إلى أوامر الله تكفي لتثبت أنه لم يقصد بالقتال إلا رد العدوان)^(٢) . وأدهى من كل هذا وأمر هذه العبارة (ومن ذلك يتبين أن القتال في الإسلام كان تدبيراً وقتياً لأسباب خاصة محدودة وإن شئت قل . إنه كان عملاً سياسياً لا أصلاً من أصول الدين في بيان العلاقات بين الإسلام وغيره وأن المسلمين اضطروا إليه اضطراراً وحملوه تحملاً)^(٣) .

والأستاذ محمد عزة دروزة رغم غزارة علمه وطول دراسته لكتاب الله وسنة رسوله شغل كغيره من الكتاب المحدثين الواقعيين تحت ضغط الواقع البائس للمسلمين ، وأمام القوة الظاهرة لمعسكرات المشركين والملحدين وأهل الكتاب في هذا الزمان يتلمس شهادة لهذا الدين بأنه دين السلم والسلام ، الذي لا يعنيه إلا أن يعيش في داخل حدوده الجغرافية المعروفة ، فمتى أمكنت المهادنة والمسالمة فهو متهاك عليها لا يعدل بها هدفاً آخر حتى ولو كانت مع عبدة الأوثان من المشركين وحتى ولو تكرر نقضهم لعهودهم ورغبوا في تجديدها فعلى المسلمين أن يسارعوا في انتهاز تلك الفرصة ، وجوز عقد المعاهدات بجزية وبدون جزية) . . .^(٤) .

وما أحرانا أن نتمثل بقول الشاعر :

إن كنت لا تدري فتلك بلية أو كنت تدري فالبلية أعظم

(١) د . محمد عبد الله دراز - مجلة الأزهر المجلد الرابع والعشرون سنة ١٩٥٢ .

(٢) نظم الحرب والسلام - جمال الدين عياد ص ٩ .

(٣) تاريخ الفتح الإسلامي محمد فخر الدين المدرس بدار العلوم / ١٢٩ .

(٤) الدستور القرآني في شؤون الحياة وانظر التفسير الحديث للمؤلف تفسير سورة «براءة» .

وواضح من الفقرات التي اقتطفتها من أقوال علمائنا الأفاضل وهي قطر من بحر أن أصحاب الفضيلة لا يُلقون بالأل إلى حق الإسلام المطلق في تحرير البشرية من العبودية للعباد، وردها إلى الله وحده، حيثما كان ذلك ممكناً ، بغض النظر عما إذا كان هناك اعتداء على الإسلام وأهله داخل حدودهم الجغرافية أم لم يكن . . . فهم يستبعدون هذا المبدأ ابتداء وهو المبدأ الذي يقوم عليه الجهاد في الإسلام وبدونه يفقد دين الله حقه في أن يُزيل العقبات المادية من طريق الدعوة ويفقد بذلك جديته وواقعيته في مواجهة الواقع البشري بوسائل مكافئة له ويصبح عليه أن يواجه القوى المادية بالدعوة العقيدية والخطب المنبرية ، وهو هزال لا يرضاه الله لدينه في هذه الأرض .

وحقيقة أن الدفاع عن «دار الإسلام» وحماية العقيدة من أهداف الجهاد ولكنها ليست الهدف النهائي ، وإنما حمايتها هي الوسيلة لقيام مملكة الله في الأرض ، ثم لاتخاذها قاعدة انطلاق إلى الأرض كلها وإلى النوع الإنساني عامة . . . فالإنسان هو موضوع هذا الدين والأرض هي مجاله الكبير . . .

يجب ألا يخذعنا المستشرقون وألا يفزعنا الواقع البائس وضغطه وثقله فنروح نبحت للجهاد عن مبررات أدبية خارجة عن طبيعة هذا الدين .

إن من حق الإسلام أن يتحرك ابتداء . لأنه ليس نحلة قوم والمسلمون ليسوا أمة بالمعنى الذي يستعمله العصر الحديث ولكنه منهج الله ونظام عالمي عام من حقه أن يستعمل السيف ليحطم الحواجز والأنظمة والأوضاع التي تحول دون (حرية الإنسان) في الاختيار وحسبه

أنه لا يهاجم الأفراد والشعوب ليكرههم على اعتناق عقيدته . وإنما يهاجم الطواغيت وأنظمتهم ليحرر شعوبهم من ظلمهم وفسادهم واستعبادهم .

إن الهجوم الاستشراقي العنيف الذي صور حركة الجهاد حركة قهر بالسيف للإكراه على الإسلام يعرف جيداً أن هذه ليست هي الحقيقة ، لكنهم أرادوا أن يشوهوا الجهاد الإسلامي ، ومن ثم يقوم المنافحون عن سمعة الإسلام ، بنفي هذا الاتهام فيلجأون إلى المبررات الدفاعية ، وبذلك يحكمون بنسخ الجهاد وأهدافه من الشريعة الإسلامية ، فيحقق المستشرقون هدفهم ، وها هي طائفة القاديانية والمعتزلة في الهند وحزب تركيا الفتاة في تركيا يعلنون أن الجهاد قد أسقطت فريضته من الفرائض الإسلامية (١) . .

ويقول الدكتور/ وهبة الزحيلي (٢) : «يخاف الغربيون لا سيما الإنجليز من ظهور فكرة الجهاد في أوساط المسلمين حتى لا تتوحد كلمتهم فيقفوا أمام عدوانهم ولذلك يحاولون الترويج لفكرة نسخ الجهاد . ولقد قابلت المستشرق الإنجليزي «آندرسن» في مساء يوم الجمعة ٣ حزيران ١٩٦٠ فسألته عن رأيه في هذا الموضوع فكانت نصيحته لي أن أقول : (إن الجهاد اليوم ليس بغرض بناء على مثل قاعدة (تتغير الأحكام بتغير الأزمان) إذ أن الجهاد في رأيه لا يتفق مع الأوضاع الدولية الحديثة لارتباط المسلمين بالمنظمات الدولية . ولأن الجهاد هو الوسيلة لحمل الناس على الإسلام وأوضاع الحرية ، ورفي العقول لا

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٧/ ١٩٠ والعقيدة والشريعة - لجولد تسهير ٢٦١ .

(٢) آثار الحرب في الفقه الإسلامي ٩٥ .

تقبل فكرة تفرض بالقوة) . أما التقسيمات الحديثة للحروب إلى دفاعية وهجومية وتطبيق ذلك على الجهاد الإسلامي ، فهذا سوء فهم لمعنى «الجهاد» لأن الجهاد غير الحرب كما سبق أن ذكرت ، ولا صلة للجهاد في سبيل الله بالحروب الحديثة ، حروب المطاعم البشرية التي أملت مثل هذا التقسيم ولا يصح أن يوصف الجهاد بأنه هجومي لأن الهجوم يعني الظلم ، والجهاد عدل في الواقع ، وقد يكون الجهاد مطلوباً إذا استبد الحكام بمصالح رعاياهم ، وهنا يظهر المسلمون بأنهم دعاة إصلاح عام وجند رسالة يبلغونها للناس على بينة وهدى رغم معاندة بعض الظالمين . . .

وقد يلتزم المسلمون جانب الدفاع فقط دون التقيد بحدود جغرافية مصطنعة ، فالإسلام لا تحده حدود . . .

وإذن فهذا التقسيم لا ينطبق :

أولاً : على فكرة الجهاد في الإسلام . وإنما نطاق الإسلام واسع والجهاد حينئذ يستلزم حماية الدعاة إليه .

ثانياً : لأن فقهاء القانون الدولي لا يرون أهمية لهذا التقسيم ، إذ تبرهن الشواهد التاريخية في أيامنا هذه أن الساسة الراغبين في الحرب كثيراً ما يتحرشون بخصومهم ، ويدفعونهم إلى الاعتداء بنكاية ، حتى يضطروهم إلى شهر الحرب ليظهروا للورى أنهم ليسوا إلا مدافعين عن أنفسهم (١) .

وختاماً أقول إذا لم يكن بد من أن نسمى حركة الجهاد الإسلامية

(١) آثار الحرب في الفقه الإسلامي ١٢٣ .

حركة (دفاعية) فلا بد من أن أغير مفهوم (الدفاع) واعتبره دفاعاً عن الإنسان ذاته ضد جميع القيود التي تقيد حريته وتعوق تحرره . . وبهذا التوسع في مفهوم كلمة (دفاع) نستطيع أن نواجه حقيقة بواعث الانطلاق الإسلامي في الأرض بالجهاد ، ونواجه طبيعة الإسلام ذاتها ، وهي الإعلان العام لتحرير الإنسان من العبودية للعباد ، وتقرير حمايته من الفتنة والأذى في كل مكان .

أما محاولة إيجاد مبررات دفاعية للجهاد الإسلامي بالمعنى الضيق للمفهوم العصري للحرب الدفاعية ، ومحاولة البحث عن أسانيد لإثبات أو وقائع الجهاد الإسلامي كانت لمجرد صد العدوان عن (الوطن الإسلامي) وهو ما عرف بجزيرة العرب - فهي محاولة تنم عن قلة فهم وإدراك لطبيعة هذا الدين ، ولطبيعة الرسالة الخاتمة ، كما أنها تشي بالهزيمة أمام ضغط الواقع الحاضر وأمام الهجوم الاستشراقي الماكر على الجهاد الإسلامي .

الفصل الثالث:

عناصر النصر ومقوماته

بعد أن بين الله سبحانه الأهداف التي يقاتل المسلم من أجلها ،
وضح أن هناك سنناً ثابتة في النصر والهزيمة من سار عليها ظفر وإن كان
ملحداً أو وثنياً ومن تنكبها خسر وإن كان صديقاً نبياً . . ﴿ قد خلت من
قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين هذا
بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾ (١) .

دعا الله عباده إلى السير في الأرض والتأمل فيما حل بالأمة قبلهم
ليحصل لهم العلم الصحيح المبني على المشاهدة والاختبار ،
ويسترشدوا بذلك الصراع الذي وقع بين الحق والباطل في الأمم
السالفة ، حيث انتصر أهل الحق على أهل الباطل بتمسكهم بسنن الله
واتباع ما أمر به من الاستعداد للحرب وإعداد العدة لقتال العدو . .
إلخ . وجرى ذلك على سنن مستقيمة وأسباب مطردة لا تغيير فيها ولا
تبديل (٢) .

﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً ﴾ (٣) ﴿ ولو

(١) آل عمران / ١٣٧ - ١٣٨ .

(٢) تفسير المراغي ٧٤/٤ بتصرف وانظر تفسير المنار ١٣٩/٤ .

(٣) فاطر / ٤٣ .

قاتلكم الذين كفروا لولوا الأذبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً ، سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴿ (١) .

فقد جعل الله تعالى نصر المؤمنين الذين يجاهدون في سبيله ظاهرة كونية وسنة من سنن الوجود ثابتة لا تتغير ولا تتبدل . ﴿ وتلك الأيام نداؤها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾ ﴿ (٢) .

فالدولة والنصر دائماً لمن عرف أسباب الفوز وعمل بها ورعاها حق رعايتها .

قال القرطبي : الحرب ، تكون مرة للمؤمنين لينصر الله عز وجل دينهم ، ومرة للكافرين إذا عصى المؤمنون لبيئتهم الله ويمحص ذنوبهم ، فأما إذا لم يعصوا فإن حزب الله هم الغالبون .

وقد وعد الله بنصر الحق على الباطل مهما كانت له من صولة ، وجاء هذا الوعد على ألسنة رسله جميعاً : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين أنهم لهم المنصورون وأن جندنا لهم الغالبون ﴾ ﴿ (٣) .

﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ﴾ ﴿ (٤) . ﴿ يأياها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ ﴿ (٥) . ﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾ ﴿ (٦) .

(١) الفتح / ٢٣ وانظر الإسراء / ٧٧ والنساء / ٢٦ وغافر / ٨٥ والأحزاب / ٣٨ والأنفال / ٣٨ .

(٢) آل عمران / ١٤٠ - ١٤١ .

(٣) الصافات / ١٧١ ، ١٧٢ .

(٤) الحج / ٤٠ .

(٥) محمد / ٧ .

(٦) الروم / ٤٧ .

وهذا العون الذي يستمده المؤمنون من ربهم ليس بالأمانى ولا بالخيال ولكنه ظاهرة من ظواهر الكون وسنة من سنن الوجود، فالمؤمنون في رعاية الله وكنفه ، يحفظهم في الدنيا ويكرمهم في الآخرة .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ، وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴾ (١) .

فالله ولي الذين آمنوا وهو ناصرهم ومؤيدهم في الدنيا بشرط السير على منهجه واتباع سننه . ولكن كيف ينصر المؤمنون الله سبحانه حتى ينالوا ما شرط لهم من النصر والتشيت . يتم ذلك بأن تتجرد نفوس المؤمنين لله سبحانه وأن تحب الله ورسوله أكثر مما سواهما ، وأن تنصر منهج الله وشريعته حتى تكون مهيمنة على ضمائر الناس وعقولهم وأخلاقهم وسلوكهم وحياتهم كلها .

قال الزمخشري (٢) : «أي إن تنصروا دين الله ورسوله ينصركم على عدوكم ويثبت أقدامكم في مواطن الحرب» .

ويقول الشيخ محمود شلتوت (٣) : أرشدت الآيات إلى أن الله إنما ينصر بمقتضى سنته في خلقه من ينصره ويتقيه بإقامة العدل ، وإقرار الأمن ، وبث الطمأنينة ، ولا يتخذ الحرب أداة للتخريب والإفساد ،

(١) فصلت / ٣١- ٣٢ .

(٢) الكشف / ٣ / ٥٣٢ .

(٣) تفسير القرآن الكريم ٢٤٤ .

وإنما يتخذها وسيلة إلى عمارة الكون ، وإنفاذ أمر الله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» .

وقال أيضاً^(١) : في القرآن الكريم آيات كثيرة تحمل عِدَّة الله لعباده المؤمنين بالنصر والتأييد ، وعلو الكلمة ، ونفوذ السلطان ، ولكنها لم تجعل هذه العِدَّة منحة تنزل عليهم من السماء لمجرد أن يقولوا ربنا الله ، أو لمجرد أنهم ينتسبون إلى دين الله ، إنما جعلها لمن عرف واجب الإيمان في حق نفسه ثم أخلص في القيام بهذا الواجب وعندئذ يكون قد أوفى بعهده لله ، فيوفي الله بعهده ﴿ وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم ﴾^(٢) . ﴿ ومن أوفى بعهده من الله ﴾^(٣) .

ولهذا نفى القرآن الكريم أن يكون نصر الله بمجرد الانتماء إلى دين أو كتاب أو بالتمني والآمال ﴿ ليس بأمانيكُم ولا أمانِي أهل الكتاب من يعمل سوءاً يُجْزَ به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يُظلمون نقيراً ﴾^(٤) .

وتثبيتاً من الله سبحانه لعباده المؤمنين وتوكيداً لضرورة الأخذ بأسباب النصر فقد أمدهم بأعداد عظيمة من الملائكة تزيد على عدد عدوهم في موقعة بدر حيث أمدهم بألف من الملائكة بينما كان عدد جيش قريش يقترب من الألف وفي موقعة أحد وعدهم الله إن صبروا أن

(١) من توجيهات الإسلام ٢٧٢ .

(٢) البقرة / ٤٠ .

(٣) التوبة / ١١١ .

(٤) النساء ١٢٣ ، ١٢٤ .

يمدهم من ملائكته بثلاثة آلاف أو خمسة آلاف . وفي موقعة الأحزاب كان عدد العدو كثيراً فأرسل الله عليهم ريحاً وجنوداً من عنده لا يُعرف عددهم مع أنه سبحانه قادر على أن ينصر أوليائه بدون ملائكة وبدون هذه الأعداد الكبيرة ، فملك واحد قادر أن يهلك الأرض ومن عليها . . . بمشيئة الله . ﴿ إذ تقولُ للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمددكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسؤمين ﴾ (١) .

«سئل السبكي عن الحكمة في قتال الملائكة مع أن جبريل قادر أن يدفع الكفار بريشة من جناحه . وأجاب بأن ذلك لإرادة أن تكون الملائكة مدداً على عادة مدد الجيوش رعاية لصورة الأسباب التي أجازها الله تعالى في عبادته» (٢) .

والباحث المتأمل آيات الجهاد في القرآن الكريم يجد أنها رسمت طريق النصر واضحاً جلياً وأبانت عن أسباب الهزيمة والخسران . وهي بحق تُعد دستوراً كاملاً للنصر وأسباب الهزيمة فأول أسباب النصر الاستعداد للحرب لقوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل تُرهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ (٣) .

فمن مزايا الشريعة الإسلامية أنها شريعة عملية واقعية تواجه الواقع

(١) آل عمران / ١٢٤ - ١٢٥ .

(٢) الفتوحات الإلهية ١ / ٣١٢ .

(٣) الأنفال / ٦٠ .

البشري بالحل العملي ، فما دام الصراع بين الحق والباطل سنة من سنن الاجتماع البشري ، وما دامت الموعظة الحسنة لا ترد ظلماً ولا تدفع اعتداء ، فلا بد للحق من قوة يدفع بها حتى تتحقق سنن الله في النصر . ولهذا أمر الله تعالى بإعداد القوة التي ترهب العدو فلا يطمع في الاعتداء على المؤمنين .

ومن حق هذه الآية التي تعتبر دستور الإعداد للقتال - أن نقف عند كل كلمة من كلماتها ففي كل كلمة سبب من أسباب النصر .

فكلمة ﴿أعدوا﴾ جعل الله بها الاستعداد فريضة تصاحب فريضة الجهاد : وهي كلمة واسعة الدلالة تشمل كل ما يمكن الاستعانة به في مقاومة الأعداء ، من قوى مادية ومعنوية . وقد رمزت إلى معاني دقيقة هامة تعتبر سراً من أسرار النصر . فما معنى ﴿أعدوا﴾؟ الذي أراه وأكد أجزم بصحته أن معنى (أعدوا - اصنعوا) لأن الإعداد يحتاج إلى عقل سليم وتفكير طويل ، وجهد كبير ، وفي اللفظة التالية ﴿ما استطعتم﴾ ما يزيد رأبي تأييداً وتأكيداً و﴿وترهبون﴾ يزيل كل شك في ذلك .

والسر في ذلك أن الله جعل الغاية من إعداد القوة إنما هو إرهاب العدو وتخويله ومن المعلوم أن هذا لا يتأتى عن طريق شراء الأسلحة من الخارج ولا سيما إذا اشتريناها من مصانع العدو نفسه - لاكتشاف سرنا ومعرفة مدى قوتنا وموطن النقص في إعدادنا فلا يخاف منا عندئذ ولا يرهب جانبنا ويفقد الإعداد جزءاً عظيماً من قيمته ، إذ يطمع العدو في قتالنا لأنه يأمل الانتصار علينا .

وحروبنا مع الصهيونية والاستعمار خير شاهد على ما أقول . . .

فسرية الأسلحة عنصر رئيسي في النصر والهزيمة ، ولذلك كان

أكثر ما تحرص عليه الأمم قديماً وحديثاً ، المحافظة على السرية التامة لأسلحتها ، لأن ظهور سلاح جديد في المعركة يكفي للقضاء على قوة العدو المعنوية وإلحاق الهزيمة به ، واستعمال القنبلة الذرية في الحرب العالمية الثانية خير دليل .

فمن هنا يأمر الله تعالى المسلمين أن يصنعوا أسلحتهم بأيديهم وفي مصانعهم ، حتى لا يتيسر لعدوهم الاطلاع على أسرار قوتهم العسكرية فيطمع في الاعتداء عليهم والنيل منهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ ففيه حدود التكليف بإعداد القوة ﴿ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ فهي حدود الطاقة إلى أقصاها بحيث لا يقصر المسلمون عن إعداد سبب من أسباب القوة يدخل في طاقتهم .

ويقول الدكتور عبد الحلیم محمود^(١) «والاستطاعة في الواقع لا حدود لها ، وهذا الإعداد إذن لا ينتهي ، ولا يفتر في يوم من الأيام» .

أما كلمة ﴿قوة﴾ فقد وردت نكرة لتشمل جميع أنواع القوة المعروفة اللازمة للانتصار في كل زمان ومكان .

وفي هذا إحياء بأن الحق لا بُدَّ له من قوة تحميه وتدافع عنه وهذه قضية يشهد لها التاريخ وبقورها الواقع الاجتماعي في كل عصور الإنسانية . وقد عرفت الجماعات البشرية هذا المبدأ الاجتماعي وآمنت أن عزا وهبتها واحترام حقها لا بُدَّ له من القوة فاتخذتها واعتمدت عليها ولم يكن الأمر قاصراً على الجماعات البشرية ، فالشرائع السماوية نفسها

(١) الجهاد - ١٤ (من أعمال المؤتمر الرابع للبحوث الإسلامية ١٩٦٨) .

وضعت القوة أساساً لتركيزها ، وحمل الناس على الأخذ بها ، فأمرت بها سلاحاً للحق تحميه وترعاه ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ﴾ (١) .

وإذا نظرنا إلى تاريخ الإسلام وجدنا أمته أدركت سرّ الحياة ، وعرفت أنه في القوة ، فتسلحت بها واعتمدت عليها ، وعاشت مهية الجانِب ، مرهوبة المكانة ، فكان سلطانها هو السلطان ، وكان الإسلام هو القوة ، والقوة هي الإسلام . وظل الإسلام وبلاد الإسلام بمنأى عن عبث العابثين ، وعن طمع الطامعين . ولما تبدلت الشؤون ، وتغيرت الأحوال ، ونزعت القوة من بينهم ، أصبحوا أشلاء مبعثرة تهددهم القوة في كل مكان وتذرهم بالفناء في كل وقت (٢) .

ومن هنا عني القرآن بلفت أنظار المسلمين إلى بذل أقصى الجهد في إعداد العدة المادية والمعنوية .

القوة المادية :

رسم القرآن الكريم الخطوط العريضة التي يقوم عليها إعداد القوة المادية ، ونظم وسائلها وبين مقوماتها . . . فمن عناصر الإعداد المادي ما يلي :

(١) الحديد / ٢٥ .

(٢) تفسير القرآن الكريم / ٢٤٢ للشيخ محمود شلتوت .

١ - إعداد الرجال المقاتلين :

كان الجيش الإسلامي لا يلتزم بعدد معين منذ بدأ القتال بين المسلمين وأعدائهم . فالجهاد واجب على كل قادر ، وكل من دخل الإسلام أصبح بدخوله جندياً من جنود الله يدافع عن دينه .

وقد صرح القرآن أنه لا يعفى من الجندية إلا الضعفاء والمرضى والعجزة من الشيوخ والصغار الذين لم يبلغوا سن الرشد ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ﴾ (١) .

وتزود جيش الرسول عليه الصلاة والسلام بثقافة لا تعلوها ثقافة ، ألا وهي ثقافة القرآن الكريم و سنن الرسول ﷺ وتعاليم الإسلام ومبادئه الحربية العظيمة ولعلنا نذكر أن التفكير في جمع القرآن لم يكن إلا مخافة أن يذهب بذهاب القراء الذين كانوا أكثر القوم إقداماً وبسالة في القتال ، وكان إقدامهم وجرأتهم على اقتحام الصفوف سبباً في أن يستحر القتل فيهم ، وأن يهرع أصحاب رسول الله إلى خليفة رسول الله يستنهضونه في سرعة العمل على جمع القرآن حتى لا يذهب بذهاب حفاظه المجاهدين .

«ورحم الله ذلك الزمان الذي كانت فيه آيات القرآن في قلوب حاملها أقوى حافز على التضحية بالنفوس في سبيل إنقاذ الدولة ورد الطغيان عنها ، وتعباً وخزياً لزمان جعل فيه العلم وحفظ القرآن عنواناً

(١) التوبة / ٩١ .

على عجز أهله حتى اتخذوا علمهم بالدين ، وحفظهم للقرآن وسيلة من الوسائل التي تبررهم في الجبن والضعف والخور» (١) .

وتمشياً مع توجيه الوحي وسياسة الواقع ، وحفاظاً على حق الله وحق الحياة ، درب النبي ﷺ رجاله على فنون الحرب ، واشترك معهم في الاستعداد للمعارك ، وعد السعي في هذه الميادين خطوات من أجل القرب وأقدس العبادات ، ولعله بذلك يفل شوكة الكفر ، ويكسر عن المسلمين أذاه (٢) .

وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يحث المسلمين على أن يتدربوا على الفروسية والسباحة والرمي بالنبال .

فقد جاء في صحيح مسلم عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله وهو على المنبر يقول : «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي» (٣) .

والحديث ينوه بما لإصابة الأهداف من أثر حاسم في كسب المعارك والرمي أعم من أن يكون بالسهم أو بالرصاص أو بالقنابل .

وحديث آخر عن عقبة أيضاً قال : «سمعت رسول الله يقول : سَتُفْتَحَ عَلَيْكُمْ أَرْضُونَ وَيَكْفِيكُمْ اللَّهُ فَلَا يَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَلْهُوَ بِأَسْهَمِهِ» وقال ﷺ : «كل شيء يلهو به الرجل باطل إلا رمية بقوسه وتأديبه فرسه وملاعبته أهله فإنه من الحق . فإن الرمي بالقوس وتأديب الفرس من

(١) تفسير القرآن الكريم / ٢٥٠ الشيخ محمود شلتوت .

(٢) فقه السيرة - محمد الغزالي ٢٢٢ .

(٣) صحيح مسلم ٥٢/٦ وأبو داود ٣٩٤/١ والترمذي ١٢٣/٣ وابن ماجه ١٨٨/٣ وأحمد ١٥٧/٤ والحاكم ٢٣٨/٢ على شرط الشيخين ووافقه الذهبي . وتفسير ابن كثير ٣٢١/٢ .

معادن القتال . . . وتعلم الفروسية واستعمال الأسلحة فرض كفاية وقد يتعين» (٤) .

وعن فقيم اللخمي قال : «قلت لعقبة بن عامر : تختلف بين هذين الغرضين - تتردد بينهما - وأنت شيخ كبير يشق عليك ، قال عقبة : لولا كلام سمعته من رسول الله لم أعانه . قال : وما ذلك ؟ قال سمعته يقول : من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا» (٢) .

وأخرج البخاري عن سلمة بن الأكوع أن النبي عليه الصلاة والسلام مرّ على نفر من أسلم ينتضلون فقال النبي : «ارموا بنو اسماعيل فإن أباكم كان رامياً ، ارموا وأنا مع بني فلان قال : فأمسك أحد الفريقين بأيديهم ، فقال عليه الصلاة والسلام : ما لكم لا ترمون . قالوا كيف نرمي وأنت معهم قال النبي : ارموا فأنا معكم كلكم» (٣) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «بينما الحبشة يلعبون عند رسول الله في المسجد بحرابهم دخل عمر فأهوى إلى الحصى فحصبهم بها فقال دعهم يا عمر» (٤) .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان أبو طلحة يتترس مع النبي عليه الصلاة والسلام بترس واحد وكان أبو طلحة حسن الرمي ، فكان إذا رمى تشرف النبي فينظر إلى موضع نبله» .

«وكان المسلمون أكثر مهارة من أعدائهم في استخدام أسلحة

(١) تفسير القرطبي ٣٦/٨ .

(٢) صحيح مسلم ٥٢/٦ .

(٣) صحيح البخاري ٤٥/٤ .

(٤) صحيح البخاري ٤٦٨/٤ .

الحرب وخاصة ركوب الخيل ورمي النبل» وقد كانوا يعلمون أبناءهم هاتين الحرفتين ، وكان المتفوق فيهم يضرب به المثل في القوة ، وكانت الإجابة موضع الفخر ، وبلغت هذه الإجابة حداً لا يزيد عليه حتى إن الواحد منهم كان يمتطي جواده وهو عاري الظهر ويرمي النبال فتصيب إحدى عيني غزال دون الأخرى» (١) .

وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام لا يكتفي بتدريب جيشه على ركوب الخيل بل يحرضهم على ركوب البحر فقد أخرج البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن أم حرام أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : «أي استراح وقت القيلولة» يوماً في بيتها فاستيقظ وهو يضحك ، فقالت يا رسول الله ما يضحكك ، قال : عجبت من قوم من أمتي يركبون البحر كالملوك على الأسرة فقلت يا رسول الله ادع أن يجعلني منهم فقال : أنت معهم ، ثم نام فاستيقظ وهو يضحك فقال : ادع أن يجعلني الله منهم فيقول : أنت من الأولين» (٢) .

وقد ربي الإسلام جنوده على الخشونة وتحمل المشاق ويروي في ذلك ابن عمر عن أبيه الفاروق فيقول : كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى خليفته في الشام انظر من قبلك من الجنود فليستعلوا وليحتفوا . قال السرخسي في التعليق على الخبر : أي يمشوا أحياناً بغير نعل وأحياناً في النعال ليتعودوا ذلك . وفي هذه الوصية من الإمام عمر رضي الله عنه ، تنبيه إلى أن الجند يجب ألا يجنحوا إلى الترف والنعيم ، فإن الجندي والنعيم نقيضان لا يجتمعان ، وإن الترف الدائم لا يكون معه

(١) السلام والحرب في الإسلام - صاغ أركان الحرب محمد فرج / ٣٨ .

(٢) صحيح البخاري ٤٤/٤ .

(٣) صحيح البخاري ٤٤/٤ .

خشونة ويؤدي إلى استرخاء النفوس ، وإذا استرخت النفوس فسدت وضعفت العزائم .

ولذلك كان أخشى ما يخشاه أبو بكر الصديق رضي الله عنه أن يصيب الترف والأشر الجند فإن ذلك يقضي على روح الجندية فقد جاء في شرح السرخسي أن أبا بكر الصديق قال : «إنكم ستظهرون على كنوز كسرى وقيصر ، وإياكم والأشر ، ورب الكعبة لتأثرن» .

والأشر : نوع من الفرح المصحوب بتنعّم واستعلاء ، وإن ذلك يترتب عليه أمران :

أحدهما : ألا يبذل الجندي كل ما أوتي من قوة ، ولذلك لما أعجب المسلمون كثرتهم في (حنين) انهزموا . الأمر الثاني : طغيان مع استرخاء العزائم ، وإن توالي النصر وتوالي البطر والأشر يؤدي إلى الترفه والنعيم ، ولذلك قال أبو بكر في موقف آخر : «والله لتألمن من النوم على الصوف الأذربي كما يتألم أحدكم من النوم على حسك السعدان» (١) .

وإن كثرة الترف تورث الضعف ، وتمنع الصبر ، ويكون الجندي إذا أشر يائساً كما قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ ، وَلَئِنْ أذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَّاءٍ مِمَّا سَمَّه لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (٢) .

(١) الجهاد / ٥٥ للشيخ محمد أبو زهرة الصوف الأذربي . نسبة إلى أذربيجان وحسك السعدان .
شوك حاد وانظر السير الكبير ، أحمد بن الحسن الشيباني ، تمهيد الشيخ محمد أبو زهرة وتعليق
الدكتور مصطفى زيد .

(٢) هود / ٩ - ١١ .

هذه نماذج لإعداد الرجال للقتال في عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام وخلفائه الراشدين تطبيقاً لمفهوم قوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم . . . ﴾ . ولا يكتفي الرسول القائد بإعداد الرجال فحسب بل يعنى عناية كبيرة بإعداد السلاح :

إنّ من مزايا القرآن الكريم هذا الشمول الذي يجده القارىء في آياته وهذا الخلود الذي يلمسه بين كلماته . فهو يأتي بالكلمة الواحدة تحسبها أول الأمر كغيرها من الكلمات فإذا تابعت العصور وتطور الناس من حال إلى حال ، وجدتها أوسع من هذه العصور ومن تلك التطورات . فلننظر كلمة ﴿ قوة ﴾ في قوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة . . . ﴾ كيف شملت ما عرفه الصحابة أيام رسول الله من سيف ورمح ودرع وكيف شملت اليوم ما نعرفه من طائرة ودبابة وقنبلة ذرية ، لتعلم أن القرآن لا يقف عند عصر إنّما يشمل العصور كلها ويسع التطورات جميعها (١) .

وقد كشف القرآن الكريم للمؤمنين عن منابع القوة وعناصرها ، وأمرهم بالبحث عنها ، واستخدامها ومسايرة التقدم البشري والسبق في الكشف والاختراع والسلطان ، ويبين لهم أنها في الحديد وما يستخرج منه من المصنوعات النافعة بواسطة النار التي هي أقوى منه كنتيجة للفكر والعمل وأثبت لهم هذه الحقيقة حتى جعلها عقيدة ، لا قيام لدينهم ولا لدولتهم إلا بها ، حيث أعلمهم أنه أنزل الحديد مع الكتاب إشارة إلى أن القوة مع الحق ولا قيام له (٢) إلا بها فقال تعالى : ﴿ وأنزلنا الحديد فيه

(١) نظم الحرب والسلام / ٦٠ جمال الدين عياد .

(٢) تفسير القرآن الكريم / ٢٤٨ الشيخ محمود شلتوت .

بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز ﴿١﴾ .

وهذه إشارة إلى ما في الحديد من قوة لشد عضد المسلمين في التمسك بحقهم ، والمحافظة عليه ولتأمل قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا الحديد . . . ﴾ وكيف زواج بين الكتاب والميزان ، وبين الحديد في أنه أنزل الجميع في آن واحد ، وكيف خلع على الحديد الذي به قوام الميزان وحفظ القسط هذين الوصفين : البأس الشديد والنفع العظيم . نتأمل هذا ثم ننظر مما تتخذ أدوات القتال برية وبحرية وجوية . . . ثم نتأمل قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ﴾ لنعلم أن نصر الله معقود لمن سخر الحديد واتخذ منه القوة والبأس (٢) .

قال ابن عباس (٣) : نزل آدم من الجنة ومعه من الحديد خمسة أشياء من آلة الحدادين ، السندان والكلبتان ، والميقعة ، والمطرقة ، والإبرة . وقوله تعالى : ﴿ أنزلنا الحديد ﴾ أي أخرج الحديد من المعادن وعلمه صنعته بوحيه ﴿ فيه بأس شديد ﴾ يعني السلاح والكراع والجنة .

وقال الزمخشري (٤) : هو القتال به ﴿ ومنافع للناس ﴾ في مصالحهم ومعاشهم وصنائعهم ، فما من صناعة إلا والحديد آلة فيها أو يعمل بالحديد ﴿ وليعلم الله من ينصره ﴾ باستعمال السيوف والرماح وسائر

(١) الحديد / ٢٥ .

(٢) الإسلام والعلاقات الدولية / ٤٩ الشيخ محمود شلتوت .

(٣) تفسير القرطبي ١٧ / ٢٦١ .

(٤) الكشف / ٤ / ٦٦ .

السلاح في مجاهدة لاعداء الدين ﴿إن الله قوي عزيز﴾ غني بقدرته وعزته في إهلاك من يريد هلاكه منهم وانما كلفهم بالجهاد لينتفعوا به ويصلوا بامثال الأمر فيه إلى الثواب) .

وإذا عرف المسلمون قيمة فضل الله عليهم وعلى الناس (بالحديد) الذي أنزله فليعرفوا فضل الله على نبيه داود عليه السلام في إلهامه طرق الانتفاع بهذه المادة . وقد قص الله علينا ذلك في كتابه العزيز لتكون لنا منه العبرة والذكرى . . ﴿ ولقد آتينا داودَ مِنَّا فضلاً يا جبالُ أوَّبي معه والطير وألنا له الحديدَ . أن أعمل سابغات وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ واعملوا صالحاً إِنِّي بما تعملون بصير . ولسليمان الريح غُدُوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطرِ وَمِنَ الْجَنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجوابِ وقدور راسياتٍ اعملوا آل داود سُكْرًا وقليل من عبادي الشكور ﴾ (١) .

ولعل هذه الآيات تشير إلى ما كان يتخذه هؤلاء الأنبياء من المصانع التي كانت تخرج لهم الدروع المحكمة في وضعها ومقدارها ، وتخرج لهم التماثيل التي كانت تُدخل على العدو شدة الروع فتضعف من قوته ، وترد من طغيانه .

ولعل في ذلك ما يدفع المسلمين إلى إنشاء المصانع التي تُخرج لهم ما يحتاجون إليه في حفظ حياتهم ، وتعصمهم من التطلع إلى ما في أيدي أعدائهم ، غير مشغولين بشيء سوى الافتنان والتعجب منه ، والوقوف أمامه كالمبهوت المستغرب (٢) .

(١) سبأ / ١٠ - ١٣ .

(٢) تفسير القرآن الكريم / ٧٤٧ للشيخ محمود شلتوت .

ومن نعم الله علينا أنه علم سيدنا داود صناعة أسلحة القتال فقال :
﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ﴾ (١) .

قال القرطبي (٢) : «وهذه الآية أصل في اتخاذ الصنائع والأسباب ، وهو قول أهل العقول والألباب ، وقد أخبرنا الله تعالى عن نبيه داود عليه السلام أنه كان يصنع الدروع . والصنعة يكف بها الإنسان نفسه عن الناس ، ويدفع بها عن نفسه الضرر والبأس» .

وقد نبه الله تعالى إلى استخدام قوة الحديد والنار في قصة ذي القرنين : ﴿ قالوا يا ذا القرنين إنَّ يأجوجَ ومأجوجَ مُفسِدُونَ في الأرض فهل نجعل لك خَرْجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سَدّاً . قال ما مَكَّنِّي فيه ربي خَيْرٌ فأعِينُوني بقوةِ أجعل بينكم وبينهم رَدْماً آتوني زُبَرَ الحديد حتى إذا ساوى بين الصَّدَفَيْنِ قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال آتوني أفرغ عليه قِطْراً فما استطاعوا أن يظهره وما استطاعوا له نقباً ﴾ (٣) .

وقد أشار سبحانه وتعالى صراحة إلى ما في اتخاذ المصانع من القوة والبأس ﴿ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ﴾ (٤) . . .
وقد أشار أيضاً إلى صناعة السفن وتعليمها ﴿ فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا ﴾ (٥) ﴿ واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا ﴾ (٦) .

(١) الأنبياء / ٨٠ .

(٢) تفسير القرطبي ١١ / ٣٢٠ ، ٣٢١ .

(٣) الكهف / ٩٤ - ٩٧ .

(٤) الشعراء / ١٢٩ .

(٥) المؤمنون / ٢٧ .

(٦) هود / ٣٧ .

ولقد حرصت حكومة الرسول عليه الصلاة والسلام على إعداد العدة كل الحرص . فكان عليه السلام يرسل البعثات لتعلم الصناعات الحربية : فقد ذكر ابن سعد وابن هشام أنّ عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة لم يحضرا حصار الطائف إذ كانا بجرش يتعلمان صنع العرادات والمنجنيق والدبابات والضبور (١) . . ولقد كان المنجنيق والدبابة أحدث وسائل القتال أيام رسول الله وأكثرها قدرة . ومن أجل ذلك كان استعمالها يحتاج إلى تمرس وحذق ومعاناة وليس لنا أن نغفل الحديث عن أسلحة المسلمين في عهد النبوة ، فقد كانوا يتخذون للحرب عدتها ، فيحتمون بالدرع ويتترسون بالترس ، ويلبسون الخوذة ويضربون بالسيف ، ويرمون عن القوس ، ويحملون الحربة والرمح ، ويركبون الفرس والبعير وكانت لهم أسلحة أخرى سبقوا المخترعين المحدثين إليها ، فقد كانوا يعرفون الضبور وهو صندوق من خشب غطاؤه الجلد ، يكمنون في جوفه فلا تصل إليهم حراب العدو ولا تعوق سيرهم فيقدمون عليه بقذف النبال والرمي عن الأقواس ، وهم في حمى من أذاه ومن قذائفه . وكان لهم سلاح آخر أشبه بالضبور ، يحتمون بداخله فينقبون الجدران ، ويقتحمون الحصون ويهزمون الأعداء (٢) .

وقد استعمل الرسول عليه الصلاة والسلام المنجنيق يوم الطائف . قال ابن هشام : «ورماهم رسول الله بالمنجنيق ، وإن رسول الله أول من رمى في الإسلام بالمنجنيق ، إذ رمى أهل الطائف» .

وقال ابن اسحق : حتى إذا كان يوم الشدخة عند جدار الطائف ،

(١) سيرة ابن هشام ٣/٩١٧ تحقيق محيي الدين عبد الحميد .

(٢) نظم الحرب في الإسلام ٦٧/ عياد .

دخل نفر من أصحاب رسول الله تحت دبابه ، ثم زحفوا إلى جدار الطائف ليحرقوه (٧) وقد استعمل رسول الله المنجنيق في حصار حصون خيبر (٨) .

وكما نبّه القرآن الكريم إلى ما في اعداد العدة من القوة نبه إلى (قوة الخيل) فقال : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله . . ﴾ وقد أقسم سبحانه بخيل الغزاة إذا أُجريت في سبيله فعدت وضبحت ﴿ والعاديات ضبحاً ، فالموريات قدحاً ، فالمغيرات صبوحاً ، فأثرن به نقعاً ، فوسطن به جمعاً ﴾ (٩) .

وقد ذكر القرآن الكريم أن الأنبياء والمرسلين قد اتخذوا القوة واصطنعوها أساساً لحياتهم الحربية ، وأولوا الخيل عناية خاصة كسيدنا سليمان عليه السلام الذي حين احتاج إلى الغزو ، أمر بإحضار الخيل ، وأمر بإجرائها ، ثم أمر بإعدادها وتسييرها حتى غابت عن بصره ، ثم أمر الرائضين أن يردوها عليه ، فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها تشريفاً لها وإبانه عن عزتها لكونها من أعظم العون في دفع العدو . وقد حكى ذلك القرآن الكريم في سورة (ص) : ﴿ ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد . فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب ، ردها علي فطفق مسحاً بالسوق والأعناق ﴾ (٤) .

(١) سيرة ابن هشام ٣/٩٢١ تحقيق محيي الدين عبد الحميد .

(٢) صور من حياة الرسول / ٤٨٢ .

(٣) العاديات / ١ - ٥ .

(٤) ص / ٣٠ - ٣٣ .

وعن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه : اشتغل سليمان عليه السلام بعرض الأفراس للجهاد حتى غربت الشمس (١) .

هذا ، وقد رغب رسول الله في اقتناء الخيل والقيام عليها لما فيها من الأجر والغنيمة والقوة المخيفة للعدو في عهده عليه الصلاة والسلام ، فقد وردت أحاديث كثيرة في فضل الخيل وارتباطها في سبيل الله ، أخرج البخاري «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والمغرم» وقال أيضاً «من احتبس فرساً في سبيل الله ، إيماناً بالله وتصديقاً لوعده ، فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة» (٢) .

وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً : الخيل لثلاثة : لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل وزر ، فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله فأطال في مرج أو روضة فما أصابت في طيلها ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات ، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقيها كان ذلك حسنة له ، ورجل ربطها فخراً ورتاء ونواء لأهل الإسلام فهي وزر على ذلك» (٣) .

وقد كان المسلمون يحاربون في أول عهدهم بالقتال راجلين ، فلا خيل عندهم ، وفي (أحد) كان لديهم فرسان إحداهما للنبي ، والأخرى لأحد الصحابة ، فلما كان حصار بني قريظة كان لدى المسلمين ستة وثلاثون من الخيل ، فلما غنم المسلمون من بني قريظة الكثير بعث النبي بسبائهم إلى نجد حيث بيعت هناك واشترى المسلمون بثمنها خيلاً

(١) تفسير القرطبي ١٥/١٩٦ .

(٢) صحيح البخاري ٤/٣٤ .

(٣) المرجع السابق ٤/٣٥ .

وسلاحاً ، فكان فرسان المسلمين يوم خيبر مائتين (١) وظل جيش المسلمين في تطور مستمر حتى وصل في غزوة تبوك إلى ثلاثين ألف مقاتل بينهم عشرة آلاف راكب (٢) .

وهذا يدل على اهتمام النبي الكبير في إعداد الجيش والسلاح . فقد روى البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : « كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يُوجف عليه بخيل ولا ركاب فكانت لرسول الله خاصة وكان ينفق على أهله نفقة سنته . ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة في سبيل الله » (٣) .

هذا وإن كانت أسلحة الحرب في زمن النبي عليه الصلاة والسلام محصورة في الأنواع التي ذكرتها فقد تطورت وتنوعت حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن ، وطبيعي أنها لن تقف عند حد . والمسلمون بطبيعة دينهم مأمورون بالسبق في هذا المضمار الذي لا نهاية له حتى يحققوا أمر الله في إعداد الأسلحة التي ترهب عدوهم ﴿ ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ .

وإن قصرنا في هذا فليتربصوا أن تدور عليهم الدوائر في الدنيا وغضب الله وعذابه في الآخرة . ولقد حقق المسلمون بعد عصر النبي عليه الصلاة والسلام سبقاً عظيماً في تاريخهم الحربي فهم أول من رمى باللهب في الحروب واخترع القنابل اليدوية «أيام حصار البطل

(١) سيرة ابن هشام ٣/٧٢٤ تحقيق محيي الدين عبد الحميد وانظر محمد القائد الصاغ - محمد

عبد الفتاح إبراهيم / ١٠٣ .

(٢) الرسول القائد / ٢٧١ محمود شيت خطاب .

(٣) صحيح البخاري ٤/٤٦ .

صلاح الدين الأيوبي لأبراج عكا» فضلاً عن اختراعهم المدافع واكتشافهم للبارود في حروب الأندلس (١) .

وقال (لوبو) عند الكلام عن حصار دمشق سنة ٦٣٤ «تعلم المسلمون من العرب الذين كانوا استخدموا في كتائب الأمبراطورية البيزنطية صنع آلات الحرب واستعمالها فكانوا يضربون هذه المدينة بشدة» (٢) .

وهكذا اكتشف المسلمون الأوائل سر هذه الآية الكريمة : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ ، وعملوا به أيام حضارة الإسلام فسادوا الأمم ، وقادوا الشعوب ، ونشروا لواء الإسلام على الأقطار والأمصار .

«أما اليوم فقد ترك المسلمون العمل بهذه الآية الكريمة ، ومالوا إلى النعيم والترف ، فأهملوا فرضاً من فروض الكفاية ، فأصبحت جميع الأمة آثمة بتركه ، ولذا تعاني اليوم من غصته ما تعاني وكيف لا يطعم العدو بالممالك الإسلامية ، التي لا ترى فيها معامل للأسلحة ، وذخائر حرب بل كلها مما يشتري من بلاد العدو؟ أما آن لها أن تتنبه من غفلتها وتنشئ ، معامل لصنع المدافع والبنادق والقذائف والذخائر الحربية؟ لقد ألقى عليها تنقص العدو بلادها من أطرافها درساً يجب أن تتدبره ، وتتلافى ما فرطت به» (٣) .

(١) القتال في الإسلام / ١٠٢ أحمد نار .

(٢) تاريخ الامبراطورية البيزنطية باريس سنة ١٧٦٨ .

(٣) محاسن التأويل / ٨ - ٢٤ - ٣ للقاسمي .

ثانياً : (القوة الروحية) أو (الروح المعنوية) :

هذه هي القوة الثانية التي أشارت إليها آية ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ . رأينا كيف أن القرآن الكريم قد أرشد المؤمنين إلى ضرورة الإعداد المادي إعداداً كاملاً وكشف لهم عن مصادر القوة والغلبة حيث وجه أنظارهم إلى صناعة أسلحتهم وحراسة ثغورهم وتدريب رجالهم . لأن الإعداد المادي يقوي الثقة بالنفس ويلهب إرادة القتال ويرفع المعنويات . .

وهنا يزود القرآن الكريم المؤمنين بتوجيهات إلهية سامية لتبقي روحهم المعنوية عالية ، وإرادتهم للقتال قوية . ومن هذه التوجيهات القرآنية الكريمة :

(١) - التزود بحقيقة الإيمان :

تلقي الصحابة رضوان الله عليهم القرآن الكريم مدركين مدى الشرف الذي حباهم الله به ، فأقبلوا عليه يرتلون آياته ويتلوننا آناء الليل وأطراف النهار ، حتى كان من يمر بهم يسمع لهم دويّاً كدوي النحل من تلاوة القرآن الذي جعلوه غذاء أرواحهم ، وقوت قلوبهم وقرّة أعينهم ، نفذوا أحكامه ، وأقاموا حدوده ، واستقر اليقين في أعماقهم فاستطاعوا أن يحدثوا أكبر ثورة عالمية غيروا بها وجه الأرض (٢) .

فالقرآن هو الغذاء الأول للروح المعنوية التي لا تقهر . . فقد تقدم

(١) تفسير القرطبي ٤/ ٣٢٥ - ٣٢٦ .

(٢) دعوة الإسلام / ٣٧ سيد سابق .

المجاهدون الذين جعلوا القرآن الكريم ربيع قلوبهم إلى ميدان القتال وهم مؤمنون حق الإيمان بإحدى الحسنين إما النصر وإما الشهادة ﴿ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنين ﴾ (١) . ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ﴾ (٢) .

وقد ربي القرآن الكريم المجاهدين في سبيل الله على حقيقة الإيمان التي تؤدي إلى تقوية الروح المعنوية بسرد القصص الحربية للأمم السابقة : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ﴾ (٣) .

وقد وعد الله تعالى بني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة والنصر من الله ولكنهم رفضوا الامتثال لأمر الله بقتال العمالقة وقالوا : ﴿ إن فيها قوماً جبارين وإننا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ﴾ .

فهم أرادوه نصراً رخيصاً لا ثمن له ولا جهد فيه يتنزل عليهم تنزل ﴿ المن والسلوى ﴾ . . ولكن النصر ليس كما أراده اليهود . فالله لا ينصر القلوب الخاوية من الإيمان به وبوعده . ﴿ قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ﴾ .

هنا تبرز قيمة الإيمان بالله وتعمل عملها في وقت الشدة . فالله لا يجمع في قلب واحد مخافتين مخافته ومخافة الناس ﴿ ما جعل الله

(١) التوبة / ٥٢ .

(٢) التوبة / ٥١ .

(٣) المائدة / ٢٠ - ٢٦ (القصة كلها) .

لرجل من قلبين في جوفه ﴿ . هذه هي خاصية الإيمان الحقيقي ومنطقه ومقتضاه . .

وتشير الآية الكريمة إلى سر من الأسرار العسكرية تنبه إليه فتى الفتيان وسيد المجاهدين الإمام علي بن أبي طالب (ما غُزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا) فهم هذا المعنى من قوله تعالى : ﴿ ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ﴾ . قاعدة عسكرية ثابتة لا تخطيء أبداً . فهول المفاجأة كفيل وحده بتحطيم قوة العدو المعنوية فيلقي سلاحه ويستسلم ذليلاً صاغراً .

ونمضي مع هذه القصة العسكرية فيقول الجبناء الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم ولا يخافون الله ولا يثقون بوعدته ﴿ قالوا يا موسى : إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ﴾ .

﴿ فاذهب أنت وربك فقاتلا . . . ﴾ . . هكذا في وقاحة العاجز ، فهو ليس بربهم لأن ربوبيته ستكلفهم القتال ﴿ إنا ها هنا قاعدون ﴾ لا نريد ملكاً ولا عزاً ، ولا أرض الميعاد التي دونها لقاء الجبارين .

هذه هي نهاية المطاف بموسى ﴿ قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ﴾ .

فاستجاب الله لنبيه وقضى عليهم بالتيه أربعين سنة ﴿ قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين ﴾ .

ولقد وعى المسلمون هذا الدرس في قلوبهم وعقولهم ، فحين

واجهوا الشدة وهم قلة أمام نفير قريش في غزوة بدر قال قائلهم في ذلك اليوم لرسول الله عليه الصلاة والسلام (والله لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ، ولكننا نقول اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالله لو سرت بنا حتى تبلغ برك الغماد لنسيرن معك والله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك) (١) .

ومن المفاهيم التي غرسها القرآن الكريم لتنمية إرادة القتال في نفوس المجاهدين وعقولهم معاً ، إيمان المجاهد إيماناً عميقاً بعدالة الأهداف التي يقاتل من أجلها ، فهذا الإيمان يجعل منه مقاتلاً رهيباً كما عبر عن ذلك العسكريون المحدثون (٢) .

يقول القائد (كروميل) (٣) : (إن أقوى غرض مشترك للجيش ، هو أن يعتقد أفرادهم أداة الخالق لتنفيذ أحكامه ، وأية قوة تستطيع الصمود في وجه هذه القوة الإلهية؟) .

ولقد كان المسلمون كذلك فإنهم كانوا يعتقدون اعتقاداً راسخاً أنهم جند الله ، يحاربون لإعلاء كلمته ونشر دينه ، بينما يُقاتل أعداؤهم في سبيل الشيطان ، ولن ينتصر الشيطان يوماً على الرحمن ﴿ الذين آمنوا يُقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يُقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴾ (٤) .

(١) زاد المعاد ٢/ ٨٦ وسائر كتب السيرة والتفسير .

(٢) إرادة القتال في الجهاد ٦/ محمود شيت خطاب (اللواء الركن) من أعمال المؤتمر الرابع للبحوث الإسلامية ١٩٦٨ .

(٣) فن القيادة / ١٣٤ .

(٤) النساء / ٧٦ .

وقد أدرك المشركون يوم بدر هذه الحقيقة (إنه لا طاقة لأحد بقتال الله) .

وقال ابن اسحق : وبعث خفاف بن أيماء بن رخصة الغفاري إلى قريش ، حين مروا به إبناً له بجزائر أهداها لهم ، وقال : إن أحببتم أن نمدكم بسلاح ورجال فعلنا . . . فأرسلوا إليه مع ابنه أن وصلتكم رحم (لئن كنا نقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم ولئن كنا إنما نقاتل الله كما يزعم محمد ، فما لأحد بالله من طاقة) (١) .

وبهذه العقيدة القوية كان المسلمون يخرجون من بيوتهم يطلبون الشهادة في سبيل الله ويسعون إلى الموت سعياً ، لأنه أسمى أمانيتهم . . . وإلى هذا المعنى أشار (الدكتور أومان) (٢) . (إن العرب الذين قادهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص في القرن السابع لفتح سورية ومصر لم يفوزوا بالنصر لكثرة جيوشهم أو لدقة نظامهم وإنما بالتضحية والشجاعة النادرة ، فهي التي أفدرتهم على أن يواجهوا قوات أوفى منهم سلاحاً ، وأدق منهم نظاماً) .

كما لاحظ هذا المعنى المستشرقون والمؤرخون (وملاً قلوب العرب شجاعة احتقارهم التام للموت ، الذي قرره في أذهانهم دينهم الجديد) (٣) .

وقد سبق أن ذكرت وعد الله الحق للمؤمنين بالنصر ﴿ ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ﴾ (٤) . وذلك أنه متى استقرت حقيقة

(١) سيرة ابن هشام ٦٢١/٢ تحقيق السقا والأبياري وشليبي .

(٢) History of Art of War P. 1528 2 - 8 .

(٣) تاريخ العرب ١٧٦/١ فيليب حتي ترجمة محمد مبروك نافع .

(٤) النساء / ١٤١ .

الإيمان في نفوس المجاهدين ، وتمثلت في واقع حياتهم منهجاً للحياة ، وتجردوا لله من كل خاطرة ، فلن يجعل الله للكافرين عليهم سبيلاً .

ويقول الشيخ محمود شلتوت : (فإذا وجدنا أنفسنا في وقت ما مخذولين ووجدنا أعداءنا علينا متسلطين فليس لنا أن نشك في وعد الله ، ولكن علينا أن نسائل أنفسنا أين نحن من الإيمان وأين نحن من التضحية في سبيل الله بالمال والولد والمتاع) (١) .

فيجب أن نفرق دائماً بين حقيقة الإيمان ومظهر الإيمان . إن حقيقة الإيمان قوة حقيقية ثابتة بثبوت النواميس الكونية ذات أثر في النفوس وفيما يصدر عنها من حركات وأعمال . وهي حقيقة ضخمة هائلة كفيلة أن تواجه حقيقة الكفر المنعزلة المبتوتة وأن تقهرها .

ولكن حين يتحول الإيمان إلى مظهر فإن حقيقة الكفر تغلبه ، إذا هي صدقت مع طبيعتها وعملت في مجالها . لأن حقيقة أي شيء أقوى من مظهره ، ولو كانت هي حقيقة الكفر وكان هو مظهر الإيمان . . . والتاريخ خير شاهد على ما أقول . . .

ومن حقيقة الإيمان الثبات في ميدان القتال وذكر الله كثيراً عند لقاء العدو وعدم التولي يوم الزحف . . . لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٢) . وقوله أيضاً : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْاُدْبَارَ وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ دَبْرَهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مَتَحِيزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (٣) .

(١) تفسير القرآن الكريم / ١٥٤

(٢) الأنفال / ٤٥ .

(٣) الأنفال / ١٥ - ١٦ .

قال القرطبي (١) : (حرم الله على المؤمنين حين فرض عليهم الجهاد وقتال الكفار الفرار من الكفار وألا يعطوهم أديبارهم . قال ابن عطية : والأديبار جمع دبر ، والعبارة بالدبر في هذه الآية متمكنة الفصاحة ، لأنها بشعة على الفار ، ذامة له . والفرار كبيرة بظاهر القرآن وإجماع الأكثر من الأئمة) قال ابن عباس (٢) رضي الله عنه : (إن الفرار من الزحف من أكبر الكبائر) .

ويرشد الله تعالى المسلمين في هذه الآيات إلى مدد روعي يعينهم على الثبات ، ويمنحهم رباطة الجأش ساعة تزيغ الأبصار وتضطرب القلوب ، ذلكم هو ذكر الله كثيراً ، وذكر الله ليس نطق اللسان فحسب ، إنما قبل ذلك استحضر عظمة الله التي لا تُحد ، وقوته التي لا تُقهر ، ووعده الذي لا يتخلف وبهذا الذكر والاستحضار تقوى العزائم ، وتثبت الأقدام (٣) .

وقد لاحظنا أن الآيات أكدت مرتين أن فرار المسلم من القتال جريمة ، وصورت ذلك بصورة من يولي غيره دبره ، فمَن من المسلمين يرضى أن تسجل عليه هذه الصورة البشعة المخزية . ولكن من المسلمين من يتظاهر بالفرار ليستدرج عدوه بعيداً فيقتله على انفراد أو لينضم إلى طائفة من مقاتلي المؤمنين يراها أحوج إليه من الطائفة التي كان فيها ، وهؤلاء ، المتظاهرون بالفرار لأحد هذين السببين مقاتلون بارعون لا يُحسب عليهم تظاهروهم بالفرار بل لعله يحسب لهم (٤) .

(١) تفسير القرطبي ٣٨١/٧ وما بعدها .

(٢) الكشاف ١٤٩/٢ .

(٣) تفسير القرآن الكريم / ٥٨٠ / للشيخ شلتوت .

(٤) تفسير سورة الأنفال / ٣٩ د . مصطفى زيد .

وقد أمر الله المؤمنين أول الأمر أن يثبت الواحد أمام عشرة من الكفار ، ثم خفف عنهم فجعله يثبت لاثنين ، وألزمه الصبر والثبات وحرم عليه الفرار منهما .

﴿ يأيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون . الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله ، والله مع الصابرين ﴾ (١) .

قال ابن عباس (٢) : (نزلت : (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) فشق ذلك على المسلمين ، حين فرض الله عليهم ألا يفر واحد من عشرة ، ثم إنه جاء التخفيف . فلما خفف الله تعالى عنهم العدد نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم) .

وكثيراً ما يحدث هذا في معارك المسلمين فابن هشام يروي أن «أبا عامر الأشعري» قتل تسعة من المشركين مبارزة ثم حمل على العاشر فاستجار به فعفا عنه فأسلم . وقد روى الطبري وابن الأثير في حوادث سنة ١٣ هـ من أنه أحصى في معركة (البويب) بالعراق مائة مسلم قتل كل منهم عشرة من جنود الفرس ولهذا سُموا أصحاب «الأعشار» كما سُمي يوم المعركة يوم الأعشار (٣) .

ومما لا شك فيه أن الثبات عند لقاء العدو يُعد عاملاً من أجل

(١) الأنفال / ٦٥ ، ٦٦ .

(٢) تفسير القرطبي ٤٤/٨ .

(٣) تاريخ الطبري ٧٥/٤ والكامل ٦٣/٢ .

العوامل التي تساعد على الانتصار وهو دليل واضح على قوة الروح المعنوية التي هي الدافع القوي على القتال والاستبسال والاستماتة في القتال وقد انتصر المسلمون في كل غزواتهم بهذه الروح التي يبثها الإيمان في نفوس المحاربين فتضاعف إمكانياتهم الحربية وقدرتهم على مواجهة العدو .

فالثبات هو بداية الطريق إلى النصر فأثبت الفريقين أغلبهما ، وما الذي يزلزل أقدام الذين آمنوا وهم واثقون من إحدى الحسينيين الشهادة أو النصر بينما عدوهم لا يحرص إلا على الحياة الدنيا التي لا أمل لهم وراءها ولا حياة بعدها أو سواها ﴿ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ﴾ (١) .

وقال النيسابوري (٢) : بين الله سبب الغلبة فقال : ﴿ بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ أي بسبب أن الكفار قوم جهلة لا يعرفون معاداً ، وقد انحصرت السعادة عندهم في هذه الحياة العاجلة وأيضاً أنهم يعولون على قوتهم وشوكتهم ، والمسلمون يتوكلون على ربهم ويستغيثونه ، ويتوقعون منه إنجاز ما وعد من النصر والتأييد .

والتوكل على الله والثقة بوعده وتفويض الأمر كله إليه بعد اتخاذ كافة أسباب النصر التي أمر الله بها من جماع الإيمان وكماله . . . فقد دعا الله المجاهدين إلى التوكل عليه في آيات كثيرة لأنه يحب المتوكلين ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ (٣) . . ﴿ ومن يتوكل على الله فهو

(١) البقرة / ٩٦ .

(٢) غرائب القرآن / ١٠ / ٢٣ .

(٣) آل عمران / ١٦٠ .

حسبه ﴿ (١) ﴾ . . ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ (٢) . . ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم . وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين ﴾ (٣) . . ﴿ فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ﴾ (٤) .

وقال القرطبي (٥) : التوكل : الاعتماد على الله مع إظهار العجز .

وقوله تعالى : ﴿ فإذا عزم على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾ يقرن إمضاء العزيمة المستكملة لشروطها بالتوكل على الله ، وذلك لأن نقض العزيمة ضعف في النفس وزلزال في الأخلاق لا يوثق بمن اعتاده في قول ولا عمل .

وفسر ابن هشام (٦) قوله تعالى : ﴿ إذا عزم ﴾ أي على أمر جاءك مني وأمر من دينك في جهاد عدوك لا يصلحك ويصلحهم إلا ذلك ، فامض على ما أمرت به ، على خلاف من خالفك ، وموافقة من وافقك .

وقد نزلت الآية بمناسبة استشارة النبي أصحابه يوم «أحد» فلما أشاروا عليه بالخروج إلى لقاء عدوهم خارج المدينة ، وكان عليه الصلاة والسلام لا يرى ذلك وقد عرف الصحابة كراهية الخروج في وجهه ،

(١) الطلاق / ٣ .

(٢) المائدة / ٢٣ .

(٣) الأنفال / ٦١ ، ٦٢ .

(٤) يونس / ٧١ .

(٥) تفسير القرطبي ٣٤ / ٨ .

(٦) سيرة ابن هشام ٦٣ / ٢ .

فقالوا يا رسول الله استكرهناك ولم يكن لنا ذلك فإن شئت فاقعد صلى الله عليك وسلم فقال رسول الله : « ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل » (١) .

وقال القرطبي (٢) : ﴿ إذا عزمت فتوكل ﴾ أي ليس له إذا عزم أن ينصرف لأنه نقض للتوكل الذي شرطه الله عز وجل مع العزيمة ، ولذلك لم يصغ النبي إلى قول الذين أشاروا عليه بالعودة حين أرادوا الرجوع عن رأيهم فعلمهم بذلك أن لكل عمل وقتاً وأن وقت المشاورة قد انتهى وجاء دور العمل ، وأن الرأس إذا شرع في العمل تنفيذاً للشورى لا يجوز له أن ينقض عزمته ويُبطل عمله . ويمكن إرجاع ذلك إلى أخف الضررين ، وأي ضرر أشد من فسخ العزيمة ، وما فيه من الضعف والفشل وإبطال الثقة !؟

وقال الأستاذ الإمام : إن العزم على الفعل وإحكام الرأي والمشاورة وأخذ الأهبة فذلك كله لا يكفي للنجاح إلا بمعونة الله وتوفيقه لأن الموانع الخارجية له والعوائق دونه لا يُحيط بها إلا الله تعالى فلا بد للمؤمن من الاتكال على الله لا على حوله وقوته هو .

﴿ إن الله يُحب المتوكلين ﴾ على حوله وقوته ، مع العمل بالأسباب بسنته فأقول ومن أحب الله عصمه من الغرور باستعداده ، والركون على عدته وعتاده ، والبطر فيما يصرفه عن النظر فيما يعرض له بعد ذلك (٣) .

(١) المرجع السابق ٦٣/٢ تحقيق السقا والأبياري .

(٢) تفسير القرطبي ٢٥٢/٨ .

(٣) عن تفسير المنار ٢٠٥/٤ .

ولتقرير حقيقة التوكل على الله ، وإقامتها على أصولها الثابتة ، يمضي السياق فيقرر أن القوة الفاعلة في النصر والخذلان هي قوة الله ، فعندها يلتبس النصر ، ومنها تتقوى الهزيمة وإليها يكون التوجه ، وعليها يكون التوكل ، بعد اتخاذ الأسباب ، لأن التوكل محله القلب والعمل بالأسباب محله الأعضاء ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ﴾ . فيجب أن يتأكد المجاهد أن النصر والخذلان بيد الله وحده . فعليه أن يعتمد على قوة أعلى وأكمل ، ويجب أن يكون بها الثقة وعليها المعول ، وإليها الملجأ إذا انقطعت الأسباب وأغلقت الأبواب ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ وبذلك يخلص تصور المسلم من التماس شيء عند غير الله ويتصل قلبه مباشرة بالقوة الفاعلة في هذا الوجود . فينفذ يده من الأسباب الباطلة للنصرة والحماية ، والولاية ، ويتوكل على الله وحده في إحداث النتائج وتقبل ما يجيء به القدر في اطمئنان أياً كان .

وقد قرن الله تعالى التوكل بالمشاورة ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ يعني في أمر القتال ونحوه مما لا ينزل عليك فيه وحي لتستظهر برأيهم ، ولما فيه من تطيب نفوسهم والرفع من أقدارهم .

وعن الحسن رضي الله عنه : قد علم الله أنه ما به إليهم من حاجة ، ولكنه أراد أن يستن به من بعده .

ولقد التزم النبي عليه الصلاة والسلام بمبدأ الشورى في جميع غزواته ، مما كان له أطيب الأثر في رفع روح صحابته المعنوية وتشجيعهم على القتال . . .

هذا ولا بد من سلاح جديد يتسلح به المجاهد وبدونه يكون عُرضةً للهزيمة والخسران ألا وهو الصبر . وحسبنا أن نعلم أن كلمة الصبر

ومشتقاتها قد وردت في نحو مائة وعشرين آية . وهدف القرآن الكريم من هذه الآيات الكثيرة هو بث روح الجلد ورباطة الجأش وضبط النفس ، وعدم الجزع والهلع عند حلول المصائب ووقوع الشدائد . وذلك بأن الصبر يتجسد في أخلاق كثيرة كلها واجبة لتحقيق النصر . فالشجاعة هي الصبر على مكاره القتال ومواقف الحق ، والحلم هو الصبر على المثيرات والكتمان هو الصبر على أمانة الأسرار والزهد هو الصبر على الحرمان والعفاف هو الصبر على الشهوات . فإذا رسخ هذا الخلق في امرئ صار له من القوة المعنوية والشجاعة والجلد ما يمكنه من مواجهة الخطوب دون جزع . وتحمل المشاق والرضا بالمكروه والحرمان في سبيل الحق والكرامة ، والعزوف عن الشهوات والمثابرة على المقاصد النبيلة مهما عسرت وطال أمدها ، وغدا محل رضاء الله عز وجل والناس (١) .

ولما كانت الحرب بلاء الإنسانية لما يصحبها من نقص الأموال والأنفس والثمرات ، ومن خوف واضطراب وقلق ، فلا علاج لذلك إلا بالصبر ، فهو الإرادة القوية ، وهو العزم الصادق وهو الحزم الذي لا تدبر الأمور إلا به .

وإن هذا يُوجب على الجندي المؤمن أن يدرّب نفسه على الصبر في الشدائد . فالسيف لا يعمل في الحرب إلا إذا كان حامله جلدًا صبوراً . وقد ناط القرآن الكريم التغلب على أعداد الأعداء الكثيرة بالصبر . ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ (٢) .

(١) الدستور القرآني ٣٦١/٢ .

(٢) البقرة / ٢٤٩ .

وقد بين سبحانه وتعالى أن الصبر على مشاق الحرب هو أساس النصر والفلاح ، ولا نصر بدون صبر ، وأثنى كثيراً على الصابرين في البأساء والضراء .

﴿ والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ (١) . . ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾ (٢) . . ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ (٣) .

والله سبحانه يكشف عن نوع آخر من أنواع الصبر وهو الصبر على النصر المؤقت ، ذلك أنه عندما يكون للمؤمنين غلب في أثناء المعركة ، فإن في هذه الحال ربما يكون المجاهد في حاجة إلى الصبر أكثر من أي حال أخرى ، فهو صبر النفس أن يصيها غرور النصر الوقتي ، إذ هو في حاجة إلى مقاومة الاغترار به لكي لا يضيع من يده ، وذلك بمقاومة النفس التي تريد المتعة العاجلة فلا تتركها ، ولا تفكر في النعمة الآجلة ، وإن النعم كالنقم تحتاج إلى صبر وقوة احتمال نفسي ، وهو أشد على النفس من الشدة المادية ، ولقد كان درس غزوة «أحد» درساً لا ينسى للغرور بالنصر المؤقت ، فلو صبر الرماة لما كانت تلك الجراح الشديدة التي أصابت إخوانهم المجاهدين وغيرت وجه المعركة من النصر إلى الهزيمة . . .

(١) البقرة / ١٧٧ .

(٢) البقرة / ٢١٤ .

(٣) آل عمران / ١٤٢ .

وقد أرشد الله المجاهدين إلى غذاء روحي قوي ألا وهو التزود بالتقوى . واعتبر القرآن التزود بالتقوى خير زاد للمجاهد في سبيل الله : ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب ﴾ (١) . . . ﴿ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ﴾ (٢) .

﴿ وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾ (٣) .

والله سبحانه يحب المتقين ، وهو وليهم وناصرهم ، وهو معهم في كل معركة يخوضونها في سبيله .

﴿ وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين ﴾ (٤) .
 ﴿ بلى من أوفى بعهدده واتقى فإن الله يحب المتقين ﴾ (٥) . . . ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ (٦) . . . ﴿ وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون ﴾ (٧) .

فالتقوى صيانة للنفس من كل ما يندسها ، وإذا اتقى المجاهد ربه حق تقواه امتلأت نفسه بعظمته وقدرته ، فصغر عنده وحقر كل ما سواه ، لأن قوته من قوة الله سبحانه ، وقد جعل الله الصبر والمصابرة والمرابطة وتقوى الله دستور النجاح والفلاح والفوز في كل معركة ﴿ يأياها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ (٨) .

(١) البقرة / ١٩٧ .

(٢) آل عمران / : ١٢٠ .

(٣) آل عمران / ١٨٦ .

(٤) الجاثية / ١٩ .

(٥) آل عمران / ٧٦ .

(٦) النحل / ١٢٨ .

(٧) الزمر / ٦١ .

(٨) آل عمران / ٢٠٠ .

وقد نبه تعالى تنبيهاً مستمر المدى والتلقين إلى ما يضمن للمجاهدين في سبيله النصر والفوز والفلاح والقوة والاستعلاء من الصبر والثبات والتقوى والاستعداد الدائم للعدو . أما وقد تحدثنا عن الصبر والمرابطة والتقوى فلم يبق علينا إلا الحديث عن (المصابرة) وهي سر من أسرار النصر والفلاح . . والمصابرة باب من أبواب الصبر ذكر بعده على ما يجب الصبر عليه تخصيصاً لشدته وصعوبته (١) .

وقد كشف سبحانه عن علة المصابرة التي يكون من بعدها النصر ﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ﴾ (٢) . أي فلا يغلبوكم بالصبر على قرحهم ، أكثر من صبركم على قرحكم .

وقوله تعالى : ﴿ إن تكونوا تآلمون فإنهم يألمون كما تآلمون وترجون من الله ما لا يرجون ﴾ (٣) . أي عندكم سبب للمصابرة ليس عندهم على استوائهم وإياكم في تحمل الأذى والألم .

وقد نبه الله المجاهدين إلى ناحية من شأنها أن تقوي روحهم المعنوية تلك الناحية هي الالتجاء إلى الله والاتصال به عن طريق القيام بأحب واجب ديني إليه وهو الصلاة .

﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾ (٤) وفي نفس السورة قوله تعالى : ﴿ يأيتها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ﴾ (٥) .

(١) الكشاف ١/٤٩١ .

(٢) آل عمران / ١١٠ ، الأنفال / ١٨

(٣) النساء / ١٠٤ .

(٤) البقرة / ٤٥ .

(٥) البقرة / ١٥٣ .

ولا ريب أن الصلاة مناجاة بين العبد وربّه تبعث على مراقبة الله، واستشعار عظمته وتجعل الإنسان في حذر دائم من مخالفة أحكامه أو التقصير في حدوده وبذلك يكمل للروح تهذيبها، وللنفس قوتها وصلتها بالله القوي العزيز.

وحرصاً على هذا الغذاء الروحي لنفوس المجاهدين فقد رخص سبحانه كيفية خاصة لأدائها لا تُباح إلا في وقت الحرب والخوف تلك الصلاة هي (صلاة الخوف) أو صلاة الحرب وفيها يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا، إِنْ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا، وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتِهِمْ فِإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وِرَائِكُمْ وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يَصِلُوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ﴾ . . . إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنْ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ (١).

وبعد: هذه هي الإرشادات والبيانات الإلهية للمجاهدين إذا ساروا عليها قويت روحهم المعنوية وكان الله معهم في كل خطوة يخطونها يمدهم بعون من عنده، ويربط على قلوبهم ويثبت أقدامهم، وينزل عليهم ملائكته ويسخر الطبيعة كلها لمعاونتهم وشد أزهم. وليس هذا فحسب بل إنه سبحانه يسلط الشياطين على المجرمين تؤزهم أزا، تنزل أقدامهم وتبث الرعب في قلوبهم، ولا يجدون لهم ولياً ولا نصيراً.

(١) النساء / ١٠١ - ١٠٣.

قال تعالى : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين ، وما جعله الله إلا بشري ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم . . إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام . إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾ (١) .

نزلت هذه الآيات الكريمة في موقعة «بدر الكبرى» حين اشتدت المعركة وقطع المسلمون صلتهم بالدنيا واستغرقوا في الجهاد، ولم يكن في أذهانهم إلا الله ورسوله وجهاد في سبيله وأيقنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه فاتجهوا بقلوبهم وأرواحهم نحو ربهم قوي الأقوياء يطلبون من فضله العون والنصر الذي وعدهم به فشملتهم العناية الربانية، وأمدهم الله بقوة من قوته ونصر من عنده فازدادت حماستهم، وارتفعت حرارتهم، وتضاعفت قواهم حتى ليحس الواحد منهم أنه صار كفتاً لعشرة من المشركين، وأن يد الله فوق يده تحرك سيفه فيضرب وتسد رميته فيرمي، وإنه في حشد من جنود الله لا يراهم ولا يدرك كنههم ولا يعرف عددهم وتضاءلت في أعين المؤمنين كثرة المشركين، فجعلوا يفترسونهم كما تفترس الذئاب الغنم ويكتسحونهم كما يكتسح السيل الغناء، وانعقد فوق المعركة جو رهيب، ملأ قلوب المشركين بالرعب بقدر ما ملأ قلوب المؤمنين بالقوة والثبات .

وهكذا تصدعت جموع المشركين أمام قوة الإيمان .

(٤) الأنفال / ٩ - ١٢ .

وقال القرطبي^(١): وقد نبه تعالى إلى حقيقة النصر بأنها من عند الله لا من عند الملائكة فلولا نصره لما انتفع بكثرة الملائكة . . وقد غشاهم الله بالنعاس في الليلة التي كان القتال من غدها، فكان النوم عجباً مع ما كان بين أيديهم من الأمر المهم، ولكن الله ربط جأشهم . وفي امتنان الله عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان: أحدهما: أن قواهم بالاستراحة على القتال من الغد، والثاني: أن أمنهم بزوال الرعب من قلوبهم فيقال الأمن مُنيم والخوف مُسهر . . .

وأنزل عليهم المطر ليلة بدر حتى سالت الأودية، فشربوا وتطهروا، وسقوا الظهر وتلبدت السبخة التي كانت بينهم وبين المشركين حتى تثبت فيها أقدام المسلمين وقت القتال .

وقال ابن القيم^(٢): (وأنزل الله في تلك الليلة مطراً واحداً . فكان على المشركين وبالاً شديداً، منعهم من التقدم وكان على المسلمين طلالاً طهرهم به وأذهب عنهم رجس الشيطان ووطأ به الأرض وصلب به الرمل وثبت الأقدام ومهد به المنزل وربط به على قلوبهم) .

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ . . هذه نعمة أخرى خفية أظهرها الله تعالى للمؤمنين، ليشكروه عليها، وهو أنه تعالى أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر دينه ونبيه ومن معه من المؤمنين أن يعملوا على تثبيت المؤمنين وتقويتهم ورفع روحهم المعنوية وأنه سبحانه سيعين المؤمنين ويؤيدهم وسيملأ قلوب الكافرين رعباً وهلعاً،

(١) تفسير القرطبي ٧/٣٧٠ .

(٢) زاد المعاد ٢/٨٦ .

وسيضعف روحهم ويثبط عزائمهم، ويوهن قواهم حتى تخور، ويملأهم الجبن والفزع^(١).

وكل هذا تأييد رباني لرسول الله وللذين آمنوا معه يدخل في نطاق المعجزات ويمكن أن يتكرر في كل موقف جهادي إيماني يقفه المؤمنون الصادقون من أعداء الله وأعدائهم^(٢).

فقد قال تعالى في موقعة «أحد»: ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون . إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين . وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكتبهم فينقلبوا خائبين ﴾^(٣).

وفي موقعة «الأحزاب» قال تعالى: ﴿ يأيتها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً ﴾^(٤).

وفي غزوة «حنين» قال تعالى: ﴿ لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضائق عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين، ثم أنزل الله سكينته على رسوله

(١) تفسير سورة الأنفال والنجم / ٦٢ د. علي الجندي.

(٢) التفسير الحديث ١٤/٧ محمد دروزة.

(٣) آل عمران / ١٢٣ - ١٢٧.

(٤) الأحزاب / ٩.

وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الله الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ﴿ (١) .

وليست هذه الغزوات هي الوحيدة التي كان الله تعالى حاضراً فيها مع المؤمنين، فهو سبحانه معهم في جميع غزواتهم وهو وليهم وناصرهم ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴿ (٢) .

قال القرطبي (٣): (ثم أنزل سكينته) أي أنزل عليهم ما يسكنهم، ويذهب خوفهم، حتى اجترءوا على قتال المشركين بعد أن ولوا ﴿ وأنزل الله جنوداً لم تروها ﴿ وهم الملائكة، يقوون المؤمنين بما يلقون في قلوبهم من الخواطر والتشيت، ويضعفون الكافرين بالتجيين لهم من حيث يرونهم من غير قتال، لأن الملائكة لم تقاتل إلا يوم (بدر).

ومن ثم يبين الله للمجاهدين حقيقة النصر وأنها ليست بالكثرة العددية والعدة المادية وحدها فإن الكثرة قد تخدع، وأن القوة قد تخون، وأن النصر بيد الله وحده، فليثبت الذين آمنوا إذن حين يلقون عدوهم، وليتزودوا بالعدة الحقيقية للمعركة، وليأخذوا بالأسباب الموصولة بصاحب التدبير والتقدير. . وصاحب العون والمدد، وصاحب القوة والسلطان، وليتجنبوا أسباب الهزيمة التي هزمت الكفار على كثرة العدد ووفرة العدد. وليتجردوا من البطر والغرور وليتحرروا من خداع الشيطان الذي أهلك الكافرين.

(١) التوبة / ٢٥ - ٢٧ .

(٢) محمد / ١١ .

(٣) تفسير القرطبي ١٠١/٨ .

وقد أدرك الصحابة المجاهدون هذه الحقائق، ونطقت بها أفعالهم وأقوالهم.

فهذا الإمام المجاهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: (إنَّ هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا قلة، وهو دين الله الذي أظهره، وجنده الذي أعده، وأمه حتى بلغ ما بلغ ونحن على موعد مع الله، والله منجز وعده وناصر جنده.. إلى قوله: (فإنَّا لم نقاتل بالكثرة وإنَّما كنا نقاتل بالنصر والمعونة^(١)).

وتأييد الله للمؤمنين الذين أخلصوا النية في جهادهم لله، وتجردوا من كل خاطر لا يقف عند حد إمدادهم بالملائكة، وإنزال المطر والسكينة، وقذف الرعب في قلوب أعدائهم.. إلخ.. بل يؤكد تعالى في أكثر من موضع أنه مع المؤمنين في قتالهم لأعدائهم ويكفي أن يشعر المجاهد أن الله معه لترتفع روحه المعنوية إلى حد الإيمان الكامل بالنصر..

﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إنَّ الله لقوي عزيز ﴾^(٢)، ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾^(٣).

وقد جعل الله تثبيت المؤمنين وبث الرعب في قلوب المشركين سنة كونية ليزداد المؤمنون، إيماناً مع إيمانهم وقوة معنوية إلى قوتهم.

﴿ سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ﴾^(٤)،

(١) نهج البلاغة ١/ ٢٨٣ شرح محمد عبده.

(٢) المجادلة / ٢١ .

(٣) إبراهيم : ٣٧ .

(٤) آل عمران / ١٥١ .

﴿ وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً ﴾^(١) ، ﴿ وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾^(٢) . ﴿ سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق ﴾^(٣) .

قال الأستاذ الإمام محمد عبده: كأنه تعالى يقول: هذه هي الطبيعة مع المشركين إذا قاوموا المؤمنين فلا تخافوهم. وبهذا يندفع قول من يقول: ما بالنا نجد الرعب كثيراً ما يقع في قلوب المسلمين ولا يقع في قلوب الكافرين؟ فإن الذين يسمون أنفسهم مسلمين قد يكونون على غير ما كان عليه أولئك الذين حوطبوا بهذا الوعد من قوة اليقين والإذعان، والثبات والصبر وبذل النفس في سبيل الله وتمني الموت في الدفاع عن الحق. فمعنى المؤمنين غير متحقق فيهم وإنما رعب المشركين مرتبط بإيمان المؤمنين وما يكون لهم من الآثار. فحال المسلمين اليوم لا يقوم حجة على القرآن لأن أكثرهم قد انصرفوا عن حقيقة الإيمان والعمل به. فالقرآن باقٍ على وعده. ولكن أين المؤمنون الذين ينطبق عليهم هذا الوعد^(٤).

وقال ابن جرير: (إني سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب الذي به أنصركم عليهم بما أشركوا بي، فلا تظنوا أن لهم عاقبة نصر، ولا ظهور عليكم ما اعتصمتم واتبعتم أمري)^(٥).

(١) الأحزاب / ٢٦ .

(٢) الحشر / ٢ .

(٣) الأنفال / ٢ .

(٤) عن تفسير المنار ٤ / ١٧٩ .

(٥) تفسير الطبري ٢ / ١٢٤ .

وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال: «نُصرت بالرعب مسيرة شهر»^(١) فالمسلمون الأولون قد انتصروا بشهرتهم التي تسبقهم وتقوي من روحهم وتضعف من روح عدوهم وهذا ما قرره العلامة ابن خلدون (إنَّ من أقوى أسباب الانتصار، ورفع روح الجند ذبوع الشهرة وبُعد الصيت، وتناقل أخبار النصر، فبه يُلقى العدو سلاحه، ويفقد روح المقاومة)^(٢).

فكثيراً ما كان أعداء المسلمين يمتثلون رعباً لمجرد رؤية المسلمين. فلما أراد المشركون يوم بدر مثلاً أن يستوثقوا من رجال المسلمين قبل أن ينازلوهم، أرسلوا عُمير بن وهب الجُمحي يحرز لهم أعدادهم فلما اطلع عمير على المسلمين أخذ بمنظرهم الذي يبعث الرعب ويستوجب الحذر، ورجع إلى قومه فقال: يا معشر قريش: البلىا تحمل المنايا. . نواضح يثرب تحمل الموت الناقع. . قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم. . والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم^(٣). هذا وقد حرصت آيات الجهاد أن تبقي روح المجاهدين قوية وألا تشعر بالخوف من الأعداء وإن كثر عددهم وعتادهم، لأن الله مع المؤمنين، ومن كان الله معه فلن يغلبه أحد مهما كانت قوته. ﴿إنما ذلكم الشيطان يُخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾^(٤). ﴿فمن تبع هُداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾^(٥).

(١) صحيح البخاري ٥٤/٥ باب الجهاد.

(٢) مقدمة ابن خلدون / ٣٣٦.

(٣) سيرة ابن هشام ٦٢٢/٢.

(٤) آل عمران / ١٧٥.

(٥) البقرة / ٣٨، ١٥٥، ٢٦٢، ٢٧٤، ٢٧٧ وآل عمران / ١٧٠، ٤٠٠.

﴿ الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجرٌ عظيم، الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ (١).

قال الرازي (٢): الشيطان يخوف أولياءه الذين يطيعونه ويؤثرون أمره، فأما أولياء الله، فإنهم لا يخافونه إذا خوفهم ولا ينقادون لأمره ومراده، لأن الإيمان بالله جعلهم يؤثرون خوف الله على خوف الناس).

وقال الأستاذ الإمام: (إن قوله تعالى: ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ يفيد وجوب توثيق الإيمان بالله في القلب قبل كل شيء لأن تلك الخواطر والهواجس التي تحدث الخوف من أولياء الشيطان لا يمحوها من لوح القلب إلا الإيمان الصحيح الثابت وفي قوله: ﴿ إن كنتم ﴾ إشارة إلى أن إيمان من يرجح الخوف من أولياء الشيطان على الخوف من الله تعالى مشكوك فيه.

ومن تدبر هذه الآية حق التدبر علم أن المؤمن الصادق لا يكون جباناً أبداً، فالشجاعة وصف ثابت له. ومن بحث عن علل الأشياء يرى أن علة الجبن هي الخوف من الموت والحرص على الحياة، مما لا يتسع له قلب مؤمن ولا يزال العالم يشهد أن الجيش الإسلامي أشجع جيوش الملل كلها (٣).

وقال ابن جرير (٤): (فلا تخافوا أيها المؤمنون المشركين، ولا

(١) آل عمران / ١٧٢، ١٧٣.

(٢) التفسير الكبير ٩ / ١٠٣.

(٣) تفسير المنار ٤ / ٢٤٦.

(٤) تفسير الطبري ٤ / ١٨٣.

يعظمن عليكم أمرهم ولا ترهبوا جمعهم مع طاعتكم إياي ما أطعتموني ،
واتبعتم أمري وإني متكفل لكم بالنصر والظفر، ولكن خافوني واتقوا أن
تعصوني ، وتخالفوا أمري فتهلكوا إن كنتم مؤمنين) .

وقال تعالى : ﴿ ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر، إنهم لن
يضروا الله شيئاً يريد الله ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة ولهم عذاب
عظيم ﴾ (١) .

قال الأستاذ الإمام (٢): (المسارعة في الكفر هي المسارعة إلى
نصرته والاهتمام بثبوتها والإيجاب في مقاومة المؤمنين . وقوله تعالى :
﴿ إنهم لن يضروا الله شيئاً ﴾ أي إنهم لا يحاربونك فيضروك بذلك وإنما
يحاربون الله تعالى ولا شك في ضعف قوتهم وعجزها عن مناوأة قوته عز
وجل فهم لا يضررون بذلك إلا أنفسهم) .

وكما أشار سبحانه إلى أسرار قوة الروح المعنوية أشار أيضاً إلى
عوامل ضعفها، فحذر المؤمنين المجاهدين منها: ﴿ ولا تهنوا ولا
تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ (٣)، ﴿ ولا تهنوا في ابتغاء القوم
إن تكونوا تآلمون فإنهم يآلمون كما تآلمون وترجون من الله ما لا يرجون
وكان الله عليمًا حكيمًا ﴾ (٤). ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم
الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم ﴾ (٥) . ﴿ ذلكم وأنّ الله موهن
كيد الكافرين ﴾ (٦) .

(١) آل عمران / ١٧٦ .

(٢) عن تفسير المنار ٤/ ٢٤٨ .

(٣) آل عمران / ١٣٩ .

(٤) النساء / ١٠٤ .

(٥) محمد / ٣٥ .

(٦) الأنفال / ١٨ .

وقال الزمخشري (١) : ﴿ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ ﴾ شأناً لأن قتالكم لله وإِعلاء كلمته وقاتلهم للشيطان وإِعلاء كلمة الكفر، ولأن قتالكم في الجنة.. وقاتلهم في النار، وهي بشارة بالعلو والغلبة. ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ متعلق بالنهي عن الوهن بمعنى ولا تهنوا إن صح إيمانكم على أن صحة الإيمان تُوجب قوة القلب والثقة بصنع الله وقلة المبالاة بأعدائه .

وقد ضرب الله تعالى مثلاً بالمجاهدين من أتباع الأنبياء السالفين الذين لم يلحقهم وهن ولا ضعف لما أصابهم في سبيل الله حتى يتأسى المؤمنون بهم .

﴿ وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين . وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين ﴾ (٢) .

ففي الآيات درس من دروس التربية العالية بقتل الأولين في الصبر وعدم الضعف والاستكانة إذا قتل القائد والمدبر، لأن خالقه سبحانه موجود فليتجه المجاهد بقلبه دائماً إلى الله يطلب منه النصر والمغفرة ﴿ ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ . وفي هذه الآية إيماء إلى أن الذنوب والإسراف في الأمور من عوامل الخذلان، والطاعة والثبات والاستقامة من أسباب

(١) الكشاف ٤٥٦/١ وانظر تفسير المنار ١٤٤/٤، القرطبي ٢١٦/٧ .

(٢) آل عمران / ١٤٦ - ١٤٨ .

النصر والفلاح، ومن ثم سألوا ربهم أن يمحو من نفوسهم أثر الذنوب، وأن يوفقهم إلى دوام الثبات حين تزل الأقدام. وفي طلبهم النصر من الله مع كثرة عددهم التي دل عليها قوله: ﴿ربيون كثير﴾ إعلام بأنهم لا يعولون على كثرة العدد بل يطلبون العون والمدد الروحاني من الله بثبات الأقدام^(١). وقد وعى صحابة رسول الله هذه الدروس القيمة وعملوا بمقتضاها وأوصوا بها عامتهم وخاصتهم. وما أحرانا اليوم أن نتدبر وصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقائد جيشه سعد بن أبي وقاص حتى نحقق النصر على أعدائنا: «أمرك ومن معك من الأجناد أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون لمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا قوة بهم، لأن عددنا ليس كعددهم، ولأن عدتنا ليست كعدتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا، وإلا ننصر عليهم بفضلنا، لم نغلبهم بقوتنا، ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلطه الله علينا وإن أسأنا، فرب قوم سلط الله عليهم من هم شر منهم^(٢)».

وبهذه البيانات الإلهية عن أسرار القوة المعنوية، وبهذا الفهم الصحيح والتطبيق الكامل لها، شهد العالم قديماً وحديثاً للمجاهدين الأولين بقوة معنوية فعلت المعجزات، حتى ظننها البعض ضرباً من الخوارق. ونضرب هنا مثلاً واحداً لبيان أثر هذه الروح المعنوية في جند الإسلام الأول.

روى ابن إسحق عن معاذ بن عمرو بن الجموح أخي بني سلمة

(١) تفسير المراغي ٩٤/٤.

(٢) نظم الحرب في الإسلام / ٤٣ جمال الدين عياد.

قال : سمعت القوم وهم يقولون : أبو الحكم لا يُخلص إليه . فلما سمعتها جعلته من شأني فصمدت نحوه ، فلما أمكنتني حملت عليه فضربته ضربة أطنت قدمه بنصف ساقه ، وضربني ابنه عكرمة على عاتقي ، فطرح يدي ، فتعلقت بجلدة من جنبي ، وأجهضني القتال عنه ، فلقد قاتلت عامة يومي ، وإني لأسحبها خلفي ، فلما آذنتي وضعت عليها قدمي ثم تمطيت عليها حتى طرحتها^(١) .

فهذا هو سحر الروح المعنوية ، رجل يتخلى عن ذراعه بتلك الطريقة ، ولا يمنعه ألمها ، ولا الدم الذي ينزف منها عن مواصلة القتال . ذلك لأن قوة روحه طغت على كل ما يؤلمه . ويسير علينا أن نقدر هذا إذا ذكرنا ما لازدياد القوة المعنوية من أثر في النفس متى توافرت أسباب ازدياد هذه القوة فيها . والذين يذكرون ما قام به الحلفاء في الحرب الكبرى من دعوة واسعة النطاق ضد الألمان أساسها أنهم يدافعون عن قضية الحرية والحق ويمهدون لعهد سلام ونور ، يدركون ما كانت تضاعف هذه الدعوة من قوة في نفوس جنود الحلفاء . وما الوطنية وما قضية السلام إلى جانب ما كان يدعو إليه رسول الله إلى اتصال الإنسان بالوجود كله اتصالاً يندمج به فيه ويصبح معه قوة من قوى الكون . نعم ما الوطنية وما قضية السلام إلى جانب الوقوف إلى جانب الله ودفع الذين يفتنون المؤمنين عن دينه ، ويصدون عن سبيله ، وإذا كانت النفس يزيدها حب الوطنية قوة بمقدار ما في الوطن كله من قوة ويزيدها حب السلام للإنسانية كلها قوة . بمقدار ما في الإنسانية من قوة فما أكثر ما يزيدها الإيمان بالوجود كله وبخالق الوجود كله من قوة . إنه ليجعلها قديرة أن

(١) سيرة ابن هشام ٢/٦٣٤ ، ٦٣٥ تحقيق الأبياري (أجهضني : غلبنى واشتد علي .

تسير الجبال وتحرك العوالم، وتهيمن بسلطانها المعنوي على كل من كان أقل منها في هذا الأمر إيماناً^(١). وقد كان للقوة المعنوية الفضل الأكبر في انتصارات المسلمين منذ عهد رسول الله وحتى آخر الفتوحات العظيمة التي بلغت الصين شرقاً وفرنسا غرباً.

وقد أدرك بعض المستشرقين وكتاب الغرب هذه الحقيقة. يقول المستشرق الأمريكي (لوثرود ستودارد Lothrop Stoddard): قرأت في تواريخ كثيرة ما يدل على حيرة المؤلفين في هذا الحادث العجيب ألا وهو سرعة انتشار الإسلام ومنها تأليف حديث العهد اسمه (العالم الإسلامي) لكاتب اسمه (ماكس ماير هوف) قال فيه: يكاد يكون مستحيلاً أن نفهم كيف أن أعراباً منقسمين إلى عشائر، ليست عندهم العدد والعتاد اللازم، يهزمون في مثل هذا الوقت القصير جيوش الرومان والفرس الذين كانوا يفوقونهم مراراً في الأعداد والعتاد وكانوا يقاتلونهم وهم كتائب منظمة.

والجواب: إن هذا المستحيل بزعمه ليس في الحقيقة بمستحيل إذا نظر إلى القوة المعنوية التي أوجدها القرآن في اتباعه^(٢).

القوة الثالثة: هي التنظيم العملي للقتال:

رسم القرآن الكريم للمجاهدين في سبيله طريق النصر واضحاً، وبين لهم الخطة التنفيذية للمعركة، وهو ما يعرف اليوم باسم (استراتيجية المعركة). وقد تناول القرآن الكريم هذه الناحية من جوانب متعددة منها:

(١) حياة محمد / ٢٦٤ محمد حسين هيكل.

(٢) حاضر العالم الإسلامي / ٢٨.

أولاً : القيادة :

لقد ربي الله تعالى المسلمين بالقرآن ، فتخلقوا بأخلاقه ، وجعل لهم في رسول الله أسوة حسنة ، وقيادة حكيمة وأمرهم بطاعته واتباع سنته وقال ﴿ وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾^(١) . فكان هو الرسول والقائد والمشرع والمعلم الأول للإنسانية كلها . وكانت أخلاقه القرآن ، وأثنى تعالى عليه بقوله : ﴿ وإنك لعلی خلق عظیم ﴾^(٢) .

عن سعد بن هشام قال : سألت عائشة رضي الله عنها فقلت : أخبريني يا أم المؤمنين عن خلق رسول الله فقالت : أتقرأ القرآن؟ نعم ، فقالت : كان خلقه القرآن^(٣) .

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة من شأنها أن تعطينا صورة صادقة لصفات قائد الجهاد الإسلامي وبطله دون منازع ، تغني كثيراً عن المبالغات التي يعمد إليها بعض المتحمسين للإسلام على غير هدى وبصيرة ، وترد على سفهاء المستشرقين والمبشرين الذين يرمون رسول الله بأرذل الصفات ، ويتجاهلون نصوص القرآن الثابتة ، ويتمسكون ببعض الروايات المدسوسة ليشوهوا حقيقة الجهاد وسمعة قائده عليه الصلاة والسلام .

فليس أدل ولا أصدق من وصف القرآن الكريم له ﴿ بالخلق العظيم ﴾ . فهذه شهادة رب العالمين له بالسمو والعظمة والكمال . وأكدت آية الأنعام ﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما

(١) الحشر / ٧ .

(٢) القلم / ٤ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤/٤٠٢ .

أوتي رسل الله، الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴿١﴾، على استحقاق الرسول للقيام بهذه الوظيفة التي اختاره الله لها من بين سائر خلقه .

فهذا تقرير رباني بأن النبي ﷺ قد وصل إلى الذروة من عظمة الخلق وقوة الروح وصفاء النفس وكبر القلب ورجاحة العقل، فاستأهل بذلك أن يكون موضع اصطفاء الله ورسالته لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

فمقام الرسالة من الرفعة والعظمة لا يُسامى ويقتضي من المؤهلات الشخصية والخلقية والروحية ما لا يمكن أن يوجد فيمن وصلت فيه هذه المؤهلات إلى ذروة الكمال الإنساني (٢).

وفي سورة آل عمران قوله تعالى : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾ (٣). وقد جمعت هذه الآية كل صفات القيادة المثالية التي تعارف عليها قادة الحرب الحديثة بل زادت عليها أموراً لا يدرك كنهها العسكريون المحدثون. ﴿ وإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ فالاعتماد على الله وتفويض الأمر كله إليه ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ بعد اتخاذ كافة أسباب النصر شيء لا يعرفه قادة الحروب الحديثة، بل ربما لا يعتقدون به .

(١) الأنعام / ١٢٤ .

(٢) سيرة الرسول ٥٨/١ محمد عزة دروزة .

(٣) آل عمران / ١٥٩ .

وقد قررت الآية الكريمة إلى جانب ذلك دماثة خلقه عليه الصلاة والسلام ولين جانبه وحسن معاملته، والتنزه عن القسوة والغلظة.

قال الأستاذ الإمام محمد عبده^(١): (الفاء للتعقيب لأن الكلام في واقعة (أحد) التي خالف النبي فيها بعض أصحابه فكان لذلك من الفضل وظهور المشركين ما كان، حتى أصيب النبي مع من أصيب، فكان من لينه في معاملتهم ومخاطبتهم ومن رحمته بهم أن صبر وتجلد فلم يتشدد في عتب ولا توبيخ اهتداء بكتاب الله تعالى).

فكان الله تعالى يقول: (إنه كان من أصحابك يا محمد ما كان، كما دلت عليه الآيات مما يؤخذون عليه فلنت لهم، وعاملتهم بالحسنى. بسبب رحمة عظيمة أنزلها الله على قلبك وخصك بها فعمت الناس فوائدها وجعل القرآن ممدداً لها، لأن الفظاظ والشراسة والخشونة في المعاشرة، وهي من الأخلاق المنفرة للناس مما لا يصبرون معها على معاشرة صاحبها، وإن كثرت فضائله، بل يتفرقون من حوله ويتركونه وشأنه لا يباليون بما يفوتهم من منافع الإقبال عليه والتعلق حوله).

وقد وصف الله الرسول بالرحمة كثيراً ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾^(٢).

فهذه الآية تصور رحمته وشفقته المتناهية، فهو شديد الحرص عليهم يتحمل الأذى والآلام في سبيل التخفيف عنهم وتيسير حياتهم.

وكان لهذه الأخلاق الكريمة الفضل في تعلق أصحابه به وحبهم

(١) عن تفسير المنار ٤/١٩٨.

(٢) التوبة/١٢٨.

الشديد له وتفانيهم في سبيله وفنائهم فيه، وهذا ما يفسر نجاح قيادته فيهم وانتصاره بهم على أعداء أقوى منهم عدداً وعتاداً.

روى ابن هشام عن عروة بن مسعود سفير قريش يوم الحديبية إلى رسول الله حين جاء يفاوض رسول الله على الرجوع عن زيارة البيت الحرام . . وكان في أثناء حديثه يتناول لحية رسول الله وهو يكلمه، جرياً على عادة العرب عند الملاطفة والرغبة في التواصل والتراحم، وكان المغيرة بن شعبة واقفاً على رأس رسول الله في الحديد، فجعل يقرع يده إذا تناول لحية رسول الله، ويقول: أكفف يدك عن وجه رسول الله قبل أن لا تصل إليك، فيقول عروة وهو لا يعرفه: ويحك . . ما أفظك وأغلظك فيبتسم رسول الله . وانصرف عروة عن رسول الله وهو مأخوذ بما رأى من حب أصحابه له، وتعظيمهم إياه وتسابقهم على طاعته فقال لقريش: «لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ولا يبصق بصاقاً إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شعرة إلا أخذوها، ثم قال: يا معشر قريش، إنني جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإنني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً» (١).

وكان خبر انتقاله إلى الرفيق الأعلى صدمة زلزلت أقدام صحابته وأذهلت عقولهم فقال قائلهم من هول الفاجعة: (لم يمت رسول الله، والله ما مات رسول الله، ولا يموت حتى يقطع أيدي أناس من المنافقين كثير وأرجلهم)، وكان صاحب هذه المقالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، على رجاحة عقله وقوة يقينه وهو من هو.

فلما قام أبو بكر رضي الله عنه وقال: «من كان يعبد محمداً فإن

(١) سيرة ابن هشام ٧٩/٤ تحقيق محيي الدين عبد الحميد.

محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت»، وتلاهذه الآية: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾^(١)، فقال عمر: «فلكأنني لم أسمعها إلا يومئذٍ. ورجع عن مقالته التي قالها»^(٢). في هذين المثالين دلالة واضحة على حب صحابة رسول الله له، أحدهما في حياته والآخر في مماته فكان كما قال الصديق (طبت حياً وطبت ميتاً يا رسول الله) وسيرته كلها شواهد صادقة على هذا الحب والوفاء الذي عمر قلوب صحابته فكان حبهم له أكثر من حبهم لأنفسهم.

وقد أدرك علماء النفس العسكريون ضرورة المحبة والثقة المتبادلة بين القائد وجنوده حتى تقوى المعنويات ويتحقق النصر.

قال صاحب (فصول من علم النفس العسكري): «عامل جديد يبرز أمامنا كمثير هام لإثارة روح معنوية عالية أو منخفضة هو شخصية القائد ومن يعمل تحت إمرته من الضباط. وتبدو لنا أهمية هذا العامل إذا أدركنا أن جهاز القيادة إنما هو رمز السلطة التي تدفع الجنود إلى القتال، فإذا استطاع هذا الجهاز أن يؤدي واجبه من حيث العناية بالجنود والاهتمام بمتاعبهم ومشاكلهم وحاجاتهم وإتاحة الحلول والإشباع لها، فإنه يكتسب بذلك ثقتهم في قدرته وارتياحهم له كمصدر للرعاية»^(٣).

ويقول الجنرال (ويفل) في حديثه عن القائد، في كتابه (القادة والقيادة): «يجب أن يكون القائد على خلق، وأن يكون متحملاً ومتفهماً

(١) آل عمران / ١٤٤.

(٢) تفسير القرطبي ٤/ ٢٢٢، ٢٢٣.

(٣) فصول في علم النفس العسكري / ١١٦ (رائد بحري) محمد عاطف السعيد.

تماماً لصفات (الإنسانية) والأخلاق هي الناحية المعنوية التي تميز بها الرجال، من ألزم الضرورات للقيادة فيجب أن يكون القائد قوي الخلق قويماً الأخلاق»^(١).

ويقول اللواء الركن محمود شيت خطاب «مزايا القائد المثالية كما تنص عليها الخدمة العسكرية وهي أوثق المصادر العسكرية الحديثة، تنحصر في «الشجاعة الشخصية، والإرادة القوية الثابتة، ونفسية لا تتبدل في حالتها النصر والهزيمة ومعرفة نفسيات مرؤوسيه، وثقة جنوده به وثقته بجنوده. والمحبة المتبادلة بينه وبين قواته». هذه هي الصفات المثالية للقائد الممتاز، وهي نتيجة لدراسة شخصيات أبرز القادة في التاريخ، لذلك هي مجموعة من مزايا شخصيات كثيرة لا شخصية واحدة، ولكن كل هذه الصفات المثالية قليلة جداً بالنسبة إلى صفات الرسول، فهناك صفات أخرى يتحلى بها محمد لم تتطرق إليها الكتب العسكرية لأنها صفات يصعب على القادة التحلي بها، هي فوق طاقة البشر بصورة عامة وذوي السلطان منهم بصورة خاصة»^(٢).

هذه الصفات المثالية التي أجمع عليها العسكريون قد ذكرتها آية واحدة من كتاب الله وزادت عليها أموراً لم يتوصل لها العسكريون حتى الآن من ذلك قوله تعالى: ﴿وشاورهم في الأمر﴾. فقد امثل رسول الله لأمر ربه وشاور جيشه في جميع الغزوات وفي كل الأمور العسكرية التي لم ينزل فيها قرآن. وسنذكر ذلك في مكانه، وليس هذا فحسب بل كان يعمل بمشورتهم حتى لو كان غير مقتنع بها كما حدث يوم (أحد) وما

(١) محمد القائد/ صاغ أركان حرب محمد عبد الفتاح إبراهيم / ١١٤ .

(٢) الرسول القائد / ٢٢٩ .

ذلك إلا تطبيقاً لنفوسهم ورفعاً لأقدارهم ومعنوياتهم، وتآلفاً لقلوبهم، وتكريماً لجهودهم. وقال الحسن البصري والضحاك «ما أمر الله تعالى نبيه بالمشاورة لحاجة منه إلى رأيهم، وإنما أراد أن يعلمهم ما في المشاورة من الفضل، ولتقتدي به أمته من بعده»^(١).

ويقول الرائد محمد عاطف السعيد^(٢): «لقد وضعت تصنيفات كثيرة لأنواع القيادة وخصائص كل منها. ولكن أهمها بلا شك هو ذلك التصنيف الذي يميز بين نوعين أساسيين من القيادة: القيادة الديمقراطية Democratic Leader Ship والقيادة الأوتقراطية المسيطرة Authoritarian Ship فالقائد الديمقراطي يتجه إلى إشراك أفراد الجماعة أو المنظمة في رسم سياسة الجماعة وتحديد الخطوط التنفيذية نحو الوصول إلى الأهداف، وهو يشعر الأفراد بأهمية فردياتهم حينما يتبع سياسة المشورة، ولا يركز السلطة في يده بحيث يصبح الآخرون مجرد أدوات للعمل وتنفيذ ما يرسمه لهم كما يحدث في القيادة الأخرى.

وتسود الروح المعنوية العالية في نطاق الجماعة الديمقراطية بينما تنخفض في ظل القيادة الأوتقراطية.

ولقد بحثت هذه المشكلة على نطاق واسع في الجيش الأمريكي وخاصة على ضوء خبرات القتال في الحرب العالمية الثانية فتأكدوا أن وجود القيادة العسكرية يتعارض مع قيام روح معنوية عالية في المنظمة العسكرية»^(٣).

(١) تفسير القرطبي ٢٥٠/٤.

(٢) فصول من علم النفس العسكري / ١٢٥ وما بعدها بتصرف في العبارة.

(٣) Young: Mahd book of Social psychology: Psychology of war, P. 347.

وكذلك برزت ظاهرة التمرد في الجيش النازي في نهاية الحرب وهو الجيش الذي كان معروفاً بقيادته الأوتقراطية المتطرفة. ووجد أن كثيراً من الجنود المخلصين لقادتهم قد انقلبوا عليهم بعد الهزيمة. وكان انطلاقها من العوامل التي بعث التفكك في الجيش الألماني وعجلت بهزيمته (١).

ومن صفات القيادة المثالية الشجاعة، وقد أشار القرآن الكريم إلى شجاعة الرسول القائد في جميع غزواته التي قادها، وفي جميع المواقف التي تعرض لها، نذكر منها على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿ إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم ﴾ (٢).

نزلت الآية في ظروف غزوة (أحد) إذ قاتل النبي المشركين قتالاً شديداً، فظل يرمي بالنبل حتى فنى نبله وانكسرت سية قوسه وانقطع وتره. ثم ظل يرمي بالحجارة حتى وقع لشقه، وثبت في الموقعة ثبوت الجبال الراسيات بعد أن أحاط به الأعداء من كل ناحية وجعلوه هدفاً لقتالهم، وقد فر المسلمون عنه وتركوه وحيداً أو كالوحيد لم يثبت معه أكثر من العشرة، وقد كان يدعوهم ويصيح بفلولهم (إليَّ عباد الله. . إليَّ عباد الله. . أنا رسول الله) ولكنهم ممعنون في الفرار لا يسمعون دعاء ولا يجيبون نداء.

فالآية صورة رائعة لشجاعة النبي وثباته في هذه الموقعة. والتي استطاع بها أن يحول وجه المعركة من هزيمة ساحقة ماحقة للمسلمين إلى خسارة في بعض الجيش اتخذهم الله شهداء.

(١) Kretchand Curtch Field: Theory and Problems of Social Psychology : The Leader as scapegoat, P. 421.

(٢) آل عمران / ١٥٣ .

وقد استطاع في اليوم التالي للمعركة أن يحول هزيمة جيشه المعنوية إلى قوة معنوية خارقة للعادة، وأن يعيد إليهم ثقتهم بأنفسهم، وثقة الأعداء بهم. وذلك بمطاردة المشركين بمن خرج معه في موقعة أحد وحدهم حتى (حمراء الأسد) وأمرهم أن يوقدوا ليلاً خمسمائة نار حتى ترى من المكان البعيد، ليفت ذلك في سواعد المشركين»^(١).

واستطاع بثباته وشجاعته النادرة يوم (حنين) أن يحول هزيمة المسلمين الساحقة إلى نصر مؤزر.

ويوم (الأحزاب) الذي زلزل فيه المسلمون زلزالاً شديداً، وزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وظن المنافقون بالله الظنون - كان رسول الله يشرهم بقصور الشام وفارس واليمن والمشرق والمغرب^(٢). فكان عليه الصلاة والسلام قطب الرحي في ذلك الموقف العصيب، فدعا القرآن الكريم المسلمين إلى التأسّي بشجاعته وثباته في ذلك اليوم: حيث أنزل في سورة الأحزاب ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾^(٣).

وقد تحدثت سور كثيرة عن مواقف النبي البطولية مثل سورة البقرة والنساء والأنفال والتوبة والمجادلة والحشر والممتحنة والصف وغيرها.

ومن دراستنا لهذه السور خاصة والسور القرآنية الأخرى عامة، وما روته كتب التفسير والسير والمغازي، نجد كثيراً من الأصول العسكرية

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/٣٥، ٩٧ ط، ليدن.

(٢) سيرة ابن هشام ٣/١٨٤ تحقيق عبد الحميد.

(٣) الأحزاب / ٢١.

والأساليب الجديدة التي استعملها الرسول القائد، والتي تستأهل الدرس والعناية:

أولها: عمل القائد على أن يقوي روح جنوده المعنوية، والقوة المعنوية يقيسها نابليون إلى القوى المادية، كالنسبة بين العددين ٣: ١، ولكن أولئك الذين يقدرونها بهذه النسبة يتحدثون في الواقع عن قوى معنوية تجيء بإيضاح منطوق سياسي، أو عاطفة قومية، ولكن القوى المعنوية التي جاء بها النبي، إنما كانت مستمدة أصلاً من القرآن الكريم، ثم من وقوف النبي القائد بين جنده، يقوم صفوفهم ويشجعهم ويمنحهم من عينيه القويتين عزماً وقوة^(١).

ومن الأساليب الجديدة التي ابتدعها القتال بالصفوف في (بدر)، فتغلب على قوات قريش التي قاتلت بأسلوب الكر والفر ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بِنِيبَانٍ مَرصُوصِينَ﴾. وقد حفر الخندق، ولم يكن للعرب به عهد، وطبق أسلوب قتال المدن في غزوة بني النضير وبني قريظة وخيبر، وهو نفس الأسلوب الذي يطبق في الحرب الحديثة في مثل هذا القتال، واستخدم المنجنيق والدبابة، وكان استعمالهما نادراً عند العرب حينذاك.

وانتخب مقرأً للقيادة في غزوة بدر، مراعيًا شروط انتخاب المقر، وأمن حراسته كما يجري في الحرب الحديثة، وقسم الأعمال وأمن السيطرة على إنجازها، كما حدث في حفر الخندق، وابتكر أسلوب الرسائل المكتومة، على حين يفاخر الألمان في العصر الحاضر بأنهم أول

(١) محمد القائد / ١١٤ (صاغ أركان حرب محمد عبد الفتاح إبراهيم).

من ابتكر هذا الأسلوب . بل طبق الحرب الإجماعية بحذافيرها فحشد كل القوى المادية والمعنوية للأغراض العسكرية ، وذلك ليؤمن حماية الدعوة من أعدائها الكثيرين بينما لم تعرف هذه الحرب إلا في الحرب العالمية الثانية فقط ، واستأثر الألمان بالمفاخرة في ابتكارها^(١) . وتبدو عبقرية النبي العسكرية في إدراك أهمية الاستطلاع والكشف عن تجمعات العدو ونيات قاداته ورجاله ، وأحسن في اختيار الأماكن التي يوجه إليها سراياه وبعوثه .

ومن مهارته العسكرية ضرب خطوط مواصلات العدو واقتصاده .

والرسول عليه الصلاة والسلام هو أول من ابتكر أسلوب الحرب الخاطفة الذي يفتخر قواد الحرب الثانية باختراعه . ومن أساليب هذه الحرب أنه عليه السلام كان يقوم بالهجوم فجراً كما فعل في غزوة بني المصطلق وخيبر . وكان إذا أراد غزوة ورى بغيرها حيث يقول (الحرب خدعة) فكان ينتصر بهول المفاجأة الذي يقع في قلوب أعدائه فيأخذهم قبل أن يستعدوا فيضطرهم إلى التسليم .

وهكذا رأينا رسولنا القائد قد طبق مبادئ الحرب الحديثة بمهارة فائقة وابتكر أساليب جديدة يُعتبر فيها رائداً حتى في هذا العصر الذي نعيش فيه . مما حدا ببعض الكتاب المحدثين أن يتحدثوا عن عبقريته العسكرية ويؤلفوا فيها الكتب ويعقدوا المقارنات بينه عليه الصلاة والسلام وبين أعظم قواد الحرب في العصر الحديث . كنبليون وغيره . وإن كنتُ لا أوافقهم على ذلك فشان بطل الجهاد الإسلامي أعظم وأعز من مقارنته

(١) الرسول القائد / ٣٢٤ محمود شيت خطاب (اللواء الركن) .

بنابليون وغيره. فقد كانت عبقرية الرسول مستمدة من وحي الله تعالى وإلهامه إليه. فقد جاء في (إمتاع الأسماع) «ولما شرع أبو سفيان في الرحيل إلى مكة بعث إلى رسول الله كتاباً جاء فيه: باسمك اللهم فإنني أحلف باللات والعزى لقد سرت إليك في جمعنا وإننا لا نريد أن نعود أبداً حتى نستأصلكم، فرأيت قد كرهت لقاءنا وجعلت مضايق وخنادق، فليت شعري من علمك هذا؟ فإن نرجع عنكم فلكم منّا يوم كيوم (أحد). فكتب إليه الرسول: من محمد رسول الله إلى أبي سفيان بن حرب أما بعد فقد يمّا عرّك بالله الغرور. أما قولك من علمك ما صنعنا من الخندق؟ فإن الله ألهمني ذلك لما أراد من غيظك وغيظ أصحابك»^(١).

فهذا هو سرّ قوة قيادة رسول الله المتصلة اتصالاً وثيقاً بالله. وهذا طبعاً لا يقلل من مواهبه الشخصية وحسن تصرفه للأمر.

وقد أكد تعالى هذه الحقيقة في أكثر من موضع في كتابه الكريم ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى﴾^(٢).

وقد علم الله سبحانه المؤمنين كل شيء يصلح دينهم ودنياهم ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾^(٣).

والدارس المدقق في القرآن الكريم يجد إشارات إلى تنظيمات وتعليمات كثيرة تُعد دستوراً كاملاً للنصر والفوز، تحدثت عن كثير منها في هذا الفصل، ونضيف إليها ما يلي:

(١) إمتاع الأسماع للمقريزي ١/ ٢٣٩ - ٢٤٠.

(٢) النجم / ٣ - ٥.

(٣) الأنعام / ٣٨.

ضرورة تطهير الجيش من عناصر الفتنة والتخذيل لقوله تعالى في المنافقين ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين ﴾ (١).

ثم نبه تعالى إلى كتمان الأسرار العسكرية، وحذر من إفشائها أو تسربها دون علم القائد: ﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن والخوف أذاعوا به، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً ﴾ (٢).

ونبه إلى خطورة الإشاعة والإرجاف بين صفوف المقاتلين، وتوعد مروجي الإشاعات بأشد العذاب ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً ﴾ (٣).

ونبه تعالى إلى خطورة الخيانة والتجسس لحساب العدو ﴿ يأيتها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾ (٤).

وطالب سبحانه بضرورة الثبوت من الأخبار قبل تصديقها والعمل بها ﴿ يأيتها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾ (٥).

(١) التوبة / ٤٧ .

(٢) النساء / ٨٣ .

(٣) الأحزاب / ٦٠ .

(٤) الأنفال / ٢٧ .

(٥) الحجرات / ٦ .

وقد رسم القرآن الخطة التنفيذية لأسلوب القتال في المعركة فأرشد إلى تنظيم الجيش وتوزيع وحداته على مواضع الدفاع، وإن هذا التنظيم من اختصاص القائد ﴿ وإذ غدوت من أهلك تبؤى المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم ﴾ (١).

ثم بين أسلوب القتال نفسه ﴿ إنَّ الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾ (٢)، وأسلوب الصف يتفق مع أساليب القتال في العصر الحاضر، فهو يؤمن العمق والاحتياط ليستطيع القائد معالجة المواقف التي ليست في الحسبان (٣).

ثم نبه سبحانه إلى أسلوب المفاجأة في القتال وأثره الفعال في تحقيق النصر ﴿ قال رجالان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ﴾ (٤)، ودعا القرآن إلى ترتيب الهجوم عند تعدد الأعداء، وأن تبدأ القيادة بتخلية الطريق من أقرب الأعداء حتى لا يضرب من الخلف ﴿ يأبها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ﴾ (٥).

وقد رسم القرآن الخطة التنفيذية للمعركة بقوله تعالى: ﴿ يأبها الذين آمنوا خذوا حذرکم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً ﴾ (٦).

(١) آل عمران / ١٢١ .

(٢) الصف / ٤ .

(٣) الرسول القائد / ٢٨ .

(٤) المائدة / ٢٣ .

(٥) التوبة / ٢٣ .

(٦) النساء / ٧١ .

قال القرطبي^(١): «أمرهم الله تعالى ألا يقتحموا على عدوهم على جهالة حتى يتحسسوا ما عندهم، ويعلموا كيف يردون عليهم فذلك أثبت في القتال» .

فالأمر هنا متروك لظروف المعركة وتقدير القائد إما أن ينفروا في جماعات متفرقات، أو في جماعات نظامية. أو ينفروا البعض إذا اكتفى بهم في تحقيق الهدف كما كان رسول الله يفعل بإرسال السرايا أو ينفروا الجيش كله كما حدث في سائر الغزوات.

وأرشد سبحانه إلى ضرب العدو من صفوفه الخلفية ﴿ فشرّد بهم من خلفهم ﴾^(٢). كما أرشدهم إلى أيسر الطرق لقتل العدو وشل حركته ﴿ فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾^(٣).

ثم أرشد تعالى المجاهدين إلى أسلوب التغرير بالعدو ومراوغته في القتال للإيقاع به ﴿ يأبها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾^(٤). وفي الآية إرشاد إلى نجدة المجاهدين بعضهم بعضاً بأن ينتقل المجاهد حسب تعليمات القيادة من فئة قوية إلى فئة ضعيفة لينصرهم على عدو تكاثر عليهم.

وقد فسّر الزمخشري قوله تعالى: ﴿ إلا متحرفاً لقتال ﴾ هو الكر

(١) تفسير القرطبي ٢٧٣/٥ .

(٢) الأنفال / ٥٧ .

(٣) الأنفال / ١٢ .

(٤) الأنفال / ١٥ - ١٦ .

بعد الفر، يخيل إلى عدوه أنه منهزم ثم يعطف عليه، وهو باب من خدع الحرب ومكايدها ﴿أو متحيزاً إلى فئة﴾ أي منحازاً إلى جماعة أخرى من المسلمين سوى الفئة التي هو فيها (١).

وقد أرشد تعالى إلى الحد الذي يمكن أن يقف عنده القتل والقتال فاشتراط كثرة القتل وتعجيز العدو نهائياً عن القتال، فلا يتركهم إلا قتلى أو أسرى ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ (٢). ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثختموهم فشدوا الوثاق﴾ (٣). والمراد بالإثخان المبالغة في كثرة القتل (٤) عن مجاهد وغيره.

وحتى يبقى الجيش متماسكاً بعيداً عن أسباب الفشل والنزاع أوجب سبحانه الطاعة التامة للقائد ﴿وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ (٥). ﴿يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾ (٦).

ولقد أذاق الله المسلمين مر الهزيمة يوم (أحد) بسبب مخالفة الرماة وأمر القيادة الحكيمة. فكانت تلك الهزيمة درساً عملياً في السمع

(١) الكشاف ١٤٩/٢.

(٢) الأنفال / ٦٧.

(٣) محمد / ٤.

(٤) تفسير القرطبي ٦٤/٨ والكشاف ١٦٨/٢.

(٥) الأنفال / ٤٦.

(٦) النساء / ٥٩.

والطاعة وعدم التنازع ومخالفة الأوامر - يعدل النصر ذاته، فلم يهزم المسلمون بعده.

﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون. ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فأثابكم غمّاً بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون ﴾ (١).

هذه شواهد قليلة للإشارات القرآنية إلى التنظيم العملي للقتال وفي القرآن غيرها كثير.

وحدة الأمة:

إن وحدة الأمة وتماسك أفرادها وتلاحمهم وتآلفهم هي الخطوة الأولى في الاستعداد لمواجهة العدو، وإن الخروج عليها يعتبر ثغرة في الإيمان وضعفاً في الاستعداد ربما يعرض الأمة كلها إلى الهلاك. لهذا كان أول ما اتجه إليه رسول الله منذ قدومه إلى المدينة تنظيم صفوف المسلمين، وتوحيد كلمتهم، فوضع دستور الحياة العامة، ليكون أساساً لتحقيق الوحدة الداخلية بين جميع سكانها على اختلاف مذاهبهم وأجناسهم. وقد اعتمد رسول الله على التعليمات الإلهية التي استهدفت بناء مجتمع إسلامي قوي متماسك كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً. وكان أول عمل في هذا السبيل محاولته عليه الصلاة والسلام تنظيم صفوف المهاجرين والأنصار بالمدينة وتوكيد وحدتهم عن طريق تآلفهم حتى لا تشور العداوة القديمة بينهم، فأخى بين أصحابه من

(١) آل عمران / ١٥٢، ١٥٣.

المهاجرين والأنصار على الحق والمواساة^(١). وكانوا يتوارثون بهذا الإخاء إراثاً مقدماً على القرابة^(٢) «وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يرمي من وراء المؤاخاة بين أصحابه المهاجرين والأنصار أن يُذهب عنهم وحشة الغربة ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ويشد أزر بعضهم ببعض»^(٣).

وقد ظل التوارث بالمؤاخاة قائماً حتى اجتمع شمل الأنصار والمهاجرين وأوقعوا الهزيمة بالمشركين في غزوة بدر وعز شأن الإسلام فأنزل الله تعالى في سورة الأنفال: ﴿والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم﴾^(٤). فنسخت هذه الآية ما كان قبلها ورجع كل مسلم إلى نسبه وورثه ذوو قرباه^(٥).

وقد نزلت آيات كثيرة تحث على رابطة الأخوة بين المسلمين وتبادل الولاء بينهم دون غيرهم ومن ذلك قوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾^(٦).

﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾^(٧)

وهناك آيات تقرر بأن المسلمين أخوة جاءت في سياق

(١) طبقات ابن سعد ٣/٢.

(٢) أمتاع الأسماع / ٤٩.

(٣) مسيرة ابن هشام ١٢٣/٢ تحقيق محيي الدين عبد الحميد.

(٤) الأنفال / ٧٥.

(٥) طبقات ابن سعد ٣/٢.

(٦) آل عمران / ١٠٣.

(٧) الحجرات / ١٠ وانظر التوبة / ١١ والأحزاب / ٥ والبقرة / ١٧٨.

أوامر ونواه مختلفة منها ﴿ يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ﴾ (١).

وفي الآية دلالة على قوة التلقين في تقرير الأخوة بين المسلمين وشمولها. وقد أكد تعالى على هذه القوة بأسلوب آخر جعل ولاية المسلمين بعضهم على بعض صفة لازمة لهم، لأن بعضهم من بعض. ﴿ إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ﴾ (٢).

﴿ فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض ﴾ (٣).

وهكذا وطد القرآن رابطة الأخوة بين المسلمين بكل قوة، وجعلها من صفات الإسلام. وناهيك بها قوة تدعم كيان المجتمع وتبث بين أفرادها التواثق والولاء والمحبة والصفاء على اختلاف أجناسهم وألوانهم وطبقاتهم.

ونظام المؤاخاة عظيم النفع بالغ الأثر في نفوس المؤمنين، تكون به حزب الله الذي يدافع عن دينه، فكان مكانهم المسجد، ورئيسهم الرسول، ودستورهم القرآن، ورابطتهم أخوة في الله متينة.

وصوناً لهذه الرابطة القوية أن تخذش، ولهذه الوحدة أن تضعف حذر القرآن الكريم المؤمنين من التخاصم والتنازع، وحثهم على التواد

(١) الحجرات / ١٢.

(٢) الأنفال / ٧٢.

(٣) آل عمران / ١٩٥ والتوبة / ٧١.

والتحاب وإصلاح ذات البين ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾ (١) .

فقد أوجبت هذه الآية الكريمة اجتماع المسلمين على بذل الجهود المخلصة للإصلاح بين الأخوة المتنازعين، واجتماعهم على قتال الباغي حتى يقبل حكم الله وينزل عند واجب الحق والعدل والأخوة .

وقد نهى تعالى عن التنازع والتفرق حتى لا يفقدوا قوتهم ووحدتهم فتكون الدولة عليهم ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ (٢) . ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم اليينات وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾ (٣) ،

وقد حثت آيات كثيرة على ضرورة تطهير المجتمع من العناصر الفاسدة المفسدة، وأخذهم بشيء من الشدة حتى لا تتعرض وحدة الأمة إلى التمزق والضعف قال تعالى : ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ (٤) . ﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ (٥) . ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله

(١) الحجرات / ٩ .

(٢) الأنفال / ٤٦ .

(٣) آل عمران / ١٠٥ .

(٤) الأنفال / ٢٥ .

(٥) النور / ١٩ .

ويسعون في الأرض فساداً أن يُقتلوا أو يُصلبوا أو تُقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو يُنفوا من الأرض، ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴿١﴾، ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويُشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى في الأرض لِيُفسد فيها ويُهلك الحرث والنسل، والله لا يُحب الفساد، وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد﴾ ﴿٢﴾،

وأفراد هذه الفئات يكونون عادة منبئين في صفوف المجتمع، ولهم فيه أوشاج رحم، وصلات من دم وعصبية، وروابط متنوعة أخرى. فالواجب الذي تفرضه الآيات على المسلمين، هو أن تكون مصلحة الكيان الإسلامي ووحده وقوته، وصيانتة من الوهن والتفكك والكيد، فوق أي اعتبار وأن يقف المسلمون منهم موقف الحزم والشدة والصرامة والحذر، حتى تشل حركتهم ويحد أذاهم، وتضيّق دائرة شرهم وكيدهم، لأن في ذلك مصلحة كيان الأمة وقوتها، وفي التساهل فيه فشلهم وتصدعهم ﴿٣﴾. ثم فيه مقياس لإخلاص المسلم وقوة إيمانه، بل وصدقه فيه، كما تلقنه آية المجادلة هذه تلقينا قوياً رائعاً ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم﴾ ﴿٤﴾.

إنَّ القرآن الكريم يربي الفرد المسلم على أساس ولائه لربه ورسوله وعقيدته وجماعته المسلمة. وعلى ضرورة المفاضلة التامة بين الصف

(١) المائدة / ٣٣.

(٢) البقرة / ٢٠٤ - ٢٠٦.

(٣) الدستور القرآني / ١ / ٣١.

(٤) المجادلة / ٢٢.

الذي يقف فيه وكل صف آخر لا يرفع راية الله، ولا يتبع قيادة رسوله .
ليكونوا خالصين لله منقطعين لولايته متجردين من كل وشيجة غير
وشيجته .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ
بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ
تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُخْرِجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي
تَسْرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ، وَمَنْ يَفْعَلْ مِنْكُمْ
فَقَدْ ضَلَّ سِوَاءَ السَّبِيلِ . إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ
أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوِّ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ . لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامِكُمْ وَلَا
أَوْلَادِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١) .

وقد سلك القرآن الكريم طرقاً متنوعة، لنهي الذين آمنوا عن موالاته
المخالفين لهم في عقيدتهم من أهل الكتاب ومن المشركين ومن
المنافقين لعداوتهم الظاهرة والباطنة للمسلمين وتآمرهم جميعاً على
تمزيق وحدة الأمة من الداخل والقضاء عليها من الخارج .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةَ مَنْ دُونَكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا
وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخْفَى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ، قَدْ
بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٢) .

ويوجه القرآن الكريم إلى ولاية الله تعالى لهم، ويجب أن ينفضوا
أيديهم من كل ولاية غير ولايته ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا

(١) الممتحنة / ١ - ٣ والتوبة / ٢٣ والمجادلة ٢٨ وآل عمران / ٢٨ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠
والمائدة / ٥١ - ٥٨ وآل عمران / ١٠٠ - ١٠٢ .

(٢) آل عمران / ١١٨ .

الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله
ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴿١﴾ .

وقد وعت عقول المسلمين هذه التعليمات الإلهية واطمأنت بها
قلوبهم فقطعوا وشائج القربى وصلات النسب عندما تعارضت مع
عقيدتهم، حتى كان الواحد منهم يقاتل أقرب الناس إليه فيقتل أباه
وأخاه . ففي غزوة بدر وقف أبو عبيدة بن الجراح يحارب مع المسلمين
ووقف أبوه يحارب في جيش أبي جهل وحاول الأب أن يضرب ابنه مرة
ومرة، وكان الابن يفر من الضربات ويتفادها، ولكن عندما استحكمت
الحلقات ووجد أبو عبيدة نفسه بين إحدى اثنتين إما أن يضرب أباه أو
يخذل عقيدته، آثر الأولى وأغمد سيفه في أبيه فقتله، وفي نهاية الغزوة
كان رأى عمر رضي الله عنه أن يقتل الأسرى، وصاح بالرسول أعطني
آلي لأقتلهم، وأسلم العباس لأخيه حمزة ليقتله، ولولا مزيد من الرحمة
أبداها الرسول لكان ما أراد عمر (٢) .

المستشرقون وسر انتصارات المسلمين :

قد تحير المؤرخون والاجتماعيون الأوروبيون في تعليل سرعة
الفتوحات الإسلامية فذهبوا فيها مذاهب شتى وأخطأوا، وأصابوا، وليس
من الممكن حصر تعليلاتهم في هذا الشأن نظراً لكثرتها، وإنما يمكننا أن
نشير ولو بطريق الإيماء إلى بعضها .

فحدوث الفتح الإسلامي بهذه السرعة التي اتسق بها، لم يسبق له
مثيل في التاريخ حتى قال الكثيرون إن العرب فتحوا في ثمانين سنة أكثر

(١) المائة / ٥٥، ٥٦ .

(٢) الجهاد في التفكير الإسلامي / ٥٠ الدكتور أحمد شلبي .

مما فتح الرومان في ثمانمئة سنة، وكان نابليون يقول: إن العرب فتحوا نصف الدنيا في نصف قرن.

ويعلل نابليون هذه الانتصارات بنظرته العسكرية التي هو عبقرتها إلى أن العرب قبل الإسلام كانوا ذوي بصائر بالحرب، أكثر مما يظن الناس، وأن حروب القبائل العربية بعضها مع بعض كانت قد نجذتها في القتال إلى الحد الذي صيرتها أمة محاربة من الدرجة الأولى ﴿١﴾.

وقد ادعى (أرفنجج) ^(٢) إن القتال في الإسلام من شأنه أن يشجع أعمال النهب والسلب، وأن روح القتال في الإسلام هي لرغبة دنيوية وأنها سيطرت على حماسة الرسول الدينية.

ويقول الدكتور عبد الحميد العبادي «إن حركة التوسع العربي الكبير ما كانت لتأخذ مجراها المعروف في التاريخ لو أن الدولتين الفارسية والبيزنطية كانتا قويتين منيعتين، والواقع أن من مصادفات التاريخ العجيبة أن تقترن نهضة العرب واجتماعهم على دولة واحدة ودعوة واحدة، بضعف واختلال عم جميع مرافق الدولتين الفارسية والبيزنطية» ^(٣). ويرى (فليب حتي) أن الروح الإسلامية لم تكن سبباً في الفتوحات الإسلامية بل كان سببها حماس المجاهدين البدو إلى النهب والسلب والحاجة المادية ^(٤).

ومن العلماء المستشرقين الذين فهموا سر الفتوحات الإسلامية

(١) حاضر العالم الإسلامي للمستشرق ستودارد / ٢٤.

(٢) Washington Irving., The life of Mohamet P. 103.

(٣) الدولة الإسلامية / ٨.

(٤) تاريخ العرب / ٢٨.

وأنصفوا الإسلام وأهله جماعة أصحاب (تاريخ العالم)^(١) للعلامة غود فروي Gude Fory الأستاذ بمدرسة الألسن الشرقية بباريس والعلامة (بلاتونوف) من أعضاء أكاديمية العلوم الروسية، تحرى فيه مؤلفاه أقصى آماذ التحري وذهبأ إلى أنه يجب العدول عن فكرة أن انتشار الإسلام حصل على أيدي الأعراب أو البدو الدافقين من الصحاري لأجل الغزو. فقالوا إن الأولى أن يقال إن طائفة من الناس اجتمعت حول النبي في المدينة من بعد الهجرة وتشبعت بمبادئه، وصرفت جميع همها إلى الدين وعاهدت الله ورسوله على نشر عقيدة الإسلام وهؤلاء هم المسلمون ثم انضمت إليهم طبقات أخرى في زمان الخلفاء الراشدين، وتقوت بهم عصابة هؤلاء المتدينين العاكفين على قراءة القرآن، الذين بثاتهم المتواصل بنوا الإسلام الأول الذي لم تطرأ عليه المؤثرات الخارجية، والمجادلات الكلامية وهو الإسلام القرآني الصرف.

وكانت خلية الإسلام تعسل أيضاً في أثناء الفتوحات بين الجيوش في المخيمات وذلك أن من الجند من كانوا حفاظاً للقرآن فاهمين لمعانيه فتألفت بينهم في وسط الجهاد حلقات عبادة وعصابات زهد وتقوى، وكانوا يبثون العقيدة ويحثون على التقوى ويجاهدون في طلب سعادة العقبى. فكان المسلمون يعلون في الأرض ويعزون وكان غيرهم يسفلون ويدلون، وانقلبت غزوات البدو حرباً مقدسة قد أمر بها الله لإعلاء كلمته.

وهذا الرأي هو ما رآه المستشرق Lothrop Stoddard «وهو أن الإسلام لم ينتشر إلا بالقرآن وعمارة الصدور به إلى أن بلغ قراءه من القوة المعنوية التي مكنتهم من نواصي الأمم، وهذه القوة المعنوية هي

(١) Histoire Dumande Vo - 7 - P.140

الأصل، والتي بدونها لا تنهض أمة. وما القوة المادية، مهما دقت أو غلظت إلا تبع لها وهي بالنسبة لها كالبدن بالنسبة إلى الروح، فكل ما يقال إن سبب الفتوحات الإسلامية الباهرة هو مراسم العرب للقتال أو حب البدو للغزو وغرامهم بالغنائم، أو ملل الأمم المجاورة من ملكة حكامها، فهذا تضييع للمعنى الحقيقي، وزيف عن شاكلة الرمية، وإنما أمكنت هذه الفتوحات الخارقة للعادة بكلام منزل هو خارق للعادة، وبقوة معنوية أحدثها في النفوس خارقة للعادة. . ولقد كان العرب أهل حرب من قديم الزمان وكان الأعراب مغرمين بالنهب والكسب من أعلى أيام الجاهلية، فلم لم يفتحوا البلدان إلا بعد بعثة محمد^(١).

والحق أن هذا الكاتب قد أوتي عقلاً ناقداً، وفهماً ثاقباً، ولساناً صادقاً، وقد كفاني مؤونة الرد على من طمس التعصب على عقولهم وختم على قلوبهم، ولوى ألسنتهم فهم في جدل ومراء والتواء على الحق وانحراف عن الحقيقة.

ولكنني وإن وافقت هذا المستشرق المفصال على أهمية القوة المعنوية ودورها الفعال في الانتصارات الإسلامية الباهرة، إلا أنني لا أوافقه على التقليل من شأن بقية عناصر النصر ومقوماته الأخرى التي ذكرتها في هذا الفصل.

وقد أصاب الكاتب التركي (حيدر بامات) كبد الحقيقة حين قال: «لقد جعل الإسلام قوة جيشه في سبيل الله وما أمر به الله في الأرض، وكان مقاتلة الإسلام المجاهدون في سبيل وحدانية الله والمساواة بين

(١) حاضر العالم الإسلامي / ٢٧.

الناس يعتقدون أنه موكل إليهم برسالة ربانية، وكان الاعتقاد يورث بطولة في المعركة، وازدراء مطلقاً للموت.

ومما حدث في تاريخ البشر غير مرة، أن كتائب قليلة عدداً وضعيفة عدة غلبت أعداداً أقوى جهازاً وأكثر جنوداً، ففي مثل هذه الحال يجب دائماً، أن يُبحث عن تفسير أساسي قاطع للنصر في روح التضحية . وازدراء حطام الدنيا، وفي الإيمان الذي يُزيل الجبال. ولم يكن أمر الفتوحات الإسلامية غير ذلك. . بيد إن تفاوت القوى بين امبراطوريتي الزمن العظيمتين والدولة العربية الناشئة كبير جداً، ولا ريب في أن العامل الأدبي الذي عين حمية مجاهدي الإسلام الصائلة لم يكن في الحقيقة كافياً وحده لقهـر جيوش بيزنطة والفرس المنظمة المدربة لو لم يتعلم العرب فن الحرب في مدرسة خصومهم. فصلح مدربو الفرس والروم ومهندسوهم الكثيرون، الذين جُذبوا إلى دين الله، أن يكونوا معلمين للعرب. وتمضي سنون قليلة فتتحول القبائل العربية إلى جيش منظم مدرب قادر كل القدرة على استخدام جميع آلات الحرب المعروفة في ذلك الزمن^(١).

وصدق حين قال في موضع آخر: وإذا نظر إلى تلك الأمور بعين الاعتبار عاد الفتح العربي لا يبدو كمعجزة، ولا مناص من الاعتراف بأنه كانت نتيجة طبيعية لقوة أحسن تنظيمها وسمت قيادتها وجعلت خادمة لمثل عليا استعد جميع مجاهدي الإسلام، من قادة وجنود للتضحية بحياتهم في سبيلها فرحين.

وهكذا تكشفت أسرار الفتح الإسلامي لأصحاب العقول النيرة والقلوب السليمة الخالية من الأهواء والتعصب.

(١) مجالي الإسلامي / ٤٧.

الفصل الرابع:

الأسرى والغنائم والأنفال والفيء والجزية

أولاً : الأسرى :

إذا نشبت حرب بين طرفين فإن من نتائجها الكثيرة أن يقع في حوزة المتحاربين بعض أفراد من العدو يعتبرون أسرى حرب .

وأسرى الحرب عند فقهاء المسلمين : هم الرجال المقاتلون من الكفار إذا ظفر المسلمون بأسراهم أحياء .

قال القرطبي^(١) : الأسير مشتق من الإِسار، وهو القِدّ الذي يُشد به المحمل فسمي أسيراً لأنه يشد وثاقه، والعرب تقول: قد أسرقتبه، أي شده، ثم سُمي كل أخيد أسيراً وإن لم يُؤسر لأنهم كانوا يشدون الأسير بالقِدّ وهو الإِسار .

وقال أبو عمرو بن العلاء : (الأسرى هم غير الموثقين عندما يؤخذون، والأسارى هم الموثقون ربطاً) .

وقال الراغب^(٢) : الأسر الشد بالقيد من قولهم : أسرت القتب وسمي الأسير بذلك ثم قيل لكل مأخوذ ومقيد وإن لم يكن مشدوداً ذلك ،

(١) تفسير القرطبي ٢/٢١، ٤٥/٨ .

(٢) المفردات / ١٩ .

وقيل في جمعه أسارى وأسارى وأسرى والأسر مشروع في الإسلام لقوله تعالى: ﴿ وخذوهم واحصروهم ﴾^(١) ولقوله تعالى: ﴿ فشدوا الوثاق ﴾^(٢).

والأسر قد يكون بغير قتال، مثل أن تلقي السفينة شخصاً من الكفار إلى ساحل بلاد المسلمين أو يضل أحدهم الطريق أو يُؤخذ بحيلة^(٣).

تعاليم الإسلام في الرفق بالأسرى:

وهذا نوع من المفآخر التي لم يتطاول إليها دين من الأديان السماوية السابقة ولا يمكن أن يتطاول إليها قانون دولي وضعي، ولن تتسامى إليها قواعد دولية نافذة، فكانت الديانة اليهودية تقضي بالآ يقتل الأسرى فحسب بل يقتل جميع النساء والأطفال والحيوانات التي توجد في المدن المستولى عليها كما سبق أن نقلنا ذلك من أسفارهم وكذلك فعل المسيحيون قديماً وحديثاً كما نصت كتبهم.

وفي قديم التاريخ كان الأسرى يذبحون أو يقدمون قرابين للآلهة. ثم صاروا يُستعبدون ويتخذون رقيقاً^(٤).

وقد عامل الفرس أسراهم بقسوة لا هوادة فيها، فكانوا ضحية التنكيل والتعذيب والقتل والصلب وكذلك كان الإغريق يفعلون بأسراهم^(٥).

وتأثر العرب في جاهليتهم بعبادات مجاورهم، فلم تكن معاملة

(١) التوبة / ٥ .

(٢) محمد / ٤ .

(٣) السياسة الشرعية لابن تيمية / ١٢٤ .

(٤) الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام / ٣٣١، علي منصور.

(٥) الحرب في الإسلام ١٢٦ خدوري .

الأسير عندهم تتصف بصفة الرحمة والإنسانية. فلما جاء الإسلام ضرب القدح المُعلَى في الرفق بالأسرى والرحمة بهم والعناية بشأنهم^(١).

ولم يعرف التاريخ محارباً رفيقاً بالأسرى كالمسلمين الأولين الذين اتبعوا أوامر دينهم التي دعت إلى الرفق بالأسرى، وذلك أن الأسير نقبض عليه ونيران الحرب ملتهبة في الميدان ومشوبة في قلوب المقاتلين والغیظ قد يتحكم فيندفعون إلى الأذى يلحقونه بأولئك الذين عنت رقابهم، ويشفون غيظهم فيهم ولقد تعلم المجاهدون المسلمون بهذا نوعين من الجهاد:

أولهما: جهاد في ميدان القتال حيث يبيعون أنفسهم لله وللحق الخالص.

وثانيهما: جهاد النفس فلا تسترسل في الغضب، بل تقاتل من يقاتلها بالرفق لا بقانون الغابة^(٢).

وقد حض القرآن الكريم على إطعام الأسرى، وجعله من أقرب القربات إلى الله: ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا، إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جِزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾^(٣).

وكان النبي عليه الصلاة والسلام يوصي أصحابه بالأسرى خيراً كما روى الطبراني في الكبير عن نبيه بن وهب في أسرى بدر ﴿ استوصوا بالأسرى خيراً ﴾^(٤).

(١) آثار الحرب في الفقه الإسلامي / ٤٠٥.

(٢) نظرية الحرب في الإسلام / ٦٢ للشيخ محمد أبو زهرة.

(٣) الإنسان / ٨ - ١٠.

(٤) البداية والنهاية ٣/٣٠٦ ومنتخب كنز العمال من مسند أحمد ٢/٣١٣.

قال أحد أسرى بدر (أبو عزيز بن عمير): مرَّ بي أخي مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرنني فقال له: شد يديك به فإن أمه ذات متاع. قال وكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر، لوصية رسول الله إياهم بنا، ما يقع في يد رجل منهم كسرة من الخبز إلا نفحني بها، قال: فاستحي فأردها على أحدهم فيردها علي ما يمسه^(١). وقد وقع ثمامة بن أثال أسيراً في أيدي المسلمين، وجاءوا به رسول الله فقال:

«أحسنوا إسارة، ورجع رسول الله إلى أهله، فقال: اجمعوا ما كان عندكم من طعام فابعثوا به إليه، وأمر بلقحته أن يُغدى عليه بها ويراح»^(٢).

وقد نص الفقهاء على أنه لا يجوز تعذيب الأسير بالجوع والعطش وغير ذلك، وقد روي أن رسول الله ﷺ كان يأمر بأحمال التمر فتشر على بني قريظة وكان يقول لأصحابه ﴿أحسنوا إسهارهم وقيلوهم واسقوهم لا تجمعوا عليهم حر الشمس وحر السلاح وكان يوماً صائفاً فقيلوهم واسقوهم وأطعموهم﴾^(٣).

وروى البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنه حديثاً يدل على شدة رحمة الرسول بالأسرى قال: لما أمسى رسول الله يوم بدر والأسرى محبوسون بالوثاق، بات رسول الله ساهراً أول الليل. فقال له أصحابه: يا رسول الله مالك لا تنام- وقد أسر العباس رجل من الأنصار-؛ فقال: سمعت

(١) مجمع الزوائد ٦/٨٦ وصور من حياة الرسول /٣٢٠.

(٢) سيرة ابن هشام ٤/١٠٥٣ تحقيق محيي الدين عبد الحميد.

(٣) شرح السير الكبير ٢/٢٦٤ وصور من حياة الرسول /٤٤٠.

أنين عمي العباس في وثاقه، فأطلقوه، فسكت فنام رسول الله ﷺ» (١).

وقد أمر رسول الله بكسوة الأسرى والمحافظة على كرامتهم الإنسانية وستر عوراتهم «فلما كان يوم بدر أتى بالعباس ولم يكن عليه ثوب فنظر النبي له قميصاً، فوجد قميص عبد الله بن أبي يقدر عليه فكساه النبي إياه» (٣).

وخلاصة القول كما قال أبو يوسف: «والأسير من أسرى المشركين لا بد أن يُطعم ويُحسن إليه حتى يحكم فيه» (٣) فتركه بدون كسوة ليس من الإحسان في شيء.

وهذه المعاملة الإنسانية الكريمة هي: أقصى ما تمكن رجال القانون الدولي الحديث من التوصل إلى بعضه. فقد نصت لائحة لاهاي للحرب البرية واتفاقية جنيف سنة ١٩٤٩ على ضرورة المحافظة على حياة الأسرى، وحسن معاملتهم، ووضعهم في معتقل خاص بعيد عن مناطق الحرب على أن يُقدم لهم الطعام واللباس. ويجوز تشغيل الأسرى من الجنود دون الضباط بأجر مناسب، وفي غير الأعمال المرهقة (٤). وهذا يدل على أن موقف الإسلام من الأسرى قبل ثلاثة عشر قرناً كان موقفاً مثالياً رائعاً قبل أن تأتي اتفاقية جنيف التي ما زالت غير نافذة إلى الآن عند غالب الدول (٥).

(١) سنن البيهقي / ١٤٩.

(٢) فتح الباري ١٠٨/٦ والعيني على شرح البخاري ٢٥٧/١٥.

(٣) الخراج / ١٤٩.

(٤) المواد ٣ و ١٣ من لائحة لاهاي والمادة ٤ من اتفاقية جنيف ١٩٤٩ الخاصة بالأسرى والمواد ٦، ٧،

١٧ من لائحة لاهاي (نقلاً عن كتاب العقيدة والشريعة والقانون الدولي العام / ٣٣٦).

(٥) قانون الحرب والحياد للدكتور سامي جنيئة / ٢٧٧ - ٢٧٨.

أما مصير الأسرى: فقد نصت اتفاقية جنيف بوجه خاص أن أسير الحرب يعتبر أسيراً للدولة لا أسيراً للشخص أو الوحدة العسكرية التي أخذته (١).

وقد سبق الإسلام إلى هذا الحكم وجعل حق تقرير مصير الأسير بيد إمام المسلمين لا بيد أسرته قال الكمال بن الهمام: «ليس لواحد من الغزاة أن يقتل أسيراً بنفسه لأن الرأي فيه إلى الإمام» (٢).

وقد بين القرآن الكريم شروط الأسر بصراحة تامة في أول آية نزلت في شأن الأسرى ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ﴾ (٣).

وواضح من الآية الكريمة أنها لا تنص من قريب أو بعيد على مصير الأسرى ولكنها تحدد شرط الأسر. ولهذا استشار النبي عليه الصلاة والسلام أصحابه في مصير الأسرى، ولو كان نزل تشريع في شأنهم لما استشار أحداً.

روى الواحدي والطبري وابن كثير والقرطبي والزمخشري وغيرهم أن هذه الآية نزلت في شأن أسرى بدر قالوا: (لما كان يوم بدر جيء بالأسارى، وفيهم العباس، فقال رسول الله: «ما ترون في هؤلاء الأسارى؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك، استبقهم لعل الله يتوب عليهم. وقال عمر: كذبوك وأخرجوك، وقاتلوك، قدمهم، فاضرب أعناقهم. وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله، انظر وادياً كثير

(١) القانون الدولي العام / ٦٧٩ أبو هيف.

(٢) فتح القدير ٣٠٦/٤ وانظر المبسوط للسرخسي. ٦٤/١٠ والأم للشافعي ١٩٩/٤.

(٣) الأنفال / ٦٧.

الحطب، ثم أضرمه عليهم ناراً، فقال العباس وهو يسمع: قطعت رحمك.

فسكت رسول الله فلم يجبهم، ثم دخل. وقال أناس: يأخذ بقول أبي بكر وقال أناس يأخذ بقول عمر. وقال أناس يأخذ بقول عبد الله بن رواحة. ثم خرج رسول الله، فقال: «إِنَّ اللَّهَ لِيلِين قُلُوبَ رِجَالٍ حَتَّى تَكُونَ أَلِينٌ مِنَ اللَّبَنِ وَإِنَّ اللَّهَ لِيَشْدُدُ قُلُوبَ رِجَالٍ حَتَّى تَكُونَ أَشَدَّ مِنَ الْحِجَارَةِ! وَإِنْ مِثْلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، مِثْلَ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ: ﴿فَمَنْ تَبْعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١)، وَمِثْلَ عَيْسَى إِذْ قَالَ: ﴿إِنْ تَعَذَّبْتَهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٢)، وَمِثْلَكَ يَا عَمْرٌ مِثْلَ نُوحٍ إِذْ قَالَ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَاراً﴾^(٣).

وقال رسول الله: (أنتم اليوم عالة فلا ينفلتن أحد إلا بفداء أو ضربة عنق).

فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى...﴾ إلى آخر الآيتين. فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «لو نزل عذاب من السماء لما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ لقول سعد: يا نبي الله كان الإثخان في القتل أحب إليّ من استبقاء الرجال»^(٤). أما شرط الأسر فقد حدده قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَتَّخِذَ فِي

(١) إبراهيم/ ٣٦.

(٢) المائدة/ ١١٨.

(٣) نوح/ ٢٦.

(٤) أسباب النزول للواحدي/ ١١٦ وتفسير الطبري/ ٦١/١٤ وتفسير القرطبي/ ٤٧/٨ وتفسير ابن

كثير/ ٣٢٥/٢ والخازن/ ٤٠/٣ وتفسير الزمخشري/ ١٦٨/٢.

الأرض ﴿ أي حتى يكثروا القتل في أعداء الله فيقوى بأسهم ويشتد أمرهم ، ويعظم شأنهم .

وقد ذكر معظم المفسرين ^(١) أن معنى الإِثْخَانِ في الأرض المبالغة في القتل والإكثار منه وقالوا الإِثْخَانِ في كل شيء عبارة عن قوته وشدته . والمعنى حتى يُبَالِغَ في قتل المشركين ويغلبهم ويقهرهم فإذا حصل ذلك فله أن يقدم على الأسر . وقيل معناه التمكن والقهر حتى تظهر شوكة المسلمين وقوتهم ويذل الكفار ولا يخشى بأسهم .

وقال النيسابوري ^(٢) : ﴿ حتى يثخن في الأرض ﴾ هذا يدل على أن الأسر كان مشروعاً ولكن بشرط سبق الإِثْخَانِ ، ولا شك أن الصحابة قتلوا يوم بدر خلقاً كثيراً ، فظنوا أن ذلك القدر من القتل بلغ حد الإِثْخَانِ ، فأخطأوا في الاجتهاد .

ورأى القرطبي ^(٣) قريب من هذا الرأي (والنبي ﷺ لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب ، ولكنه عليه السلام شغله بغت الأمر ونزول النصر فترك النهي عن الاستبقاء) . فلا بد من تقديم الإِثْخَانِ ثم بعده الأسر . على أن للإِثْخَانِ في الأرض - أي للتمكن والقوة وعظمة السلطان فيها - سببين لا سبباً واحداً . أحدهما : الاستعداد التام للقتال ، وهو الذي يُرهب الأعداء . والثاني : تقتيل الأعداء في الحروب ، وهو الذي يُمكن للمتصّر في الأرض ، ومن أجل هذا قال تعالى : ﴿ حتى يثخن في الأرض ﴾ ولم يقل (حتى يثخن في القتل) .

(١) تفسير القرطبي ٤٥/٨ والكشاف ١٦٨/٢ وفتح القدير ٣١٠/٢ والفتوحات الإلهية ٥٧/٢ وأنور التنزيل ٣٣٥/٢ والخازن ٥٢/٣ .

(٢) غرائب القرآن ٢٨/١٠ .

(٣) تفسير القرطبي ٤٦/٨ .

فإن من المجريات التي لا شك فيها أن الإثخان في قتل الأعداء في الحرب سبب من أسباب الإثخان في الأرض ، أي التمكّن والقوة وعظمة السلطان فيها (١) .

فإذن شرط الأسر هو كثرة القتل في الأعداء وقهرهم حتى لا يقدرُوا على مقاومة المسلمين بعد ذلك ليتمكن سلطان الإسلام ويرهب جانبه .

ولذلك قال تعالى معاتباً المسلمين بقوله : ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا ﴾ وذلك على قبولهم الفدية من المشركين وهو الذي لا يصح غيره على حد تعبير القرطبي (٢) .

قال ابن عباس « كان هذا يوم بدر والمسلمون يومئذ قليل ، فلما كثروا واشتد سلطانهم أنزل الله عز وجل بعد هذا في الأسارى ﴿ فَأِمَّا مِّنَّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءٍ ﴾ » . وكلام ابن عباس هذا يوهم أن مقتضى الآيتين مختلف ، وليس كذلك فإن كليهما تدل على أنه لا بُدَّ من تقديم الإثخان على الفداء (٣) .

وهذا ما قاله الرازي واستشهد برأيه صاحب الفتوحات الإلهية : قال الرازي : إن المراد من الآية حصول الأسر لغرض أخذ الفداء ، وذلك لا يدل على أن أخذ الفداء محرم مطلقاً . وقال القرطبي (٤) : إنما عوتبوا لأن قضية بدر كانت عظيمة الموقع والتصريف في صناديد قريش وأشرفهم وساداتهم وأموالهم بالقتل والاسترقاق والتملك . وذلك كله

(١) تفسير سورة الأنفال / ١٨٠ وتفسير المنار ١٠ / ٨٤ .

(٢) تفسير القرطبي ٨ / ٤٦ .

(٣) غرائب القرآن ١٠ / ٢٨ .

(٤) تفسير القرطبي ٨ / ٤٦ .

عظيم الموقع فكان حقهم أن ينتظروا الوحي ولا يستعجلوا ، فلما استعجلوا توجه إليهم ما توجه) . والذي أراه أن الآية نصت صراحة على شروط الإثخان أولاً قبل الإقدام على الأسر ومما ثبت ثانياً لإكثارهم من الأسرى وتقليلهم من القتل لأجل الحصول على الفداء لا لأنهم قبلوا الفداء بعد اتخاذ الأسرى . وهذا الرأي يؤيده قول الله تعالى في سورة القتال : ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثختموهم فشدوا الوثاق فإما منّا بعد وإما فداء ﴾ (١) .

قال سعيد بن جبیر : لا يكون فداء ولا أسر إلا بعد الإثخان والقتل بالسيف (٢) . فإننا نرى أن شرط الأسر في السورتين هو هو ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ﴾ وقوله ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثختموهم فشدوا الوثاق ﴾ .
فالإثخان شرط أساسي لاتخاذ الأسرى .

أما مسألة عتابهم على قبول الفداء ففيها نظر لقوله تعالى : ﴿ فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً ﴾ (٣) . فلو كان أخذ الفداء محرماً ، وكان العتاب من أجل قبوله لما نزلت هذه الآية عقب قوله تعالى : ﴿ تريدون عرض الدنيا ﴾ مباشرة . وإنما كان العتاب كما يقول ابن كثير على الاستكثار من الأسارى يوم بدر ليأخذوا منهم الفداء والتقليل من القتل يومئذ (٤) . ويؤيد هذا ما روته كتب التفسير وأسباب النزول عن سعد بن

(١) محمد / ٤ .

(٢) تفسير القرطبي ٢٢٨/١٦ .

(٣) الأنفال / ٦٩ .

(٤) تفسير ابن كثير ١٧٣/٤ .

معاذ رضي الله عنه حين أخذ المسلمون يأسرون المشركين ، نظر رسول الله إلى سعد فرأى في وجهه الكراهية لما يصنعون فقال : لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم ، قال : أجل - والله يا رسول الله كانت أول وقعة أوقعها الله - بأهل الشرك ، فكان الإثخان في القتل أحب إليّ من استبقاء الرجال .

ولهذا قال رسول الله : «لو نزل عذاب من السماء لما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ»^(١) . أما قوله تعالى : ﴿فَأِمَّا مَنَّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ فهو النص الوحيد في كتاب الله الذي يتعلق بحكم الأسرى . فالله سبحانه يُخير ولي أمر المسلمين وحاكمهم العادل بين أمرين لا ثالث لهما لأن (إما) تفيده التخيير والحصص^(٢) . ﴿فَأِمَّا مَنَّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ . ولم يقل قتلاً أو استرقاقاً ، لأن ذلك خارج عن معنى التخيير .

وكان الحسن وعطاء وسعيد بن جبيرة يكرهون قتل الأسير وقالوا لو من عليه أو فاداه كما صنع رسول الله بأسارى بدر لأن الله قال : ﴿فَأِمَّا مَنَّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ فخير بين هذين بعد الأسر لا غير^(٣) .

وقال الترمذي^(٤) : «العمل عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام أن للإمام أن يمن على من يشاء من الأسارى» .

وكان الحسن رضي الله عنه يكره قتل الأسير إلا في الحرب ليهيب به العدو . وحماد بن أبي سلمة رحمه الله كان يكره قتل الأسير بعد ما

(١) كتب التفسير السابقة وصور من حياة الرسول / ٣١٥ .

(٢) تفسير الرازي ٣٦٣/٧ يقول (إما) تفيده الحصر مثل (إنما) .

(٣) المغني لابن قدامة ٢٠٤/٩ .

(٤) جامع الترمذي ٣٨٦/٢ .

وضعت الحرب أوزارها . وجملة قولهما إن إباحة القتل لدفع محاربتهم .

قال الله تعالى : ﴿ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ﴾ وقد اندفع ذلك بالأسر وانقضاء الحرب فليس في القتل بعد ذلك إلا إبطال حق المسلمين بعد ما ثبت في رقابهم وذلك لا يجوز . واستدلوا على ذلك بما روي أن عبد الله بن عامر بعث إلى ابن عمر رضي الله عنهما بأسير ليقتله فقال : أما والله مصوراً فلا أقتله . . يعني بعدما شددموه وأسرموه فلا أقتله . واستشهدوا بآية ﴿ فإِذَا قَاتَلْتُمُ الْكُفْرَانَ فَغِيْرُ الْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُنَافِقِيْنَ وَالْمُشْرِكِيْنَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالَّذِيْنَ آمَنُوا بِآيَاتِ الرَّسُولِ ثُمَّ أَعْرَبُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ أُولَئِكَ نَجْمِلُهُم بِالْحَقِّ وَالْحَقَّ كُنَّا نَعْتَدُ ﴾ وقالوا إنّما أمرنا الله بالقتال إلى غاية الأسر ، ثم جعل الحكم بعد ذلك المن أو الفداء (١) .

وقال الشيعة الإمامية (٢) إن أخذ الأعداء بعد انقضاء الحرب لم يقتلوا واستدلوا بنفس الدليل الذي استدل به الحسن رضي الله عنه .

وإذا تتبعنا صنع رسول الله في الأسرى في سائر غزواته لوجدنا أنه قال في شأن أسارى بدر «لو كان المُطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء التني لتركتم له» أي لأطلقتم له بغير فداء مكافأة له على إحسانه في السعي في نقض الصحيفة التي كتبها قريش في أن لا يبايعوا الهاشمية والمطلبية ولا يناكحوهم (٣) .

فقد من الرسول على أبي عزة الشاعر (عمرو بن عبد الله بن عمير الجمحي) إذ قال لرسول الله : لي خمس بنات ليس لهن شيء فتصدق

(١) السير الكبير ٢/١٠٢٤ تحقيق صلاح الدين المنجد (مصروراً: أي موثقاً مربوطاً) .

(٢) الروضة البهية ١/٢٢٢ .

(٣) شرح مسلم ١٢/٨٧ وسنن أبي داود ٣/٧٦ وسنن البيهقي ٦/٣١٩ ونيل الأوطار ٧/٣٠٢ .

والسير الكبير ٣/١٠٢١ .

بي عليهن يا محمد ، وإني معطيك موثقاً لا أقاتلك ولا أكثر عليك أبداً .
فأمنه النبي وأرسله من غير فداء (١) .

وقد نال المن بفداء أبو العاص بن الربيع ثم رده عليه ، وكانت تلك المعاملة الرقيقة سبباً في إسلامه (٢) ومَنْ رسول الله على ثمامة بن أثال الحنفي سيد أهل اليمامة . قال له رسول الله ما وراءك يا ثمامة ؟ فقال : إن عاقبت عاقبت ذا ذنب ، وإن مننت مننت على شاکر ، وإن أردت المال فعندي من المال ما شئت ، فمن رسول الله عليه بشرط أن يقطع الميرة عن أهل مكة . ففعل ذلك حتى قحطوا .

وقد كانت هذه المعاملة الحسنة سبباً في إسلامه وصدق إيمانه . فقد قال حين أعلن إسلامه لرسول الله لقد كان وجهك أبغض الوجوه إليّ ، ولقد أصبح أحب الوجوه إليّ . وقال في الدين والبلاد مثل ذلك (٣) .

وقد سألت أم المنذر سلمى بنت قيس رسول الله رفاعة بن سموأل القرظي ، فوهبه لها . ووهب رسول الله لثابت بن قيس بن شماس دم الزبير بن باطا القرظي وامراته وولده وماله يوم مذبحة بني قريظة (٤) .

وتزوج رسول الله جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار من سبايا بني المصطلق ، فأعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق إكراماً

(١) حياة محمد / ٢٧٣ هيكل .

(٢) حياة محمد / ٢٧٥ هيكل .

(٣) شرح مسلم ٨٧/١٢ و سنن أبي داود ٧٦/٣ و سنن البيهقي ٣١٩/٦ و نيل الأوطار ٣٠٢/٧ و سيرة ابن هشام ١٠٥٤/٤ و السير الكبير ١٠٣١/٣ تحقيق المنجد .

(٤) سيرة ابن هشام ٧٢٣/٣ - ٧٢٤ .

لصهر رسول الله ، فما كانت إمراة أعظم بركة على قومها منها ، كما قالت السيدة عائشة رضي الله عنها» (١) .

وَمَنْ رَسُولَ اللَّهِ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ يَوْمَ الْفَتْحِ وَقَالَ لَهُمْ «اذْهَبُوا فَأْتُمُ الْبَلَدَ» وَكَذَلِكَ مِنْ عَلَى أَهْلِ خَيْبَرَ (٢) .

وَمَنْ رَسُولَ اللَّهِ عَلَى ثَمَانِينَ رَجُلًا (٣) مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ هَبَطُوا عَلَى النَّبِيِّ وَأَصْحَابِهِ لِيَقْتُلُوهُمْ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي شَأْنِهِمْ ﴿ هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ (٤) . هذا ، وقد نصت لائحة الحرب البرية أن من (أحوال) انتهاء الأسر ، على ما يشبه المن في الإسلام . فمن أحوال إطلاق الأسرى الإخراج بلا قيد ولا شرط ، أو الإخراج تحت شرط وهو إطلاق سراح الأسير بعد كلمة الشرف على ألا يعود إلى حمل السلاح ضد الدولة التي أفرجت عنه ، وليس من حق دولته إلزامه بأي عمل يتنافى مع وعده ، أو تقبل منه الإخلال بوعده إذا هو عرض الالتحاق بخدمة جيشه من جديد فإذا أخل بذلك حوكم وعوقب ولو بالإعدام» (٥) .

وكل هذه النصوص معمول بها في الشريعة الإسلامية كما ذكرت من الأمثلة السابقة . ومثال ذلك : أبو عزة الشاعر الذي مَنّ عليه رسول الله وشرط عليه ألا يُظاهر على الرسول أحداً . ثم قدم مع

(١) سيرة ابن هشام ٣/٧٦٢ .

(٢) الأموال / ١١٧ .

(٣) معالم السنن للبيهقي ٢/٢٨٨ وسنن ابن داود ٣/١٨٢ .

(٤) الفتح / ٢٠ .

(٥) قانون الحرب والحياد / ٢٨٠ للدكتور سامي جهينة والقانون الدولي العام / ٦٨١ أبو هيف

ط ١٩٥٩ .

المشركين في أحد وحرّض بشعره على قتال الرسول فلما أسر للمرة الثانية يوم (أحد) قال للرسول : يا محمد ، إنّما خرجت كرهاً ، ولي بنات فأمنن علي فقال رسول الله : «أين ما أعطيتني من العهد والميثاق ، لا والله لا تمسح عارضيك بمكة تقول : سخرت بمحمد مرتين» ، ثم أمر بضرب عنقه (١) .

وأمثلة قتل المخالف لشروط المن كثيرة منها أيضاً : أن زيد بن حارثة وعمار بن ياسر قتلا معاوية بن المغيرة بعد حمراء الأسد ، كان لجأ إلى عثمان بن عفان فاستأمن له رسول الله فأمنه ، على أن وجد بعد ثلاثة قتل ، فأقام بعد ثلاث فوجداه فقتلاه (٢) . وقد ذكرنا أنه عليه الصلاة والسلام قد منّ على ثمامة بن أثال بشرط أن يقطع (الميرة) عن أهل مكة ففعل .

فداء الأسرى أو مفاداتهم :

وفداء الأسرى ومفاداتهم جائز بنص الآية ﴿فِيمَا مِّنَّا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءُ﴾ وبسنة رسول الله في معاملة الأسرى .

قال ابن قدامة (٣) : «ولنا في جواز المن والفداء قوله تعالى : ﴿فِيمَا مِّنَّا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءُ﴾ وقد فادى رسول الله أسارى بدر وكانوا ثلاثة وسبعين رجلاً كل رجل منهم بأربعمائة درهم وفادى رجلين برجلين .

(١) معالم السنن ٢٨٨ك٢ وسنن أبي داود ٨٢/٢ وسيرة ابن هشام ١٠٤/٢ تحقيق الأبياري والسقا .

(٢) سيرة ابن هشام ١٠٥/٢ تحقيق الأبياري والسقا .

(٣) المغنى ٢٠٤/٩ .

وكان قبول الفداء هو رأي أبي بكر رضي الله عنه ليقوى المسلمون بمال الفداء (١) .

وجاء في سنن الترمذي عن عمران بن حصين : أن رسول الله فدى رجلين من المسلمين برجل من الكفار (٢) .

وورد عن سلمة بن الأكوع فيما أخرجه مسلم وأبو داود وابن ماجه - أنه وهب للرسول امرأة من سبي فزاره ففدى بها ناساً من المسلمين كانوا أسروا بمكة (٣) .

وقال ابن جرير الطبري : أجمع الفقهاء ، أن لإمام المسلمين أن يفدي أسرى المسلمين من العدو بالعروض من النبات وغيره ، غير السلاح والكراع (٤) .

قال الترمذي (٥) : والعمل على هذا (أي جواز الفداء) عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ .

وقال أبو عبيد (٦) : وقد أفتى بالفداء غير واحد من العلماء .

وقد جعل النبي فداء بعض أسرى بدر ممن يعرفون الكتابة أن يُعلم عشرة من صبيان المسلمين الكتابة (٧) .

(١) تفسير القرطبي ٤٥/٨ .

(٢) سنن الترمذي ١٣٥/٤ وسنن البيهقي ٣٢٠/٦ و٦٧/٩ .

(٣) شرح مسلم ٦٨/١٢ وسنن أبي داود ٨٦/٣ وسنن ابن ماجه ١٠١/٢ والمغني ٣٧٦/٨ .

(٤) اختلاف الفقهاء - شخت / ١٨٩ .

(٥) جامع الترمذي ٣٨٦/٢ وشرح مسلم ٦٨/١٢ وسنن البيهقي ٣٢٤/٦ .

(٦) الأموال / ١٢١ .

(٧) صور من حياة الرسول / ٢٢٢ .

ويقول الشيخ محمد أبو زهرة (١) إما أن يمن القائد أو ولي الأمر من المسلمين على الأسرى بالحرية إذا لم يكن فداء من مال أو نفس ، وإما أن يفتدي الأسرى بمال أو بأسرى مثلهم من المسلمين وهذا ما يسمى في لغة العصر (تبادل الأسرى) وأن ذلك النوع من الفداء أولى بالاتباع لأن فيه إطلاق الحرية لطائفتين كبيرتين من بني الإنسان مسلمين وغير مسلمين ، فإن دين الحرية يقدر الحرية في غير أتباعه كما يقدرها في أتباعه إذ أن الداعي إلى الحرية ، إذا كان حراً لا يخص بها إقليماً دون إقليم ، ولا جنساً دون جنس ، ولا ديناً دون دين ، لأن الحرية كالماء والغذاء والهواء حق طبيعي لكل إنسان .

وهذا ما ينص عليه القانون الدولي الحديث الذي قضى بتبادل الأسير مع زميل له من جيش العدو ، ويحصل ذلك باتفاق خاص بين المتحاربين يطلق عليه اسم (كارتل) وينص فيه على شروط هذا التبادل ويراعى في التبادل عادة التكافؤ جريح بجريح ، وجندي بجندي وضابط برتبة معينة بضابط من رتبة تقابلها (٢) .

قتل الأسير :

قال الجصاص : اتفاق فقهاء الأمصار على جواز قتل الأسير ، ولا نعلم بينهم اختلافاً فيه ، وقد تواترت الأخبار عن النبي عليه الصلاة والسلام في قتله الأسير . منها قتله عقبة بن أبي معيط ، والنضر بن الحارث يوم بدر ، وقتل النبي أبا عزة الشاعر يوم أحد بعد أسره ، وقتل

(١) تمهيد السير الكبير / ٧٤ .

(٢) قانون الحرب والسلام : للدكتور سامي جنية / ٢٨٢ والقانون الدولي العام ٦٩٧ أبو هيف .

بني قريظة بعد نزولهم على حكم سعد بن معاذ ، فحكم فيهم بالقتل وسبي الذرية ، ومن على الزبير بن باطا من بينهم ، وفتح خير بعضها صلحاً وبعضها عنوة ، وشرط على ابن أبي الحقيق ألا يكتم شيئاً ، فلما ظهر على خيانتة وكتمانه قتله ، وفتح مكة وأمر بقتل هلال بن أخطل ، ومقيس بن صبابة ، وعبدالله بن أبي السرح . وقال : اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة . إلى أن قال : فهذه آثار متواترة عن النبي وعن الصحابة في جواز قتل الأسير وفي استبقائه واتفق فقهاء الأمصار على ذلك ^(١) وأدلة هؤلاء الفقهاء الذين قالوا بجواز قتل الأسير :

٦ - إن آية ﴿ فإما مَنَّا بعد وإما فداء ﴾ منسوخة . والذي نسخها آية السيف في سورة براءة ﴿ فإذا انسَلَخَ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ وهي آخر سورة نزلت بالتوقيف ، فوجب أن يقتل كل مشرك إلا من قامت الدلالة على تركه من النساء والصبيان ومن تؤخذ منه الجزية ^(٢) .

وقالوا : لأن الأمن عن القتل إنما يثبت بالأمان أو بالإيمان ، وبالأسر لا يثبت شيء من ذلك فسيبقى مباح الدم على ما كان قبل الأسر ^(٣) .

الرد على القائلين بنسخ الآيتين :

قال النحاس : القول إن الآيتين محكمتان قول حسن ، لأن النسخ لا يكون إلا لشيء قاطع ، فإذا كان الأسر جاز القتل والاسترقاق والمفاداة

(١) تفسير الجصاص ٣/٣٩١ .

(٢) سنن البيهقي ٦/٣٢٣ والقسطلاني ٦/٣٧٨ والناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم للنحاس ٢٢٠ والناسخ والمنسوخ / ٢٨٩ لابن سلامة والأموال / ١٢٨ .

(٣) السير الكبير ٢/١٠٢٤ تحقيق د. صلاح الدين المنجد .

والمن ، على ما فيه الصلاح للمسلمين . وهذا القول يروى عن أهل المدينة والشافعي وأبي عبيد (١) .

وقال ابن كثير (٢) : ادعى بعض العلماء أن هذه الآية منسوخة والأكثرون ليست بمنسوخة .

وقال ابن جبير (٣) : والصواب من القول عندنا إن هذه الآية محكمة غير منسوخة ، وذلك أن صفة الناسخ والمنسوخ غير متوفرة . وغير مستنكر أن يكون جعل الخيار في المن والفداء والقتل إلى الرسول وإلى القائمين من بعده بأمر الأمة ، وقد رأى هذا الرأي ابن عباس وابن عمر والحسن وعطاء ، وهو مذهب مالك والشافعي والأوزاعي وأبي عبيد والقاسمي .

وقال القرطبي وهو الاختيار لأن النبي والخلفاء الراشدين فعلوا ذلك (٤) .

وقال ابن زيد : الآيتان محكمتان وهو الصحيح . لأن المن والقتل والفداء لم يزل من حكم رسول الله فيهم من أول حرب حاربهم ، وهو يوم بدر (٥) .

وقال ابن قدامة (٦) : وقوله تعالى : ﴿ اقتلوا المشركين ﴾ عام لا

(١) تفسير القرطبي ٢٢٨/١٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ٧٣/٤ .

(٣) تفسير الطبري ٤٧/٢٦ ط الحلبي .

(٤) محاسن التأويل ٥٣٧٥/١٥ وتفسير القرطبي ٢٢٨/١٦ و٧٣/٨ .

(٥) تفسير القرطبي ٧٣/٨ .

(٦) المغني ٢٠٤/١٠ .

ينسخ به الخاص . والإمام في رأيه مخير في الأسرى تخيير مصلحة واجتهاد لا تخيير شهوة فمتى رأى خصلة أصلح تعينت عليه ولم يجز العدول عنها . فبعض الأسرى له قوة نكاية بالمسلمين وبقاؤه ضرر عليهم فقتله أصلح ، ومنهم الضعيف الذي له مال كثير ففداؤه أصلح . ومنهم حسن الرأي في المسلمين يُرجى إسلامه بالمن عليه أو معونته للمسلمين بتخليص أسراهم والدفع عنهم فالمن عليه أصلح . ومنهم من يتتفع بخدمته ويؤمن شره فاسترقاقه أصلح كالنساء والصبيان والإمام أعلم بالمصلحة فينبغي أن يؤمن ذلك إليه .

أما الذي أكاد أجزم بصحته أن الآيتين محكمتان . وآية ﴿ فإما مَنَّا بعدُ وإما فداء ﴾ . هي الآية الوحيدة في القرآن التي نصت صراحة على حكم الأسرى في الإسلام . وهي ليست منسوخة لأن النسخ إنما يكون عند المعارضة في الحكم وما دامت هي الوحيدة فمن أين تأتي المعارضة . . أما آية براءة المذكورة التي زعموا أنها نسخت هذه الآية فهي ليست في حكم الأسرى وإنما هي في قتال المشركين وقتلهم حيث وجدوا ولا تفيد أبداً أن هذا يكون بعد أسرهم .

وفي رأبي أنه لا يجوز للإمام إلا «المن أو الفداء» ، أما القتل والاسترقاق فهو أقرب إلى التحريم منه إلى الإباحة ، لأن الآية أيضاً لم تمنع القتل وتحرمه تحريماً مطلقاً . وعلى هذا يمكننا القول إن المن والفداء ، هي القاعدة العامة وما عداها فهو شاذ يُبحث عن سببه .

ويمكننا معرفة الأسباب التي دعت رسول الله إلى قتل بعض الأسرى . فلم يقتل من أسرى بدر السبعين إلا اثنين لقسوتهم وجرائمهما السابقة في حق المسلمين وفي حق رسول الله نفسه إذ كان

كلاهما شيطاناً من شياطين قريش ، ومن أشد المشركين إيذاء للنبي وصحبه الكرام ، وأفظعهم تقولاً على كتاب الله وصدأً عن سبيله .

روى الشعبي^(١) أنه لما أمر رسول الله بقتل عقبة قال : «أتقتلني يا محمد من بين قريش؟ قال: نعم! أتدرون ما صنع هذا بي؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام فوضع رجله على عنقي وغمزها، فما رفعها حتى ظننت أن عيني ستندران وجاء مرة أخرى بسلا شاة فألقاه على رأسي وأنا ساجد ، فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسي . وجاءه مرة وهو يصلي في حجر الكعبة فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه ، ودفعه عن النبي وقال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله فأنزل الله في قوله: ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات ﴾^(٢) . . وقال أبي بن خلف وكان صديقاً لعقبة: «وجهي من وجهك حرام إن لم تأت محمداً فتنفل في وجهه ففعل عدو الله ذلك لعنة الله»^(٣) .

فأنزل تعالى فيهما ﴿ ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ، يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً ، لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً ﴾^(٤) .

هذه هي بعض جرائم عقبة بن أبي معيط في حق رسول الله وحده ،

(١) صحيح البخاري ٥٧/٥ .

(٢) غافر / ٢٨ .

(٣) صحيح البخاري ٥٧/٥ ، ٥٨ والسيرة النبوية ، لدحلان وسيرة ابن هشام ٣٦١/٢ وصور من

حياة الرسول / ٣٢٩ .

(٤) الفرقان / ٢٧ - ٢٩ .

وما فعله مع المسلمين أشد وأنكى ، أما النضر بن الحارث ، فكان إذا جلس رسول الله مجلساً ، فدعا فيه إلى الله تعالى وتلا فيه القرآن ، وحذر فيه قريشاً ما أصاب الأمم الخالية خلفه في مجلسه إذ قام ، فحدثهم عن رستم واسفنديار ، وملوك فارس ثم يقول والله ما محمد بأحسن حديثاً مني ، وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما أكتبتها^(١) . فأنزل الله تعالى : ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ﴾ . إلى قوله : ﴿ إنه كان غفوراً رحيماً ﴾^(٢) .

ونزل فيه أيضاً ﴿ إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾^(٣) . ونزل فيه ﴿ ويل لكل أفك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم ﴾^(٤) .

وعقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث وأمثالهما ليسا أسرى حرب وإنما هما وأمثالهما مجرمو حرب بلغة العصر الحديث^(٥) . فالرسول لم يقتلها بسبب وقوعهما في الأسر ولكن لجرائم سابقة شهد عليها القرآن الكريم وكتب الحديث والسيرة .

ويقف غير واحد من المستشرقين عند قتل هذين المجرمين ويتساءل : ليس في ذلك ما يدل على ظمأ هذا الدين الجديد إلى الدم ، على أن هذا التساؤل لم يلبث أن ينهار ويتداعى إذا نحن وازنا بين صنيع

(١) سيرة ابن هشام ٣٥٨/٢ .

(٢) الفرقان / ٥ ، ٦ .

(٣) القلم / ١٥ .

(٤) الجاثية / ٨ .

(٥) الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام / ٢٩٤ أبو هيف ٦٥٠ و ٦٥١ ومجلة الرسالة عدد ٦٥٩ لسنة ١٩٤٦ .

المسلمين، وما يجري اليوم وما سيجري دائماً ما دامت الحضارة الغربية التي تتشع بوشاح المسيحية، متحكمة في الأرض، فهل تراه يوازي شيئاً إلى جنب ما يقع باسم قمع الثورات في بلاد يحكمها الاستعمار على كره من أهلها وهل تراه يوازي شيئاً مما حدث في أثناء الثورة الفرنسية الكبرى وفي الثورات التي وقعت وتقع في أوروبا، وليس من شك في أن الأمر بين محمد وأصحابه كان ثورة قوية منذ بعثه الله ليقوم في وجه الوثنية والمشركين من عبادها^(١).

أما حادثة بني قريظة التي استشهد بها الجصاص وأصحاب المذهب الحنفي. وهلل لها المستشرقون ورفعوا عقائرهم صائحين! المسلمون متعطشون لسفك دماء اليهود ومتعصبون. . إلخ.

إننا نستطيع أن نردها إلى الأسباب التالية:

١ - إنهم ليسوا أسرى حرب، وإنما كانوا من مواطني الدولة ورعاياها الذين يدينون لها بالطاعة ويتمتعون بكل حقوق أهلها، وقد أعطوا على أنفسهم عهدهم وموائيقهم ألا يخونوا ولا يغدروا ولا يعينوا عدواً ولا يُقدموا يداً بأذى، فغدروا وخانوا في أخرج الظروف وطعنوا المسلمين من خلفهم بتآمرهم على الدولة مع أعدائها في أثناء الحرب، بانضمامهم إلى جيش الأحزاب. وإعلانهم الحرب على المسلمين. وكادت خيانتهم تعصف بالمسلمين وتقضي عليهم جميعاً لولا عناية الله وكرمه فهم من البغاة الخارجين على الدولة ومن أعتى المجرمين المفسدين الذين يسعون في الأرض فساداً فيهلكون الحرث والنسل وقد نص القرآن الكريم على عقوبة أمثالهم بقوله: ﴿إنما جزاء الذين

(١) حياة محمد / ٢٧٣ و ٢٧٤ هيكل.

يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ» (١).

٢ - إن الأمر في شأنهم انتهى إلى تحكيم سعد بن معاذ وهم من مواليه فحكم عليهم بشريعتهم بعد أن سلموا على شرطه ، فحكمه جاء موافقاً لشريعة اليهود وحيث يحتكم الطرفان المتنازعان فالقول ما قضاه الحكم . ولقد قال رسول الله لسعد : «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة» (٢) .

٣ - كان حكم سعد جزاء وفاقاً لجريمة الخيانة العظمى التي ارتكبوها والذي تعمل به كل الدول في القديم والحديث (٣) .

٤ - إنه على فرض اعتبارهم أسرى حرب فقد نزل في شأنهم حكم خاص دون الحكم العام في شأن غيرهم من أسرى الحروب حيث أذن الله تنفيذ حكم سعد بن معاذ بقوله تعالى في سورة الأحزاب : ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرِّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ (٤) . أي تقتلون الرجال وتأسرون النساء والذرية (٥) .

وَلَمْ يَسْتَنْكِرُوا ذَلِكَ؟ أَفَلَمْ يَقْرَأُوا مَا جَاءَ فِي الْإِصْحَاحِ الثَّالِثِ عَشَرَ مِنْ تَثْنِيَةِ الْاِشْتِرَاعِ فِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ «فَضْرِبَا تَضْرِبَ سَكَانِ تِلْكَ

(١) المائة / ٣٣ .

(٢) البخاري ١٣٤/٥ وسيرة ابن هشام ١٧٢/٣ ، تحقيق محيي الدين عبد الحميد .

(٣) الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام ٢٢٢ والرسالة الخالدة للأستاذ عبد الرحمن عزام

١١١ ، ١١٢ والجهاد في الإسلام للأستاذ محمد شديد / ١٤٨ .

(٤) الأحزاب / ٢٦ .

(٥) تفسير القرطبي ١٤ / ١٦١ .

المدينة بحد السيف وتحرقها بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف،
تجمع كل أمتعتها إلى وسط ساحتها وتحرق بالنار المدينة وكل أمتعتها
كاملة للرب إلهك فتكون تلا إلى الأبد لا تُبنى بعد^(١).

وما جاء في الإصحاح العشرين (فكل الشعب الموجود فيها يكون
لك للتسخير ويستعبد لك وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً
فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد
السيف. أما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها
فتغنمها لنفسك»^(٢).

ويظهر جلياً من هذه النصوص أن سعد بن معاذ حليف اليهود في
الجاهلية كان على علم بها فحكم فيهم بنص كتبهم بل أراه رحم النساء
والذرية لأن شريعة اليهود تفرض حرق الجميع بالنار كما جاء في
الإصحاح الثالث عشر.

أما مجرمو الحرب في مكة فكانوا خمسة عشر شخصاً فيما تروي
كتب السيرة أمر رسول الله بقتلهم ساعة دخل مكة ولم يكن قرار القتل
لحقد منه أو غضب عليهم، فهو لم يكن يعرف الحقد، ولكن لجرائم
كبيرة ارتكبوها فأحدهم عبد الله بن أبي السرح كان قد أسلم وكان يكتب
الوحي للرسول فارتد مشركاً إلى قريش زاعماً أنه كان يُزيّف الوحي حين
يكتبه. وهلال بن خطل كان قد أسلم ثم قتل مولى له وارتد مشركاً وأمر
جاريتيه أن تغنيا بهجاء رسول الله ومقيس ابن صبابه، وإنما أمر رسول الله

(١) الإصحاح الثالث عشر ١٥ و ١٦.

(٢) الإصحاح العشرون (العهد القديم) ١٠ - ١٨.

بقتله، لقتل الأنصاري الذي قتل أخاه خطأ، ورجوعه إلى قريش مشركاً^(١).

ولما استقر الأمر وهدأت الحال ورأى الناس من فسحة صدر رسول الله ومن عفوه الشامل ما رأوه، طمع بعض أصحابه أن يعفو عن هؤلاء الذين أمر بقتلهم فعفا عنهم جميعاً ولم يقتل إلا هؤلاء الثلاثة عبد الله بن أبي سرح وهلال ابن خطل ومقيس بن صبابه لجرائمهم الشنيعة من كفر وارتداد عن الإسلام وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وهجاء لرسول الله. فكل جريمة من جرائمهم تستحق القتل ولكن الواحد منهم قد جمع أكثر من جريمتين أو ثلاث فهم مجرمو حرب وليسوا أسرى حرب.

وبهذا نؤكد مرة أخرى أن قتل الأسرى أقرب إلى التحريم منه إلى الإباحة، وإن أبيض فهو دواء ناجع في حالات فردية خاصة وللضرورة القصوى، لحسم مادة الفساد إن خيف ألا تُحسم بغير هذه الذريعة، وليس ذلك علاجاً لحالات جماعية^(٢).

وقد منع الشافعي رحمه الله وأبو يوسف قتل الأسرى إلا لأسباب معينة كالحاجة إلى إضعاف العدو وإغاظته أو ما تُمليه المصلحة العامة العليا للمسلمين^(٣).

وبهذا يظهر جلياً أن الإسلام بمنأى عما كان سائداً في القرون الوسطى من إعدام الأسرى وذبحهم^(٤). وما يفعله الأوروبيون في

(١) سيرة ابن هشام ٤/٨٦٧، ٨٦٩ تحقيق محيي الدين عبد الحميد، وحياة محمد ٤٢٤، ٤٢٥ هيكلي.

(٢) آثار الحرب في الفقه الإسلامي / ٤٠.

(٣) الأم ٤/١٧٦، والخراج / ١٩٥.

(٤) القانون الدولي العام - أبو هيف / ٦٧٨.

حروبهم الحديثة كما صنع نابليون بونابرت مععلن حقوق الإنسان في الثورة الفرنسية - في عكا سنة ١٧٩٩ م، فإنه أباد ما يزيد على أربعة آلاف بعد تسليمهم عن بكرة أبيهم^(١).

ولعل هذا وما سبق أن ذكرته في الفصول السابقة عن معاملة الصليبيين للمسلمين وحروب الإبادة لأسرى المسلمين في الأندلس يبطل ما يهذي به المستشرقون والمستغربون من أن المسلمين كانوا يعاملون الأسرى معاملة ليست أقل قسوة من سابقهم^(٢).

استرقاق الأسرى:

كان الرق أمراً مشروعاً عند الأمم القديمة من مصريين وبابليين وبراهمة وفرس ويونان ورومان وعرب، وقد أقرته اليهودية واعترفت به المسيحية^(٣).

وقد قسم فلاسفة اليونان الجنس البشري إلى قسمين حر بالطبع، ورقيق بالطبع. وقالوا: إنَّ الثاني ما خلق إلا لخدمة الأول. وجعل أرسطو الرق نظاماً ضرورياً، ومن الضروري اتخاذ الأرقاء للقيام بأعمال الدولة التي تستدعي مجهوداً جسمانياً^(٤)، والفيلسوف أفلاطون اعتبر نظام الاسترقاق نظاماً ملازماً للجمهورية الفاضلة أو للحكومة الإنسانية في مثلها الأعلى، وحرّم على الرقيق حقوق المواطنة والمساواة^(٥).

(١) العلاقات السياسية الدولية / ٤٩ للعمري .

(٢) الحرب في الإسلام / ١٢٧ مجيد خدوري .

(٣) الرق في الإسلام / ٩ - ٢٧ أحمد شفيق والوحي المحمدي / ٢٤٢ والحضارة الإسلامية / ٢٧٧ / ١ لآدم متر ترجمة الدكتور أبوريدة وفجر الإسلام / ٨٧ .

(٤) النظم الإسلامية / ٣٥٩ د. حسن إبراهيم حسن .

(٥) الفلسفة القرآنية / ٧٦ للعقاد وروح الإسلام / ١٤٠ - ١٥٢ للسيد أمير على .

وكان أول من استعبد الأسرى وسخر الشعوب المغلوبة هم الرومان وكانت وجوه الاسترقاق عندهم متعددة^(١).

«فهو نتيجة الأسر أو السبي أو الميلاد أو الدين أو الفرار من الجيش»^(٢)

أما اليهود فقد وجد عندهم نوعان من الاسترقاق: أحدهما استرقاق بعض أفرادها لارتكابه خطيئة من الخطايا المحظورة شرعاً أو في دين عليه. والنوع الآخر: استرقاق غير اليهود ممن قضى عليهم أن يصيبهم شيء من عسف اليهود وحروبهم التي كانوا يقيمونها من غير مسوغ فكانوا يبيعونهم كما يبيعون المتاع، سواء في ذلك العبيد المستخدمون في المنازل وعبيد الحقول والمزارع، فإنهم كانوا يقضون حياتهم محقرين مسخرين. وكانت حياتهم طافحة بالمتاعب والشدائد، إذ كانوا يكابدون الأعمال الشاقة بصفة دائمة في خدمة سادة لا يعرفون الرحمة^(٣).

ثم جاءت المسيحية فأقرت الرق، ولم تعمل على إلغائه أو تقليله. بل كانت الكنيسة ذاتها تملك الأرقاء وتعترف صراحة بشرعية هذا النظام الجالب للشقاء. وأيد كبار المدنيين الأوربيين الرق بتأثير الكنيسة، وأصروا على فائدته ونفعه باعتباره وسيلة لمنع التسول والسرقة، وتأثير الكنيسة أيضاً أقدم المسيحيون ذوو الثقافة العالية في الولايات الجنوبية من أمريكا الشمالية على معاملة عبيدهم التعساء بأقصى ضروب القسوة،

(١) القانون الدولي / ٥١ أبو هيف والقانون الروماني بدر بدر اوي / ١٧٤.

(٢) النظم الإسلامية / ٣٥٩ د. حسن إبراهيم حسن.

(٣) سفر اللاويين / ٢٥، ٤٤، ٤٥ والنظم الإسلامية / ٣٦٠ وروح الإسلام / ١٤١ سيد أمير علي.

واسألوا الدماء أنهاراً للإبقاء على هذه الآفة الاجتماعية بين ظهرائهم^(١)، ولا يختلف نظام الرقيق عند العرب في الجاهلية عنه في الأمم الأخرى، فقد كان الرق في الجاهلية نتيجة الأسر في الحروب والشراء، وكانت تجارة الرقيق من أهم موارد الثروة عند القرشيين في الجاهلية^(٢).

وجاء الإسلام والحالة هذه عند الأمم المجاورة فلم يتمكن من إلغاء الرقيق في العالم حتى لا تصطدم دعوته مع مألوف الناس، ولئلا تضطرب الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ولكن الإسلام الذي يُقدر معنى الحرية ولذتها ويعتبر الأصل في الإنسان هو الحرية إلا أنه من خصائص تشريعه التدرج في الأحكام فلم يمح الرق دفعة واحدة ومضى في التدرج بالمسلمين مهيناً أسباباً للقضاء على الرق، وحرم سائر مصادره ما عدا رق الأسر بسبب الحرب العادلة لدفع العدوان^(٣)، وعلى أساس المعاملة بالمثل وكانت سياسة التدرج أفعل من تهيئة الضمير البشري للقضاء على الرق من المفاجأة بالتحريم البات^(٤).

وقد عمد الإسلام إلى تجفيف منابع الرق، ولم يرد نص واحد في القرآن ولا في السنة يسمح بالرق. والنص القرآني الوحيد المتضمن حكم الأسرى (فإما منا بعد وإما فداء) لم يسمح بالاسترقاق وهو أقرب إلى المنع منه إلى الإباحة ومن نافلة القول أن رسول الله لم ينشئ في حياته رقاً على أحد، وقد كانت أفعاله كلها تتجه إلى استنكاره، وكان يحث

(١) روح الإسلام / ١٤٤ سيد أمير علي .

(٢) النظم الإسلامية / ٣٦٠ د. حسن إبراهيم حسن .

(٣) آثار الحرب في الفقه الإسلامي / ٤٤٢ والإسلام دين الفطرة / عبد العزيز جاويز / ٧٩ .

(٤) الرسالة الخالدة / ٨٧ ومحمد المثل الكامل - محمد أحمد خالد المولي / ٢٠٧ . وروح

الإسلام / ١٤٦ سيد أمير علي .

(٥) نظرية الحرب في الإسلام / ٦٥ للشيخ محمد أبو زهرة .

على العتق بالنسبة لمن جرى عليهم الرق من قبل . وكذلك كان الشأن في القرآن، فما عُرف فيه جواز الرق إلا من الأمر بالعتق^(١) . فقد جعل القرآن الكريم مصير الأسير إلى المن أو الفداء، وجعل العتق كفارة عن كثير من الجرائم والذنوب^(٢)، وخصص الإسلام سهماً لتحرير الرقاب، فضلاً عن أنه جعل من أسس النجاة في الآخرة والتقرب إلى الله والفوز برضاه فك رقبة^(٣) .

وقد تعددت المنافذ والسبل إلى التخلص من الرق في الإسلام، فقد أباح الشرع للعبد أن يشتري حريته بأجر خدمته، وإذا لم يكن لديه المال الذي كوتب عليه، سمح له بالاشتغال وكسبه عن طريق آخر، ومساعدته من بيت مال المسلمين، وإذا صدر من السيد أدنى وعد بتحريره ولو هازلاً وجبت له الحرية . وجعل الشرع ضرب الرقيق بغير تأديب محتمل كفارته العتق^(٤) . ومن كل هذا يتضح بجلاء أن الشرع كان يعد الرق أمراً مؤقتاً، وأن استمرار العمل بأحكام الشريعة كفيل بالقضاء النهائي عليه، لأن القرآن لم يقر إلا رق الحرب الشرعية على أساس مبدأ المعاملة بالمثل .

ففي عصر الصحابة رضوان الله عليهم اشتد الالتحام بين المسلمين والمجوس في الشرق والمسلمين والروم في الغرب، وكان استرقاق الأسرى نظاماً متبعاً في حروبهم كما ذكرت، وقد أسروا فعلاً من المسلمين واسترقوهم وباعوهم، فاضطر قواد المسلمين إلى السير على

(١) تاريخ الفقه الإسلامي / ٤٣ د . محمد سلام مذكور .

(٢) تفسير الرازي ٤٣٣/١٠ .

(٣) العقيدة الإسلامية والقانون الدولي العام / ٣٣٠ .

سنة المعاملة بالمثل ولم يكن من المعقول أن يسترق أعداؤهم أسرى المسلمين ويمن المسلمون على الأسرى منهم فإن ذلك يدفع إلى كَلْب الأعداء فيهم واستمراء أفعالهم ولم يجد قواد المسلمين نصاً قوياً يمنع الاسترقاق ولا نصاً ينهى عنه ووجدوا قانون المعاملة بالمثل^(١).

يوجب ذلك في قوله تعالى: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾^(٢). وقوله: ﴿والحُرَمَاتِ قِصَاصٌ...﴾ ولئن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾^(٣). ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾^(٤).

وبتطبيق هذا القانون العادل يكون على المجاهدين أن يسترقوا كما يسترق أعداؤهم والإثم في الحالين واقع على المعتدي ﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة مثلها وترهقهم ذلة﴾^(٥).

وعليه فالإسلام ينادي بإلغاء الرق في العالم اليوم ويؤيد كل من يرفع صوته بهذا النداء لأن ذلك يتفق مع روح الإسلام السمحة الرحيمة التي تدعو إلى تحرير العبيد وعتق الأنفس.

وهذا ما نصت عليه القاعدة الإيجابية الوحيدة (فإما منا بعد وإما فداء) لانقضاء سبب الاسترقاق.

ولعلنا بهذا نبطل ما يهذي به المستشرقون من وصم المسلمين

(١) العقيدة الإسلامية والقانون الدولي العام / ٣٣٣ ونظرية الحرب / ٦٥ للشيخ محمد أبو زهرة وأثار الحرب في الفقه الإسلامي / ٤٤٥.

(٢) البقرة / ١٩٤.

(٣) النحل / ١٢٦.

(٤) الشورى / ٤٠.

(٥) يونس / ٢٧.

بالمهجية والقسوة والاتجار بالرقيق كما يزعم الكردينال لافيجري وغيره^(١).

ثانياً : الأنفال :

اختلف الفقهاء اختلافاً بيناً حول مدلول الغنائم، ومدلول الأنفال، هل هما شيء واحد، أم شيئان مختلفان؟

قال تعالى : ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ﴾^(٢).

ويمكننا إذا تتبعنا الروايات الكثيرة في أسباب نزول هذه الآية الوحيدة في حكم الأنفال في القرآن الكريم الخروج بحكم صحيح لمفهوم (الأنفال).

الرواية الأولى : قال عبادة بن الصامت : فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا فانتزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله فقسمه بين المسلمين عن بواء. خرجنا مع رسول الله فشهدت معه بدرًا فالتقى الناس فهزم الله العدو فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله لا يصيب العدو منه غرة حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض قال الذين جمعوا الغنائم نحن حويناها فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو لستم بأحق به منا نحن منعنا عنه العدو وهزمناهم. وقال الذين أحدقوا برسول الله خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به، فنزلت.

(١) الرق في الإسلام ٦٦ وما بعدها أحمد شفيق .

(٢) الأنفال / ١ .

والرواية الثانية: عن ابن عباس: قال رسول الله «من قتل قتيلاً فله كذا وكذا ومن أتى بأسير فله كذا وكذا» فجاء أبو اليسر بأسيرين فقال: يا رسول الله أنت وعدتنا فقام سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله. إنك لو أعطيت هؤلاء لم يبق لأصحابك شيء وإنه لم يمنعنا من هذا لا زهادة في الأجر، ولا جبن عن العدو وإنما قمنا هذا المقام محافظة عليك أن يأتوك من ورائك، فتشاجروا فنزلت.

الرواية الثالثة: عن مجاهد: إنهم سألوا رسول الله عن الخمس بعد الأربعة من الأحماس فنزلت.

وقال ابن مسعود ومسروق: (لا نفل يوم الزحف إنما النفل قبل التقاء الصفوف).

الرواية الرابعة: وقال ابن المبارك: يسألونك فيما شذ من المشركين إلى المسلمين في غير قتال من دابة أو عبد أو أمة أو متاع فهو نفل للنبي عليه الصلاة والسلام يصنع به ما يشاء.

الرواية الخامسة: إنها الزيادة على القسم. ويشهد بذلك ما ورد في سبب نزول الآية وهو ما رواه الإمام أحمد حيث قال عن سعد بن أبي وقاص: قال لما كان يوم بدر وقتل أخي عمير وقتلت سعيد بن العاص وأخذت سيفه فأتيت به النبي فقال: اذهب واطرحه في الفيء قال: فرجعت وبني ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سلمي، فما جاوزت إلا قريباً حتى نزلت فقال رسول الله اذهب فخذُ سلبك) وفي رواية لما سأل سعد رسول الله السيف قال الرسول: ليس هذا لي ولا لك فلما

نزلت هذه الآية قال: يا سعد إنك سألتني السيف وليس لي وإنه قد صار لي فاذهب فخذ^(١).

ويعقب الطبري على هذه الأقوال فيقول: وأولى هذه الأقوال بالصواب أن يُقال إن الله تعالى أخبر في هذه الآية عن قوم سألوا رسول الله الأنفال أن يعطيهموها فأخبرهم الله أنها لله، وأنه جعله لرسوله.

ثم يقول أيضاً «وإذا كان ذلك معناه، جاز أن يكون نزولها كان من أجل اختلاف أصحاب رسول الله فيها، وجائز أن يكون كان من أجل مسألة من سأله السيف الذي ذكرنا عن سعد سأله إياه، وجائز أن يكون من أجل مسألة من سأله قسم ذلك بين الجيش^(٢). ويرجح ابن جرير أنها زيادات يزيدنها الإمام بعض الجيش أو جميعهم، إما من سهمه على حقوقهم من القسمة، وإما بما وصل إليه بالنفل أو ببعض أسبابه ترغيباً له وتحريضاً لمن معه من جيشه على ما فيه صلاحهم وصلاح المسلمين^(٣).

والذي أراه أن الأنفال غير الغنائم وليست الفية إنما هي زيادات يشترطها القائد لجنوده تشجيعاً لهم وإغراء على قتال العدو. وهذا ما نستنتجه من روايات أسباب النزول السابقة فالنفل في كل شيء الزيادة على الواجب، ويقال له النافلة.

(١) أسباب النزول للواحيدي / ١٥٥ وتفسير ابن كثير ٢/ ٢٨٢ - ٢٨٣ وتفسير القرطبي ٧/ ٣٦٠ - ٣٦٤ وتفسير الزمخشري ٢/ ١٤٠ - ١٤٢ وتفسير الطبري ١٣/ ٣٦٥ وأمتاع الأسماع ١/ ٩٥.

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٣٧٩.

(٣) المرجع السابق ١٣/ ٣٦٥.

قال تعالى : ﴿ ومن الليل فتجهد به نافلة لك ﴾^(١) وقوله تعالى : ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة ﴾^(٢) . وهو ولد الولد . ويقال نفلته كذا أي أعطيته نفلاً ، وNFLه السلطان أعطاه سلب قتيله نفلاً أي تفضلاً وتبرعاً^(٣) .

وفي إسناد صحيح عن ابن عباس أنه فسر النفل بما ينفله الإمام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه بعد قسم أصل المغنم وهو المتبادر إلى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفل وقال ابن عباس أيضاً : (الفرس من النفل والسلب من النفل) . وقال أبو عبيد : سُمي ما جعل الإمام للمقاتلة نفلاً وهو تفضيله بعض الجيش على بعض بشيء سوى سهامهم يفعل ذلك بهم على قدر الغناء عن الإسلام والنكاية في العدو^(٤) .

وقال الزمخشري^(٥) : والنفل ما ينفله الغازي أي يُعطاه زائداً على سهمه من المغنم ، وهو أن يقول الإمام تحريضاً على البلاء في الحرب : من قتل قتيلاً فله سلبه ، أو قال لسرية : ما أصبتم فلكم نصفه أو ربعه ، ولا يُخمس النفل ويلزم الإمام الوفاء به) .

وقال صاحب السير الكبير «المراد من استعمال لفظ الأنفال في عبارة الفقهاء ما يخص به الإمام بعض الغانمين ، فلذلك الفعل يسمى تنفيلاً ، ولا خلاف أن التنفيل جائز قبل الإصابة ، للتحريض على القتال . فإن الإمام مأمور بالتحريض قال تعالى : ﴿ يأبها النبي حرص المؤمنين

(١) الإسرائ ٧٩/ .

(٢) الأنبياء ٧٢/ .

(٣) المفردات في غريب القرآن / ٥٠٢ للراغب الأصفهاني وتفسير القرطبي ٣٦١/٨ .

(٤) تفسير الطبري ٣٦٥/١٣ وتفسير ابن كثير ٢٨٢/٢ - ٢٨٤ .

(٥) الكشاف ١٤٠/٢ .

على القتال ﴿١﴾ فهذا خطاب للرسول ولكل من قام مقامه . والتحريض بالتنفيل واجب فإن الشجعان قل ما يخاطرون بأنفسهم إذا لم يُخصوا بشيء من المصاب ﴿٢﴾ .

وصورة التنفيل أن يقول: من قتل قتيلاً فله سلبه، ومن أخذ أسيراً فهو له، كما أمر به رسول الله المنادي حين نادى يوم بدر وحين، ولم ينقل أنه قال هذا إلا بعد الحاجة إلى التحريض، وروي عن أنس بن مالك أن رسول الله قال يوم حنين: من قتل كافراً فله سلبه فقتل أبو طلحة يومئذ عشرين وأخذ أسلابهم ﴿٣﴾ .

قال ابن جرير: «وللائمة أن يتأسوا برسول الله في مغازيهم بفعله فينفلوا على ما كان ينفل إذا كان التنفيل صلاحاً للمسلمين ﴿٤﴾ .

وعلى هذا يكون معنى آية الأنفال ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ أي يسألك الشبان ما شرطت لهم من الأنفال ولذا قرأ ابن مسعود: يسألونك الأنفال ﴿٥﴾ أي يطلبون أن تعطيم منها فتكون (عن) بمعنى (من) ﴿٦﴾ .

وهؤلاء الشبان هم الذين قال لهم الرسول من قتل قتيلاً فله كذا وكذا ومن أسر أسيراً فله كذا وكذا، ولهذا سأل سعد بن أبي وقاص ما شرط له الرسول من سلب القتيل وهو السيف الذي قيل إن

(١) الأنفال / ٦٥ .

(٢) السير الكبير ٥٩٤/٢ تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد .

(٣) المرجع السابق والمحلي لابن حزم ٣٩٢/٧ وتفسير القرطبي ٣٦٣/٨ .

(٤) تفسير الطبري ٣٨٢/٣ .

(٥) الكشاف ١٤١/٢ .

(٦) تفسير سورتي الأنفال والنجم / ١١ د . علي الجندي .

الآية نزلت به، وهو ما أرجحه من الحوار الذي دار بين رسول الله وسعد - فلما رفض رسول الله إعطاء سعد كانت عبارة سعد التي قالها في نفسه تُشعر أن السيف من حقه (فرجعت وبني ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سلبي).

وهو متسق مع الرواية الثانية ومقالة سعد بن عبادة (لو أعطيت هؤلاء لما أبقيت لأصحابك شيئاً).

وقد نجد في روايات النزول تفسيراً لحرص أهل بدر على الأنفال حتى ساءت فيها أخلاقهم كما يقول عباد بن الصامت. فقد بينت الروايات أنها كانت مرتبطة بحسن البلاء في المعركة وكان الناس يومئذ حريصين على هذه الشهادة في أول وقعة تشفى فيها صدورهم من أعدائهم. وكان الواحد منهم يفتخر قائلاً أنا قتلت فلاناً، وأسرت فلاناً. ويقول الآخر أنا فعلت كذا وكذا ولذا خاطبهم الله تعالى في نفس السورة : ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾^(١).

ولقد غطى حرصهم على تسجيل هذه المفاخر على السماحة فيما بينهم من التعامل الأخوي الذي دأبوا عليه - أليسوا هم من خيرة المهاجرين الأولين الذين باعوا دنياهم بآخرتهم، ومن السابقين الأولين من الأنصار الذين آووا ونصروا وآثروا المهاجرين على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. إن هذه الظاهرة العجيبة ليس لها من تفسير عندي غير ما قلت ولا أصدق حرصهم وتكالبهم على متاع الدنيا الرخيص أبداً.

(١) الأنفال / ١٧.

وحرصاً على رابطة الأخوة الإسلامية بينهم أن تُخدش ، وأن تتعرض للضعف نزع الله الأنفال لله والرسول) فقسمها رسول الله بينهم على سواء حتى تعود إليهم إختوتهم وتآلفهم ويُذهب الله عنهم تلك المفاخر التي تسبب النزاع والشقاق. وأحب إن اذكر هنا أن الأنفال لو كانت هي الغنائم لما قسمها رسول الله بينهم على السوية لأن حكم توزيع الغنائم سيأتي تفصيله في السورة نفسها ولا يستطيع رسول الله نفسه أن يُبدل كلام الله ولا يجوز أن يخطر ببال أحد من الصحابة أن يأخذ الرسول شيئاً ليس له .

ثم قال تعالى : ﴿ فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ﴾ وهذا خطاب إلى الشبان الذين اشترط لهم رسول الله الأنفال فلما حصل النزاع وقسمها الرسول بالتساوي ربما حدث بعض الشيء لبعض النفوس فأمرهم الله بتطيب خاطر إخوانهم حتى تدوم محبتهم وصفاء نفوسهم .

وقد تنبه الزمخشري^(١) إلى هذا المعنى فقال : (والمُراد الذي اقتضته حكمة الله وأمر به رسوله أن يُواسي المُقاتلة المشروط لهم التنفيل الشيوخ الذين كانوا عند الرايات فيقاسموهم على السوية ولا يستأثروا بما شرط لهم، فإنهم إن فعلوا ذلك لم يؤمن أن يقدر ذلك فيما بين المسلمين من التحاب والتصافي ﴿ فاتقوا الله ﴾ في الاختلاف والتخاصم وكونوا متحدين متآخين في الله ﴿ وأصلحوا ذلك بينكم ﴾ وتآسوا وتساعدوا فيما رزقكم الله . وتفضل به عليكم . وعن عطاء : كان الإصلاح بينهم إن دعاهم وقال : اقسما غنائمكم بالعدل ، فقالوا قد أكلنا وأنفقنا ، فقال : ليرد بعضكم على بعض .

(١) الكشاف ١٤١/٢ .

وقد جعل التقوى وإصلاح ذات البين وطاعة الله ورسوله من لوازم الإيمان وموجباته ليعلمهم أن كمال الإيمان موقوف على التوفر عليها ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أي إن كنتم كاملي الإيمان .

الغنائم :

ومفهوم الغنيمة عند الفقهاء : هي كل ما أخذ من العدو عنوةً بطريق القهر والغلبة^(١) وقال الشافعي^(٢) رحمه الله (وما أخذ من مشرك بوجه من الوجوه فهو على وجهين لا يخرج منهما الغنيمة وهي : الموجف عليها بالخيول والركاب ولمن حضر من غني وفقير والفيء وهو : ما لم يُوجف عليه بخيول ولا ركاب) .

والتحقيق أن الغنيمة بالشرع ما أخذه المسلمون من المنقولات في حرب الكفار عنوة . والأرض لا تدخل في الغنائم المأمور بقسمتها بل الغنائم هي الحيوان والمنقول ، لأن الله لم يحل الغنائم لأمة غير هذه الأمة ، وهذه هي التي تُخمس لله وللرسول والباقي للغانمين بينهم)^(٣) .

وتعريف ابن القيم هذا يوافق تعريف فقهاء القانون الدولي للغنيمة ويخالف فقهاء المسلمين .

فهي عند الأولين : كل ما يوجد مع جيش العدو أو في ميدان القتال من مهمات حربية كالخيول والبنادق والأسلحة والمدافع ونحوها^(٤) . وعند الآخرين : تشمل الأسرى والسبي والأرضين والأموال^(٥) .

(١) تفسير الطبري ٥٤٦/١٣ تفسير القرطبي ١/٨ - ٢ والمنار ٣/١٠ وآثار الحرب في الفقه الإسلامي / ٥٥٣ وابن كثير ٣١٠/٢ .

(٢) الأم ٦٤/٤ والمراجع السابقة وانظر للمعة الدمشقية ٤٠١/٢ .

(٣) زاد المعاد ٦٩/٢ لابن القيم .

(٤) قانون الحرب والحياد / ٢٨٩ د . سامي جنيبة .

(٥) الأحكام السلطانية للماوردي / ١٢٦ .

وقال الماوردي : وأما الأموال المنقولة : فهي الغنائم المألوفة (١) .

وهذا ما فعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلم يقسم الأرض بل تركها (٢) فيئاً للمسلمين عامة .

وقد وضع الله تعالى تشريعاً محكماً في توزيع الغنائم التي تنشأ من النصر في القتال : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن الله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير ﴾ (٣) .

يبين الله تعالى تفصيل ما شرعه لهذه الأمة الشريفة من بين سائر الأمم المتقدمة بإجلال الغنائم ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء ﴾ تأكيد لتخميس كل قليل وكثير حتى الخيط والمخيط (٤) ﴿ فإن الله خمسه ﴾ فلا بد من ثبات الخمس فيه لله ولا سبيل إلى الإخلال به والتفريط فيه (٥) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم » . فكان يوزعه على مستحقيه الذين ذكرتهم الآية .

وأما هذا التعقيب من الله على هذا التشريع الحكيم ﴿ إن كنتم

(١) المرجع السابق / ١٣٤ .

(٢) الأموال / ٥٨ / الجزية والإسلام دانييل دينيت / ٥٢ وكشف الغمة عن جميع الأمة ١٦٢/٢ للشعراني .

(٣) الأنفال / ٤١ .

(٤) تفسير ابن كثير ٣١٠/٢ .

(٥) الكشاف ١٥٨/٢ .

آمتتم بالله ﴿ يعني إن كنتم آمتتم بالله فاعلموا أن الخمس من الغنيمة يجب التقرب به ، فاقطعوا عنه أطماعكم واقتنعوا بالأخماس الأربعة وليس المراد بالعلم المجرد ولكنه العلم المضمن بالعمل والطاعة لأمر الله (١) .

فالله سبحانه يعلق الاعتراف لأهل بدر بالإيمان ، على قبولهم لما شرع لهم ، في أمر الغنائم ، لأن الإيمان بالله يقتضي اليقين والإذعان ، فمن شأن المؤمنين أن يثقوا بالله ، ويعتقدوا في قرارة نفوسهم أن ما يأمرهم به الله ، ويشرعه لهم ، إنما هو لمصلحتهم وخيرهم في الدنيا والآخرة ولقد كان في تأييد الله ونصره لهم يوم غزوة بدر التي بدأت وانتهت بتدبير الله وقيادته الدليل على حب الله لهم وأن أوامره كانت لمصلحتهم ، فيجب أن يكونوا أعمق إيماناً وأرسخ يقيناً بالله ووعده وأشد قبولاً لأحكامه ، وأسرع تنفيذاً لأوامره عن رضى وثقة لأن فيها خيرهم وسعادتهم . وعلى هذا تكون آية ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ تشريعاً في حكم الأنفال وقوله ﴿ واعلموا أنما غنمتم . . . ﴾ تشريع للغنيمة وقسمتها . ولا ناسخ ولا منسوخ بين الآيتين كما قال أبو عبيد (٢) قوله تعالى : ﴿ فأن لله خمسه ﴾ ناسخ لقوله عز وجل في أول السورة ﴿ قل الأنفال لله وللرسول . . . ﴾

الفيء :

والفيء في اللغة مأخوذ من فاء يفيء إذا رجع . قال تعالى : ﴿ حتى تفيء إلى أمر الله ﴾ (٣) أي حتى ترجع إلى الحق (٤) . أي حتى ترجع إلى

(١) المرجع السابق ١٥٩/٢ .

(٢) تفسير القرطبي ٩/٨ .

(٣) الحجرات / ٩ .

(٤) تفسير القرطبي ٢/٨ والمصباح المنير مادة (فاء) .

الحق^(١). قال الراغب: الفيء والفيئة الرجوع إلى حالة محمودة ﴿ فإن فاءت ﴾ وقال ﴿ فإن فاءوا ﴾ ومنه فاء الظل، والفيء لا يُقال إلا للراجع منه قال: ﴿ يتفياً ظلاله ﴾ وقيل للغنيمة التي لا يلحق بها مشقة فيء، وقال: ﴿ ما أفاء الله على رسوله - مما أفاء الله عليك ﴾ قال بعضهم: سُمي ذلك بالفيء الذي هو الظل تنبيهاً إلى أن أشراف الدنيا يجري مجرى ظل زائل^(١). ويُراد بالفيء عند الفقهاء^(٢) كل ما وصل من الحربيين من الغنائم المنقولة والثابتة من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب، كمال الهدنة والجزية والخراج.

وقال الفزاري^(٣): (إن مال الفيء وغنيمته شيء واحد عند كثير من أهل العلم قديماً وحديثاً، واختاره أيضاً).

وهذه التفرقة الاصطلاحية مبنية على آيات سورة الحشر التي نزلت فيما شرعه الله للمسلمين في أموال بني النضير ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب، ولكن الله يُسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم، وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾^(٤).

(١) المفردات / ٣٨٩.

(٢) الأحكام / ١١١ للماوردي والمبسوط ١٠ للسرخسي والشرح الكبير ٥٤٠/١٠، وتفسير القرطبي ١/٨ وتفسير ابن كثير ٣١٠/٢ وتفسير الزمخشري ٨٢/٤، والخراج / ٢٣ لأبي يوسف، وغاية الإرشاد إلى أحكام الجهاد / ١٤٨.

(٣) مسألة الغنائم / ٨ للإمام تاج الدين الفزاري المتوفى سنة ٦٩٠ هـ.

(٤) الحشر / ٦ - ٧.

فقوله تعالى: ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيلٍ ولا ركابٍ﴾ أي لم تقطعوا إليه شقة ولا لقيتم به حرباً ومشقة وإنما مشيتم إليه على أرجلكم. قال الفراء: مشوا إليه مشياً ولم يركبوا خيلاً. ولا إبلاً، فافتتحها رسول الله صلحاً وأجلاهم وأخذ أموالهم فسأل المسلمون النبي أن يقسم لهم فنزلت. فجعلها الله للنبي خاصة يضعها كيف يشاء^(١). أي أنها لا تقسم قسمة الغنائم التي قوتل عليها وأخذت عنوة وقهراً، وقد بين لرسوله ما يصنع بما أفاء الله عليه وأمره أن يضعه حيث يضع الخمس من الغنائم مقسوماً على الأقسام الخمسة^(٢).

فقسمها النبي بين المهاجرين دون الأنصار كما قال الواقدي: ولم يُعط الأنصار منها شيئاً إلا ثلاثة نفر محتاجين، منهم أبو دجانة وسهل بن حنيف، والحارث بن الصمة وقال لهم: إن شئتم قسمتتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم في هذه الغنيمة وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شيئاً من الغنيمة. فقالت الأنصار: بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نُشاركهم فيها^(٣).

وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله ولم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب فكانت لرسول الله خالصة ينفق على أهله منها نفقة سنته، وما بقي جعله في الكراع والسلاح في سبيل الله عز وجل^(٤).

(١) تفسير القرطبي ١٠/١٨ - ١٣.

(٢) تفسير الزمخشري ٨٢/٤.

(٣) الكشاف ٨٤/٤.

(٤) تفسير ابن كثير ٣٢٥/٤.

وقد اختلف الفقهاء حول قسمة الفيء اختلافاً واضحاً كما اختلفوا في قسمة خمس الغنيمة والأمر عند مالك فيهما إلى الإمام، فإن رأى حبسهما لنوازل تنزل بالمسلمين فعل وإن رأى قسمتها أو قسمة أحدهما قسمه كله بين الناس، وسوى فيه بين عربهم ومولاهم. ويبدأ بالفقراء من رجال ونساء حتى يغنوا، ويعطي ذوي القربى من رسول الله من الفيء سهمهم على ما يراه الإمام، وليس له حد معلوم، واختلف في إعطاء الغنى منهم، فأكثر الناس على إعطائه لأنه حق لهم. وقال مالك: لا يُعطي منه غير فقرائهم، لأنه جعل لهم عوضاً عن الصدقة.

ومذهب الشافعي رحمه الله: أن سبيل خمس الفيء سبيل خمس الغنيمة، وأن أربعة أخماسه كان للنبي عليه الصلاة والسلام، وهي بعده لمصالح المسلمين. أو للمعدين أنفسهم للقتال بعده خاصة. والاختلاف في ذلك كثير مؤذن جميعه بأن حكم الفيء والغنيمة راجع إلى رأي الإمام يفعل ما يراه مصلحة ويعتقده قربة^(١) وهذا ما أرجحه.

أما قوله تعالى: ﴿كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾ هنا يبين الله تعالى حكمة تخصيص الفيء للمصارف المذكورة في آية الغنائم دون أن يكون للمحاربين والأغنياء حق فيه. ﴿كي لا يكون دولة...﴾ أي جعلنا هذه المصارف لمال الفيء كي لا يبقى مأكلة يتغلب عليها الأغنياء ويتصرفون فيها ولا يصرفون منها شيئاً للفقراء^(٢) كأن الله تعالى يقول: فعلنا ذلك في الفيء كي لا يستأثر به الرؤساء والأغنياء والأقوياء يقسمونه بينهم دون الفقراء والضعفاء، كي لا يكون دولة جاهلية بينهم حيث كان

(١) مسألة الغنائم ٣/ للإمام تاج الدين الفزاري.

(٢) المرجع السابق ٣/.

الرؤساء يستأثرون بالغنيمة لأنهم أهل الرياسة والدولة والغلبة وكانوا يقولون من عز بز. ومنه قول الحسن اتخذوا عباد الله خولاً ومال الله دولاً يريد من غلب منهم أخذه واستأثر به (١).

فليس من الضرورة توزيع شيء منه على الأغنياء الذين لم يتكلفوا شيئاً في حيازته ليزيدوا ثروتهم بشروة أخرى بدون جهد وتكون الثروة محصورة التداول في أيديهم، في حين أن هناك فقراء هاجروا في سبيل الله وفقدوا أموالهم وفقراء آوا المهاجرين وآثروهم على أنفسهم مع ما بهم من خصاصة ورقة حال - وهم الأنصار - وفقراء آخرون ممن انضموا إلى المسلمين واتبعوهم بإحسان (٢).

أما حكمة تخصيص أربعة أحماس الغنيمة للمحاربين فيرجع إلى ظروف البيئة النبوية حيث كان المحاربون يتجهزون ويتزودون ويدبرون وسائل ركائبهم وركائب غيرهم وسلاحهم على نفقتهم الخاصة. فأعطاهم الله هذه الغنيمة منحة لتقويتهم على جهاد عدوهم. وهكذا، يتضح لنا الفروق الدقيقة بين الأنفال والغنائم والفية، وإنها ليست شيئاً واحداً كما ذهب بعض الفقهاء، وليست الغنيمة هي الأنفال وليست الأنفال هي الفية (٣).

(١) تفسير القرطبي ١٦/١٨ والكشاف ٨٢/٤.

(٢) الدستور القرآني ١/٢٤٠ دروزة.

(٣) تفسير القرطبي ٧/٣٦٢ قال الغنائم هي الأنفال وكذلك د. مصطفى زيد تفسير سورة الأنفال/ ١٤ وقال بعضهم إن الفية والغنيمة شيء واحد (الفزاري وأبو عبيد) انظر مسألة الغنائم، وكتاب الأموال) وقال بعضهم الأنفال هي الفية (آثار الحرب في الفقه الإسلامي ٥٤٩/ وقاله عطاء ورياح، انظر تفسير ابن كثير ٢/٢٨٢).

وعليه فلا نسخ ولا منسوخ بين أحكام هذه الآيات لأنها لا تعارض بينها أصلاً. لأن كل مسألة من هذه المسائل الثلاث وردت فيها آية واحدة تبين حكمها فمن أين يتأتى التعارض والاختلاف؟ فقد قال قتادة إن قوله تعالى: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء﴾ ناسخ لآية الفية ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى﴾ وهذا الذي قاله بعيد لأن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر وتلك ﴿وما أفاء...﴾ نزلت في بني النضير ولا خلاف بين علماء السير والمغازي قاطبة أن بني النضير بعد بدر.. وآية الأنفال نزلت في بيان الغنيمة وآية الحشر في بيان الفية. فكيف تنسخ آية في الغنيمة آية في الفية؟

وقال الماوردي: ودعوى النسخ باطلة أيضاً على رأي من جعل أمر الفية والغنائم إلى رأي الإمام حيث لا منافاة بين آية الأنفال والحشر وبين التخميس إذا رآه الإمام^(١). وقالوا إن قوله تعالى: ﴿واعلموا أنما غنمتم﴾ ناسخ لقوله تعالى: ﴿قل الأنفال لله والرسول﴾. وهو قول باطل للأسباب التي ذكرتها.

الجزية:

قال القرطبي^(٢): الجزية وزنها فعلة، من جرى يجزي إذا كافأ عمًا أسدى إليه فكأنهم أعطوها جزاء ما منحوا من الأمن.

وقال القاضي أبو يعلى^(٣): اسمها مشتق من الجزاء إما جزاء على كفرهم، وإما جزاء على أماننا لهم لأخذها منهم رفقاً.

(١) الأحكام السلطانية / ١٣٧.

(٢) تفسير القرطبي ٨/ ١١٤ والمفردات للراغب / ٩٣.

(٣) الأحكام السلطانية / ١٣٧.

أما ابن قدامة^(٤) فقال: إنها مشتقة من جزاه بمعنى قضاه، لقوله تعالى: ﴿لا تجزي نفس عن نفس شيئاً﴾ فتكون الجزية مثل الفدية .

وليس المسلمون هم أول من اخترع الجزية بل كانت معروفة عند مختلف الأمم السابقة كبني إسرائيل واليونان والرومان والبيزنطيين والفرس وكان أول من سنَّ الجزية من الفرس كسرى أنوشروان وهو الذي رتب أصولها وجعلها طبقات . إذن فالحالة العامة بين الأمم كانت تألف نظام الجزية، والإسلام أقر ذلك فقط^(١) .

وآية الجزية نزلت في ظروف غزوة تبوك في السنة التاسعة من الهجرة، بعد أن أسلمت جزيرة العرب ولم يبقَ بها أحد من عبّاد الأوثان، فأخذ رسول الله بعد نزولها الجزية ممن بقى على كفره من النصارى والمجوس ولهذا لم يأخذها من يهود المدينة ولا من يهود خيبر لأنه صالحهم^(٢) . قبل نزول هذه الآية . ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يُعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾^(٣) .

وتشريع الجزية يدل على أبلغ معاني الانصاف والرحمة التي جاء بها الإسلام، فهي ضريبة كالخراج على الأشخاص لا على الأرض نظير

(١) المغني ٥٦٧/١٠ .

(٢) الجزية والإسلام، دانييل دنيت / ١٥، ١٧، ٩٩، ١١٩، ١٢٩ وتاريخ الإسلام السياسي ٦٠٥/١، د. حسن إبراهيم حسن والحرب في الإسلام / ١٨٩ مجيد خدوري، وأحكام الذميين لابن قيم الجوزية من تقديم د. محمد حميد الله) ٩١ والحرب في الشريعة الإسلامية / ١٢٦ د. نجيب ارمنازي .

(٣) المراجع السابقة وانظر زاد المعاد ٧/٢ .

(٤) التوبة / ٢٩ .

الحماية والمنعة والاعفاء من ضريبة الدفاع والجنديّة، وإنما سلك الإسلام هذا السبيل ولجأ إليه مع غير المسلمين من باب التخفيف عليهم والرحمة بهم وعدم الإحراج لهم حتى لا يلزمهم أن يقاتلوا في صفوف المسلمين، فيتهم الإسلام بأنه يريد لهم الموت والاستئصال والفناء والتعريض لمخاطر الحرب والقتال، فهي في الحقيقة امتياز في صورة ضريبة، ومقتضى هذا أن غير المسلمين من أبناء البلاد التي تدخلت تحت حكم الإسلام إذا دخلوا في الجند أو تكلفوا أمر الدفاع أسقط الإمام عنهم الجزية.

وقد جرى العمل على هذا فعلاً في كثير من البلاد التي فتحها خلفاء الإسلام، وسجل ذلك قواد الجيوش الإسلامية في كتب ومعاهدات لا زالت تنطق بها صفحات التاريخ^(١). وهذا قول الحنفية (وجبت بدلاً من النصر والجهاد). واختاره القاضي أبو زيد وزعم أنه سرّ الله في المسألة^(٢).

وقال الخطيب الشربيني الشافعي: ولا يجب الجهاد على الكافر ولو ذمياً لأنه يبذل الجزية لنذب عنه لا ليذب عنا).

ومن الشواهد التاريخية المعروفة ما كتبه سويد بن مقرن إلى أهل دهستان وسائر أهل جرجان في زمن عمر (إنّ لكم الذمة وعلينا المنعة)^(٣). وما كتب خالد بن الوليد رضي الله عنه لصلوبابن نسطوريا

(١) الدعوة إلى الإسلام / ٧٩ أنولد والحضارة الإسلامية ١/ ٦٠ آدم متر والرسالة الخالدة ١٢ وآثار الحرب في الفقه الإسلامي / ٦٩٢.

(٢) تفسير القرطبي ٨/ ١١٤.

(٣) شرح مجمع البحرين ٢/ ١٨ والمبسوط ١٠/ ٧٨.

وقومه (إن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا حتى نمنعكم)^(١). وقال ابن رشد المالكي (إنما تؤخذ الجزية منهم سنة بسنة جزاء على تأمينهم وإقرارهم على دينهم يتصرفون في جوار المسلمين وذمتهم آمنين)^(٢).

وهناك أدلة واقعية على أن الجزية بديل الحماية^(٣) مثل ما كان يفعل قادة المسلمين من ردهم الجزية على أصحابها، إذا تعذر عليهم القيام بواجبهم نحو الذميين كما حصل مثلاً من أبي عبيدة بن الجراح، حينما حشد الروم جمعهم على حدود البلاد الإسلامية الشمالية فكتب أبو عبيدة إلى كل وال ممن خلفه في المدن التي صالح أهلها أن يردوا عليهم ما جبي من الجزية والخراج، وكتب إليهم أن يقولوا لهم: (إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع، وإنكم اشترطتم علينا أن نمنعكم، وإننا لا نقدر على ذلك، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط، وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم) فلما قالوا ذلك لهم، وردوا عليهم أموالهم التي جبوها منهم قالوا: (ردكم الله علينا ونصركم عليهم) (أي على الروم). فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئاً وأخذوا كل شيء بقي لنا)^(٤).

ويقول (ترتون)^(٥) غير أننا نذكر أنه مفروض على الذمي من الناحية النظرية مراعاة جميع شروط العهد إذا أراد الحماية، وقد ذهب الشافعي

(١) تاريخ الطبري ١٦/٤ .

(٢) أحكام الذميين لابن قيم الجوزية من تقديم الدكتور صبحي صالح ٨/ .

(٣) المدخل للفقهاء الإسلاميين - محمد سلام مذكور هامش ٥٠ .

(٤) الخراج / ١٢٩ والجزية والإسلام. دانييل دينيت / ١٠٢ والمهذب ٢/ ٢٥٥ وفتوح البلدان ١٣٤ وأثار الحرب في الفقه الإسلامي ٢٩٣ .

(٥) أهل الذمة في الإسلام / ١١ .

ومالك وأحمد بن حنبل للقول أن امتناع الذمي عن دفع الجزية يحل المسؤولين من حمايته. . ومن هذا يتضح أن الجزية لم تكن حقاً تُعطيه القوة للغالب على المغلوب، وإنما كانت منفعة جزاء منفعة، وأجراً جزاء عمل بل إن مغارم الجزية أكثر من مغانمها).

ويرى العلماء أن الجزية تسقط عن الذمي بالاشتراك في صفوف المجاهدين^(١). وذلك بدليل ما جاء في كتاب سويد بن مقرن السالف الذكر فقد ورد نص في نفس الكتاب يقول:

(ومن استعنا به منكم فله جزاؤه في معونته عوضاً عن جزائه، ولهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وشرائعهم ولا يغير شيء من ذلك)^(٢). وفي معاهدة سراقبة بن عمرو أهل أرمينيا سنة ٢٢ هـ اشترط على أهلها الاشتراك في الجهاد نظير إعفائهم من الجزية فدخل معهم أن ينفروا لكل غارة وينفذوا لكل أمر ناب أو لم ينب. . رآه الوالي صلاحاً على أن توضع الجزاء عمن أجاب إلى ذلك)^(٣). .

وقد صالح حبيب بن مسلمة الفهري والى أبي عبيدة أهل انطاكية على أن يكونوا أعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح في جبل اللكام، وأن لا يؤخذوا بالجزية^(٤). .

وأسقطت الجزية عن الجراجمة على المشاركة في الغزومع

(١) المدخل في الفقه الإسلامي / ٥٠.

(٢) تاريخ الطبري ٢٥٤/٥ وانظر تفسير المنار ٢٩٧/٧.

(٣) تاريخ الطبري ٢٣٦/٣.

(٤) فتوح البلدان / ١٦٦.

المسلمين «ولا يؤخذ منهم ولا من أولادهم ونسائهم جزية وعلى أن يغزوا مع المسلمين»^(١).

فالجزية على هذا ليست لوناً من ألوان العقاب على الكفر أو عدم الإيمان بالإسلام كما زعم البعض وإنها كرامة لأهل الكتاب. فلا يستحقها سواهم.

ولعل كل ما قدمت يبطل ما يهذي به أعداء الإسلام بأن الجزية من ألوان العقاب على الكفر لإذلال غير المسلمين^(٢) . .

وتسقط الجزية بأمور كثيرة غير ما قدمت من الاشتراك في الجهاد فهي تسقط بالإسلام وذلك باتفاق العلماء لقوله ﷺ فيما رواه أحمد وأبو داود والبيهقي (ليس في مسلم جزية) وفي رواية الطبراني (من أسلم فلا جزية عليه)^(٣). قال سفيان: إذا أسلم الذمي بعد ما وجبت الجزية عليه بطلت عنه. وعليه يدل قوله تعالى: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

لأن الإسلام يزول بهذا المعنى. ولا خلاف في أنهم إذا أسلموا لا يؤدون الجزية عن يد وهم صاغرون^(٤). وقد رفع عمر بن عبد العزيز الخليفة العادل الجزية عن من أسلم من أهل الذمة بخلاف ما فعله بعض الأمويين كالحجاج والأشرس وقال قولته المشهورة: (إنَّ الله بعث محمداً ﷺ بالحق هادياً ولم يبعثه جايياً)^(٥) . .

(١) المرجع السابق / ١٦٨ .

(٢) الحرب والإسلام / ١٩٦ مجيد خدوري .

(٣) سنن أبي داود ٢٢١/٣ ومسند أحمد ٣٠٨/٢ ونيل الأوطار ٦١/٨ .

(٤) تفسير القرطبي ١١٤/٨ .

(٥) الكامل لابن الأثير ٣٧/٥ طبعة ليدن والجزية والإسلام دينيت / ١٧، ٣٤، وتفسير الجصاص

. ١٠٢/٣

وتسقط الجزية لأمر كثيرة منها العمى والزمانة والمرضية والعجز الدائم والشيخوخة والفقير^(١) . والمحتاج من أهل الذمة سواء أكان مريضاً أو زماً أو شيخاً هرمًا فنفقته من بيت مال المسلمين .

روى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى ذمياً يسأل الناس وكان شيخاً كبيراً يهودياً ضريراً البصر فأخذه إلى داره وأسعفه ببعض ما لديه من مال ثم أمر خازن المال أن يُجري عليه رزقاً مستمراً ، وقال له (اتبع مثل ذلك في هذا وضربائه فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم ، وتلا هذه الآية : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾^(٢) . وقال هذا مسكين من أهل الكتاب ووضع عمر عن الرجل جزيته وعن ضربائه^(٣) . وبقي له عقد الذمة ولذريته لأبديته .

وجاء في كتاب خالد بن الوليد لأهل الحيرة : وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل وأصابته آفة من الآفات ، أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ، ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام^(٤) .

والمساواة التامة بين المسلم والذمي الذي يدفع الجزية من حيث واجب الدولة في الدفاع عنه وافتداء رقبته سواء بسواء تبرز بشكل واضح فيما روى عن أمير التتر قطلوشاه كان قد أغار على دمشق في أوائل القرن الثامن الهجري وأسر من المسلمين والذميين من النصاري واليهود عدداً

(١) المبسوط ٧٩/١٠ .

(٢) التوبة / ٦٠ .

(٣) الخراج / ١٢٦ لأبي يوسف .

(٤) الخراج / ٤٤ لأبي يوسف .

فذهب إليه الإمام ابن تيمية ومعه جمع من العلماء وطلبوا فك الأسرى فسمح لهم بالمسلمين ولم يطلق الذميين فقال له شيخ الإسلام : (لا بد من افتكاك جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا ولا ندع لديك أسيراً لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة فإن لهم ما لنا وعليهم ما علينا) فأطلقهم الأمير التتري جميعاً (١) .

ولنتأمل عدالة الإسلام فيمن تُؤخذ منه الجزية . الذي دل عليه القرآن أن الجزية تُؤخذ من الرجال المقاتلين ، لأنه تعالى قال : ﴿ قاتلوا الذين . . ﴾ إلى قوله : ﴿ حتى يعطوا الجزية ﴾ فيقتضي ذلك وجوبها على من يقاتل ، ويدل على أنه ليس على العبد وإن كان مقاتلاً لأنه لا مال له وانه تعالى قال : ﴿ حتى يعطوا ﴾ ولا يقال لمن لا يملك حتى يعطي . وهذا إجماع من العلماء على أن الجزية إنما توضع على جماجم الرجال الأحرار البالغين ، وهم الذين يُقاتلون دون النساء والذرية والعبيد والمجانين المغلوبين على عقولهم والشيوخ والرهبان (٢) .

وقد قرر الفقهاء أن عقد الذمة المؤبد يشترط فيه شرطان :

أولهما : أن يلتزم الذمي دفع التكاليف المالية متى كان قادراً مساهمة منه في بناء الدولة وميزانها المالي . وثانيهما : أن نتركهم وما يدينون وأن يلتزموا بأحكام الإسلام في المعاملات المالية والعلاقات الاجتماعية ولهم حريتهم الشخصية في أموالهم ومعتقداتهم وفي قوانين الأسرة من زواج ونسب وطلاق . إذ يتبعون فيها ما يأمرهم به دينهم ،

(١) الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام / ٣٥٨ .

(٢) الأم ٩٨/٤ - ١٠٠ وتفسير القرطبي ١١٢/٨ ، ١١٣ .

ولهم أن يشربوا الخمر ويأكلوا الخنزير . ولو أراق مسلم لذمي خمراً أو قتل خنزيراً ضمن قيمته بعكس ما لو فعل المسلم ذلك بمسلم آخر فلا يجب عليه تعويضه (١) .

والذمي الذي يقيم بديار المسلمين إقامة دائمة وبلغة العصر في القانون الدولي يتجنس بجنسية الدولة التي استقر بها ، يتمتع بحقوق لا يتمتع بها مثيله في العصر الحالي فالمسلم المقيم في فرنسا أو انجلترا أو روسيا ويتجنس بجنسيتها يخضع في الأحوال الشخصية للقانون المحلي هناك فإن تزوج بأكثر من واحدة فزواجه باطل وقد يحاكم على ذلك كمجرم وإن طلبت زوجته في قضية النفقة من زوجها لا تسمعها المحاكم (٢) . ومن مقتضيات عدالة الإسلام ورحمته الواسعة أن الله لم يحدد في كتابه الكريم مقدراً للجزية المأخوذة من أهل الكتاب بل ترك أمر تقديرها إلى اجتهاد إمام المسلمين العادل بحسب ما يرى من حالات اليسار والفقر .

فلما هزم أبو عبيدة جموع الروم ومنح الله المسلمين أكتافهم كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه (أقر ما أفاء الله عليك في أيدي أهله واجعل الجزية عليهم بقدر طاقتهم) (٣) .

وقال القرطبي (٤) : اختلف العلماء في مقدار الجزية المأخوذة منهم ، فقال عطاء بن أبي رباح لا توقيت فيها وإنما هو على ما صولحوا

(١) الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام / ٣٥٧ .

(٢) المرجع السابق / ٣٦٠ ونجيب أرمنازي / ١٣٧ .

(٣) الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام / ٣٦٠ ونجيب أرمنازي / ١٣٧ .

(٤) تفسير القرطبي ١١١/٨ ، ١١٢ .

عليه . وكذلك قال يحيى بن آدم وأبو عبيد والطبري قال الثوري : جاء عن عمر بن الخطاب ضرائب مختلفة . فللوالي أن يأخذ بأيها شاء إذا كانوا أهل ذمة أما أهل الصلح فما صولحوا عليه لا غير .

فقد روى عن معاذ : أن رسول الله بعثه إلى اليمن ، وأمره أن يأخذ من كل حالم ديناراً في الجزية وقال الشافعي : وإن صولحوا على أكثر من دينار جاز ، وإن زادوا وطابت بذلك أنفسهم قبل منهم .

وهذا ما ذهب إليه أئمة المذاهب في تقدير الجزية وأقلها دينار أو إثني عشر درهماً^(١) . وقد قيل إن الضعيف يُخفف عنه بقدر ما يراه الإمام . قال أبو عمر : يؤخذ من فقرائهم بقدر ما يحتملون ولو درهماً . وإلى هذا رجح مالك (والدينار يعادل ٦٥ قرشاً مصرياً) وهذا ما نقلته التواريخ الثابتة . فهذا المقدار الضئيل أشبه ما يكون بضريبة الدفاع أو ضريبة كسب العمل يدفعها العامل القادر دون زوجته وأولاده الصغار . فأين هذا المقدار من اشتراط الدولة الحديثة دفع غرامات حربية وتعويضات باهظة على الطرف المغلوب عند عقد الصلح بشكل لا مبرر له فمثلاً فرضت معاهدة (فرنكفورت) على فرنسا غرامة مقدارها خمسة مليارات من الفرنكات الذهبية^(٢) . وأين مبدأ الرضائية في عقد الصلح بنوعيهما المتميز في الإسلام مما عرفه العالم بعد الحرب العالمية الثانية من معاهدات الصلح الذي أطلق عليه تسمية (الاستسلام بلا قيد ولا شرط) ومن شأنه أن تقوم الدولة المغلوبة بإذعان دون قيد ولا شرط لبنود

(١) الأم ١٠١/٤ والمبسوط ٧٨/١٢ والشرح الكبير ١٠٦/١٠ وتفسير القرطبي ١١٢/٨ .
(٢) آثار الحرب في الفقه الإسلامي ٧٠٣/ والقانون الدولي العام ١٤٦/ ، ٤٢٣ للدكتور سامي

الصلح التي تفرضها الدولة المنتصرة (١) . .

ولو قارنا ما يدفعه المسلم بما يدفعه الذمي لشالت الكفة . فالمسلم ملزم بدفع زكاة المال وهي مقدار ٢,٥ ٪ مما يملك من نقود وعروض تجارة ومواشي وغير ذلك من الأموال السائلة والمنقولة وملزم أن يدفع مقدار ١٠٪ من صافي غلات الأموال الثابتة من دار وأرض وغيرها . وعلى المسلم أيضاً تكاليف مالية أخرى يلزمه دينه بها كالصدقات المندوبة والنذور التي ينذرها والأوقاف التي يحبسها وكفارات الأخطاء التي يرتكبها والمشاركة في إعداد وسائل الجهاد والخدمة العسكرية والذمي بطبيعة الحال لا يكلف هذه الالتزامات المالية ، فكان لا بد لكي يكون له مالنا وعليه ما علينا أن تُفرض عليه ضريبة هي الجزية ليساهم في بناء التكاليف العامة وفي التكامل الاجتماعي لأهل الذمة (٢) . .

ويقول (ترتون) (٣) : لم تكن طريقة جباية الضرائب قاسية كما تبدو ، وواضح أن الرعايا كان يسمح لهم بمجال واسع في دفعها ، إذ يرد في أوراق البردي عدة شكايات عن التأخر في الدفع وعن صور أخرى من التراخي في دفعها . . . وكانت تأتي أوقات يعفون فيها من تلك الالتزامات ، فقد جاء أحد الأقباط إلى عمرو وقال له (إذا أخذتك إلى مكان أمكن للسفن أن تصل منه إلى مكة فهل تعفيني وأسرتي من الضريبة ، فوافقه عمرو) . . ولما عُزيت برقه لأول مرة لم يدخلها أي

(١) آثار الحرب / ٧٠٤ والحقوق الدولية / ٥٩٣ فؤاد شباط .

(٢) الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام ٣٥٧ .

(٣) أهل الذمة في الإسلام / ٢٦٥ .

جامع ضرائب ، بل جرت عادة أهلها أن يُرسلوا الضرائب المستحقة متى حان وقتها (١) . . .

وكل هذا يجعل المرء يتساءل ما هدف الإسلام من الجزية ؟

قال السرخسي (٢) : المقصود من الجزية ليس المال ، بل الدعاء إلى الدين بأحسن الوجوه لأنه بعقد الذمة يترك القتال أصلاً ، ولا يُقاتل من لا يقاتل ، ثم يسكن بين المسلمين فيرى محاسن الدين ويعظه واعظ فربما يسلم) .

وقد ذهب السير توماس أرنولد إلى ما ذهب إليه السرخسي إذ عقد فصلاً بعنوان الغرض من دفع الجزية نقتطف منه بعض العبارات (ولم يكن الغرض من دفع الجزية على المسيحيين كما يذهب الباحثون لونا من ألوان العقاب لامتناعهم عن الإسلام وإنما كان يؤديها الذميون مقابل الحماية التي كفلتها لهم سيوف المسلمين . ومن الواضح أن أي جماعة مسيحية كانت تعفى من هذه الجزية إذا ما دخلت في خدمة الجيش الإسلامي على نحو ما حصل مع قبيلة الجراجمة وما عومل به أهل ميفاريا من مسيحيي البانيا وكذلك أهل هيدرا وأهالي رومانيا الجنوبية إلى أن قال : إن الفلاحين المصريين أعفوا من أداء الخدمة العسكرية رغم إسلامهم مقابل الجزية التي فرضوها على أنفسهم كالمسيحيين . . . «ثم ينكر أن الغرض منها جمع المال» (٣) ومن هذا يتضح لنا أن الإسلام لم يهدف من قتال أهل الكتاب فرض الجزية لتحقيق مطامع اقتصادية كما

(١) فتوح مصر / ١٦٦ ، ١٦٧ لابن عبد الحكم .

(٢) أحكام الذميين / ١٧ .

(٣) الدعوة إلى الإسلام ٧٩ ، ٨١ .

ادعى كثير من أعداء الإسلام من المستشرقين ومن لف لفهم من المستغربين كأمثال (فلهازون وكاتياني وبكر) (١) فهم يدعون أن الجزية مبالغ إجمالية تُفرض على أجزاء الأباطورية وليست على الفرد بعينه ، دون أن يهتم العرب بطريقة جمعها ، وإنما همهم فقط الحصول على الإتاوات أي الضرائب الجماعية ، وليت المسألة اقتضت على هؤلاء فالدكتور مجيد خدوري العراقي يدلي بدلوه هو الآخر ويتساءل متشككاً فيقول : هل فرضت على الذميين من قبل عمر بن الخطاب غير الجزية والخراج (٢) ، فماذا يقصد خدوري بسؤاله ؟ ألم يعلم ولو بطول العيش بين المسلمين أن آية الجزية فرضت بنص القرآن وليست من اجتهاد الخليفة عمر بن الخطاب . ولو كانت هناك ضريبة أخرى لنقلها إلينا الفقهاء الذين لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة إلا ذكروها بشأن أهل الذمة والأرض المفتوحة وأفعال الخلفاء وعلى الأقل لم يتأخر هو نفسه عن ذكر ذلك وإبرازه بوضوح ليشفى غيظ قلبه من الإسلام والمسلمين .

أما فيليب حتى (٣) : فقد أعطى هذه المسألة طابعاً فلسفياً يوهم القارئ بحقيقة ما يزعم فقال : (ومال بعض الباحثين في الحركة الإسلامية إلى النظرة الدينية التي كررتها المصادر العربية ففسروا التوسع الإسلامي كنتيجة لعامل الدين ولم يعلقوا كبير أهمية على العوامل الاقتصادية . وتمسك بعض كتاب النصرانية بفكرة أخرى خاطئة وهي أن المسلم العربي اكتسح البلدان رافعاً القرآن في يد والسيوف في الأخرى

(١) الجزية والإسلام، دانييل دينيت ٣٤، ١٣، ٢٣، ٣٨، ٦١، ٧٦، ١٤٤، ١٤٩، ١٥٢، ١٨٥ .

(٢) الحرب والسلام في الشريعة الإسلامية .

(٣) تاريخ العرب ١٩٥ .

ولا صحة لهذا الزعم فإن العرب في حروبهم خارج الجزيرة كانوا يعرضون على أهل الكتاب من يهود ونصارى أمراً ثالثاً غير القرآن والسيف وهو أقرب إلى مطامع المحاربين وأصلح من كلا الأمرين - الجزية - ثم قضت الأوضاع أن يعرض هذا الاختيار على المجوس أتباع زرادشت وعلى الوثنيين من البربر والترك فجرى عليهم وهم من غير أهل الكتاب وعوملوا معاملة أهل الكتاب فالضرورة قامت مقام النظرية القرآنية .

ولا يكتفي (فيليب حتى) بالغمز في مسألة الجزية ، بل غمز المسلمين والعقيدة الإسلامية نفسها إذ ادعى أن المسلمين المجاهدين غيروا النظرية القرآنية وأخذوا الجزية من المجوس والوثنيين طمعاً في المال يُحصلونه من الجزية .

ويقول بعد ذلك (وإذا كانت الأمم المغلوبة قبلت الإسلام بعدئذ فلأنها أرادت الخلاص من الجزية (١) .

وهذا ما رده «سيديو» (٢) عن الغنائم «وكان من نتائج نظام الغنائم تغذية الروح الحربية إذ كانت أربعة أخماس الغنائم تُعطى للجيش) . وهو ما زعمه بروكلمان (٣) الذي يقول في حق رسول الله (وكانت الغنائم العظيمة قد أثارت مطامعه إثارة كافية) .

وإذا كانت الغنائم قد أحلت في الإسلام ونزل في شأنها تشريع تفصيلي على ما بينا فلم يكن مقصد الجهاد الحصول على الغنائم ، ولم

(١) تاريخ العرب ١٩٧ .

(٢) تاريخ العرب وتاريخ دولتهم ١١٧ .

(٣) History the Islamic Peoples P.23

تكن هي الحافز القوي على الجهاد فقد قال الفقهاء : «المقصود الأعظم من الجهاد إعلاء كلمة الله تعالى ، والذب عن الملة والغنائم تابعة» (٦) .

أي إن الغنائم نتيجة فقط تترتب على الحرب ، ويتملكها المسلمون بالإحراز ، ولم يكن المسلمون يوماً يهدفون إلى غرض دنيوي حقير ، أو يشنون حرباً اقتصادية للسيطرة على مناطق الثروة والنفوذ والأسواق الخارجية في العالم كما حصل في الحرب العالمية الأولى ، أو لتحقيق الماطم والأهواء المادية أو لتوسع في الملك أو لإشباع رغبة التفضيل العنصري كما هو هدف أغلب الحروب الحديثة (١) . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعندَ اللَّهِ مَغَانِمَ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنْ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (٢) .

وفي الآية الرد الحاسم على هذه المزاعم الباطلة وقد سبق أن بينت أهداف الجهاد في الفصل الثاني فلا حاجة إلى إعادة القول بأن هذه الأهداف السماوية لم يكن للدنيا فيها نصيب .

وقد ترددت أهداف الجهاد على ألسنة قواد الجيوش الإسلامية الزاحفة لتحرير الإنسان في كل مكان من العبودية لغير الله ومن جور الأحكام إلى عدل السماء . فهذا ربعي بن عامر رسول سعد بن أبي

(١) فتح القدير ٤/ ٢٨٦ والأحكام السلطانية للماوردي / ٤١ .

(٢) آثار الحرب في الفقه الإسلامي / ٥٥٠ .

(٣) النساء / ٩٤ .

وقاص إلى كسرى في القادسية يقول : «إنا لم نأتكم لطلب الدنيا ووالله لإسلامكم أحب إلينا من غنائمكم» (٣) .

وهذا مثال آخر لجندي من جنود المسلمين الأعراب الذين يتهمهم المستشرقون بالطمع في الغنائم والرغبة في النهب والسلب . روى النسائي أن إعرابياً جاء فآمن بالنبي عليه الصلاة والسلام ثم قال أهاجر معك فأوصى به النبي أصحابه فكانت غزاة غنم فيها النبي فقسم عليه وقسم له ، فقال الرجل : ما هذا ؟ فقال : قسمة لك ؟ قال : ما على هذا اتبعتك ولكن اتبعتك على أن أرمى ها هنا (وأشار بيده إلى حلقة) بسهم فأموت فأدخل الجنة ، فقال : إن تصدق الله يصدقك : فلبثوا ثم نهضوا في قتال العدو ، فأتى به إلى النبي عليه الصلاة والسلام محمولاً قد أصابه سهم حيث أشار ، فقال النبي ، أهو هو ؟ قالوا : نعم قال : صدق الله فصدقه ثم كفن في جبة النبي ، ثم قدمه فصلى عليه فكان مما قاله مما ظهر من صلاته دعائه (اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك فقتل شهيداً ، وأنا شهيد على ذلك) .

ومن أمثال هذا الجندي المجاهد في سبيل الله ، والذي باع دنياه بأخراه ليشتري لنفسه مكاناً عالياً في جنة الخلد ، كان يتألف الجيش الإسلامي وهذا ما أدركه كثير من المستشرقين المنصفين أمثال جماعة كتاب (تاريخ العالم) (غودفروا ودموبين وبلاتونوف) فقد قالوا عن جنود الفتح ما نصه : (كانوا حفاظاً للقرآن فاهمين لمعانيه فيتألف منهم وسط الجهاد حلقات عبادة وعصابات زهد وتقوى خلصت للإسلام خلوصاً لا حد له ، وصرفت معظم حياتها لاستحقاق الثواب الأخروي وكانوا

(١) طبقات ابن سعد ٥/٢٨٣ .

يُجاهدون في طلب سعادة العقبى) (١) وهو الرأي الذي دعمه المستشرق الأمريكي Lothrop Straddard وقد سبق أن ذكرت رأيه بالتفصيل في الفصل الثالث .

والمتمأمل في حال المجاهدين الاقتصادية يجد أنها كانت سيئة للغاية شهد بذلك خير الشاهدين مولاهم عز وجل ﴿ للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم (٢) .

وقد أجمعت كتب التفسير أن هذه الآية نزلت في المجاهدين الذين حسبهم الجهاد عن الاشتغال في معاشهم ، ولم يكسبوا من الجهاد مغنماً مادياً يعوض عليهم ما أنفقوه من أموال في سبيل الله وما تعرضت له مزارعهم ومتاجرهم من التلف والخسارة فصاروا كما وصفهم الله تعالى : ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم ﴾ .

قال قتادة : أمر تعالى بإعطاء هؤلاء القوم الذين يقاتلون مع رسول الله غير مرضى ولا عميان (تعرفهم بسيماهم) قال ابن زيد من صفة الوجه وراثته الحال (٣) .

فلو كانوا يجاهدون للدنيا ومغانمها لأثروا ولأخذوا من أعدائهم كل ما تصل إليه أيديهم ولكانت حالهم غير تلك التي وصفها الله تعالى . ولو أنهم قعدوا عن الخروج إلى الجهاد وأقاموا في مزارعهم وأصلحوا

(١) . Histoire dumande Vo - 7 - P. 140 .

(٢) البقرة / ٢٧٣ .

(٣) تفسير القرطبي ٣ / ٣٤٠ - ٣٤٢ . والكشاف ١ / ٣٩٨ .

تجارتهم فأداروها وأمسكوا أيديهم عن البذل في سبيل الجهاد لكانت حالهم غير الحال التي ذكرتها الآية .

ولكن الواحد منهم لم يخرج لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها وإنما خرج جهاداً في سبيل الله وطمعاً في ثوابه بالجنة وخوفاً من عقابه بالنار . وقد حفظت لنا كتب المغازي والسير العجب عن تعفف هؤلاء المجاهدين عن الغنائم فلم يأخذ الأنصار رضوان الله عليهم من غنائم غزوات رسول الله شيئاً فقد تنازلوا عن غنائم بني النضير وقریظة وقينقاع وحنين الكثيرة كما قال ابن اسحق (فقد ذهب الناس بالشاة والبعير ورجعوا برسول الله إلى رحالهم)^(١) . وحسبنا ما قدمنا لقطع شبهات المستشرقين ومن لف لفهم ودار في فلکهم من المستغربين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

(١) سيرة ابن هشام ٤٩٩/٦ تحقيق الأبياري والسقا.

المراجع

- آثار الحرب في الفقه الإسلامي - دراسة مقارنة . د. وهبة الزحيلي . المكتبة الحديثة بدمشق . الطبعة الثانية سنة ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م .
- أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام ، د. عبد الكريم زيدان . دار المعارف بمصر .
- الأحكام السلطانية ، علي بن محمد - حبيب أبو الحسن البصري الماوردي - الطبعة المحمودية التجارية .
- أحكام القرآن للجصاص . مطبعة الأوقاف الإسلامية في دار الخلافة العلية سنة ١٣٣٥ هـ .
- إحياء علوم الدين للغزالي : المطبعة الأزهرية . ط ١ ، سنة ١٣٠٢ هـ .
- إرادة القتال في الجهاد الإسلامي ، اللواء الركن محمود شيت خطاب .
- إرشاد العباد إلى الغزو والجهاد لأبي البركات حافظ أحمد فخر الدين الفيضي ط ١ سنة ١٣٦٦ .
- الإسلام ظهوره وانتشاره في العالم ، حامد عبد القادر ، مكتبة نهضة مصر سنة ١٣٥٧ هـ - ١٩٥٦ م .
- الإسلام والعلاقات الدولية في السلم والحرب ، محمود شلتوت ، مطبعة الأزهر ، سنة ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م .
- الإمام بأحاديث الأحكام ، ابن دقيق العيد ، دار الفكر - بيروت سنة ١٣٨٣ هـ - ١٩٦١ م .
- الأم ، للشافعي .

- الأموال ، أبو عبيد القاسم بن سلام ، سنة ١٣٥٢ هـ .
- الجهاد ، محمد أبو زهرة ، المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الإسلامية سنة ١٩٦٨ م .
- الجهاد ، د. عبد الحليم محمود ، المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الإسلامية سنة ١٩٦٨ م .
- الجهاد ، د. عبد اللطيف السبكي ، المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الإسلامية سنة ١٩٦٨ م .
- الجهاد طريق النصر ، عبد الله غوش ، المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الإسلامية سنة ١٩٦٨ م .
- الجهاد في الإسلام ، محمد شديد ، مطبعة العالم العربي .
- الجهاد في الإسلام ماضيه وحاضره ، حامد مصطفى . منشورات مكتبة المتن بغداد .
- الجهاد في التفكير الإسلامي ، د. أحمد شلبي ، دار الاتحاد العربي للطباعة ط ١ . سنة ١٩٦٨ .
- الجهاد في سبيل الله ، أبو الأعلى المودودي ، القاهرة . لجنة الشباب المسلم .
- الجهاد في سبيل الله ، عبد الله عبد الغني حمادة ، المطبعة السفيرية بحلب .
- الدعوة المحمدية والقتال في الإسلام ، للإمام الشيخ محمود شلتوت - المطبعة السلفية سنة ١٣٥٢ هـ .
- رسالة القتال لابن تيمية ، ضمن مجموعة رسائل ، مطبعة السنة المحمدية سنة ١٣٦٨ هـ - ١٠٤٩ م .
- الرسالة الخالدة ، عبد الرحمن عزام ، مطابع الشعب سنة ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م .
- السر في انتشار الإسلام ، محمد أحمد عرفة ، مكتبة النهضة المصرية سنة ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١ م .
- سفر الزاد لسفرة الجهاد ، محمود الألوسي الحسيني ، مطبعة دار الإسلام سنة ١٣٣٣ هـ .
- السلام والحرب في الإسلام ، صاغ محمد فرج ، دار الفكر العربي سنة ١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠ م .

- الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام علي علي منصور ، دار ومطابع الشعب سنة ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م .
- العلاقات الدولية في الإسلام ، الشيخ محمد أبو زهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر سنة ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م .
- عناصر القوة في الإسلام ، الشيخ سيد سابق ، مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى سنة ١٣٨٢ .
- غاية الإرشاد إلى أحكام الجهاد ، فرج محمد غيث ، مطبعة الحلبي ، الطبعة الأولى سنة ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م .
- قانون الحرب والجهاد ، محمود سامي جنيته ، القاهرة سنة ١٩٤٤ م .
- قانون الحرب ، عبد العزيز علي ، مكتبة الأنجلو المصرية .
- القتال في الإسلام ، أحمد نار ، المكتب الإسلامي في حمص ، الطبعة الثانية سنة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .
- القتال في الإسلام ، عبد الوسيط أولوي ، القاهرة سنة ١٩٥٩ .
- المبسوط ، للسرخسي - القاهرة سنة ١٣٤٢ هـ .
- نظرية الحرب في الإسلام ، للشيخ مجد أبو زهرة ، دار القاهرة للطباعة .
- النظريات السياسية الإسلامية - ضياء الدين الريس ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٥ م .
- نظم الحرب في الإسلام ، جمال الدين عياد ، مطبعة الخانجي بمصر سنة ١٣٧٥ .
- الوحي المحمدي ، محمد رشيد رضا ، مطبعة صبح ط ٥٠ .
- سنة ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٥ م .

فهرست الموضوعات

٧ - ٥ المقدمة
٢٤ - ٩ التمهيد: مفهوم الجهاد في سبيل الله
١٣٩ - ٢٥ الفصل الأول: أنواع الجهاد
٤٢ - ٢٥ أولاً : مجاهدة النفس
٥٦ - ٤٢ ثانياً : مجاهدة الشيطان
٩٧ - ٥٦ ثالثاً : الجهاد بالمال
١٣٩ - ٩٧ رابعاً: الجهاد بالنفس
١٩١ - ١٤١ الفصل الثاني: بواعث الجهاد وغاياته
١٥٥ - ١٤١ أولاً : رد الاعتداء
١٧٢ - ١٥٥ ثانياً : حماية حرية نشر الدعوة
١٩١ - ١٧٣ مفتريات المستشرقين على الجهاد وأهدافه
٢٧٣ - ١٩٣ الفصل الثالث: عناصر النصر ومقوماته
٢١٦ - ٢٠٢ القوة المادية
٢١٦ - ٢٠٣ إعداد الرجال المقاتلين
٢٧٣ - ٢١٧ القوة الروحية
٣٣٩ - ٢٧٥ الفصل الرابع: الأسرى والغنائم والأنفال والفيء والجزية
٣٠٨ - ٢٧٧ الأسرى

٣١٥ - ٣٠٨	الأنفال
٣٢٢ - ٣١٥	الغنائم
٣٣٩ - ٣٢٢	الجزية
٣٤٣ - ٣٤١	المراجع
٣٤٦ - ٣٤٥	الفهرست





وما السبيل إلى عزة هذه الأمة ، وإلى تحقيق وحدتها وقوتها وجعلها أرقى الأمم؟ .

إن السبيل إلى ذلك يدل عليه كتاب الله تبارك وتعالى وسنة نبيه ﷺ ، فمن تمسك بهما فقد اهتدى ، ومن حاد عنهما فقد ضل وهلك :

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : « تركت فيكم أمرين ، لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ » (١) .

وبالرجوع إلى الكتاب والسنة تتحقق الوحدة بين الشعوب والدول المختلفة التي انقسمت إليها أمتنا ، لأن الوحدة أساس فيهما .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٩٢] .

وبهما تحققت الوحدة أول مرة . قال سبحانه :

﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

وبهما تتحقق الوحدة من جديد ، لأن فيهما من المبادئ والأحكام ما يجعل المواطنين إخوة متحابين ، ويقضي على كل عوامل النزاع والفرقة والانحلال .

وإذا ما رجعنا إلى الكتاب والسنة فإننا نجد فيهما منهجاً تربوياً قوياً ، يمكننا بالاهتداء بمعالمه أن نظهر مجتمعنا من أسباب الضعف والفساد ، وأن نقضي على نوازع الأثرة والفرقة ، وأن نصلح الأفراد والمجتمع في مدة لا تزيد على حياة جيل من الناس .

(١) رواه مالك في الموطأ .

وإذا ما رجعنا إلى الكتاب والسنة أيضاً فإننا نجد للجهد فيهما مكاناً في الذروة ، فهو الوسيلة للعزة والمنعة في الدنيا ، وللسعادة وبلوغ الدرجات العلى في الآخرة . فإذا ما ربينا أبناءنا على حبه ، ودرّبناهم على أساليبه ، ولم نتوان فيه ، أصبحنا أمة قوية ، وعادت لنا هيبتنا ، وأمكنا الانتصار على عدونا ، وتحرير ما اغتصب من أرضنا ، واسترجاع ما سلب من حقوقنا .

وبالاعتصام بالكتاب والسنة والنهوض إلى الجهاد في سبيل الله عز وجل يزول الوهن من قلوبنا ، ويقذف الرعب في قلوب أعدائنا ، وتعود لهذه الأمة مكانتها وعزتها : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

ولا يحسن أحد أن الاهتمام بالجهاد يسوغ التقصير في شيء مما تحتاج إليه الأمة في مجال الزراعة والصناعة والعمارة ؛ فإعداد القوة يكون بقضاء حاجات الناس وتوفير مرافق الحياة وإعداد كل ما هو ضروري في السلم والحرب . وقد أودع الله - تبارك وتعالى - في الأرض التي حباها لهذه الأمة الكثير من الثروات الطبيعية والمعادن المختلفة ، وجعل فيها أكبر مخزون للنفط في العالم ، وجعل تربتها خصبة ومناخها معتدلاً ومتنوعاً . وهذا يمكنها من إنتاج كل الحاصلات الزراعية التي تحتاج إليها ، وصنع كل الأجهزة والمعدات التي تؤدي إلى ازدهارها وقوتها :

﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَرُدُّوكَ إِلَىٰ عِلْبِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنشِرُكُمَا كَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٥] .

المصادر والمراجع

أ) القرآن الكريم والتفسير :

- ١- جامع البيان عن تأويل آي القرآن/ تأليف أبي جعفر ، محمد بن جرير الطبري ، مطبعة مصطفى الحلبي بمصر ١٣٧٣هـ .
- ٢- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل/ تأليف أبي القاسم ، محمود بن عمر الزمخشري - دار الفكر ١٣٩٩هـ .
- ٣- الجامع لأحكام القرآن/ القرطبي - مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٥٤م .
- ٤- تفسير القرآن العظيم/ لابن كثير - المكتبة التجارية الكبرى بمصر .
- ٥- أنوار التنزيل وأسرار التأويل/ عبد الله بن عمر البضاوي ، مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع : بيروت .
- ٦- تفسير آيات الأحكام/ الشيخ محمد علي السائس - مطبعة محمد علي صبيح بمصر ١٣٧٣هـ .

ب) السنة النبوية وشروحها :

- ١- فتح الباري شرح صحيح البخاري/ لابن حجر العسقلاني - دار المعرفة : بيروت .
- ٢- صحيح مسلم ؛ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث العربي ، ١٣٧٥هـ .
- ٣- صحيح مسلم بشرح النووي - دار إحياء التراث العربي - بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ .

- ٤- سنن أبي داود ؛ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - المكتبة التجارية بمصر .
- ٥- سنن الترمذي - مطابع الفجر : حمص ١٣٨٧ هـ .
- ٦- سنن النسائي - المطبعة المصرية بالأزهر .
- ٧- سنن ابن ماجه ؛ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث العربي .
- ٨- الموطأ/ الإمام مالك بن أنس ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء الكتب العربية ١٣٧٠ هـ .
- ٩- مسند الإمام أحمد بن حنبل - المكتب الإسلامي ودار صادر : بيروت .
- ١٠- السنن الكبرى/ لأحمد بن الحسين البيهقي - الطبعة الأولى بحيدر آباد ١٣٥٦ هـ .
- ١١- المستدرک على الصحيحين للحاكم النيسابوري - طبعة حيدر آباد ١٣٣٤ هـ .
- ١٢- سنن الدارمي - دار إحياء السنة النبوية .
- ١٣- مسند أبي يعلى الموصلي التميمي ، تحقيق حسين سليم أسد - دار المأمون للتراث ١٤٠٤ هـ .
- ١٤- موازد الظمآن إلى زوائد ابن حبان/ للحافظ علي بن أبي بكر الهيثمي ؛ تحقيق محمد فؤاد عبد الرزاق حمزة - المطبعة السلفية .
- ١٥- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد/ علي بن أبي بكر الهيثمي - دار الكتاب : بيروت طبعة ثانية ١٩٦٧ م .
- ١٦- جامع الأصول في أحاديث الرسول/ لابن الأثير الجزري ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط - مطبعة الملاح ١٣٩٢ هـ .
- ١٧- التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول/ تأليف الشيخ منصور علي ناصف ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٨١ هـ .
- ١٨- سبل السلام شرح بلوغ المرام/ للسيد محمد بن إسماعيل الصنعاني - مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر - الطبعة الرابعة ١٣٧٩ هـ .

- ١٩- مشكاة المصابيح/ تأليف محمد بن عبد الله الخطيب العمري التبريزي ،
تحقيق محمد ناصر الألباني - منشورات المكتب الإسلامي بدمشق .
- ٢٠- نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار/ تأليف محمد بن
علي الشوكاني - مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ، طبعة ثالثة ١٣٨٠هـ .

جـ (كتب الفقه :

- ١- الأم/ الإمام محمد بن إدريس الشافعي ، دار المعرفة . بيروت .
- ٢- تحفة الفقهاء للسمرقندي ، تحقيق وتخريج الأستاذ محمد المنتصر الكتاني
والدكتور وهبة الزحيلي - دار الفكر بدمشق .
- ٣- الهداية شرح بداية المبتدي للشيخ أبي الحسن المرغيناني - دار الكتب
العلمية : بيروت .
- ٤- بداية المجتهد ونهاية المقتصد لمحمد بن أحمد ، ابن رشد القرطبي - مطبعة
مصطفى البابي الحلبي بمصر - طبعة ثالثة ١٣٧٩هـ .
- ٥- المغني لابن قدامة - دار الكتاب العربي : بيروت ١٣٩٢هـ .
- ٦- الفقه الإسلامي/ د . إبراهيم سلقيني - مطبعة جامعة دمشق ١٤٠٨هـ .
- ٧- المختصر النافع في فقه الإمامية/ للشيخ جعفر بن الحسن الحلبي - الطبعة
الثانية - طهران .
- ٨- المبسوط للسرخسي - دار المعرفة : بيروت .
- ٩- المدونة الكبرى للإمام مالك بن أنس - دار صادر : بيروت .

د (كتب السيرة والتاريخ الإسلامي :

- ١- تاريخ الرسل والملوك/ محمد بن جرير الطبري - دار المعارف بمصر
١٩٦٠م .
- ٢- السيرة النبوية لابن هشام ؛ تحقيق مصطفى السقا وآخرين - الطبعة الثانية
١٣٧٥هـ .

- ٣- تهذيب سيرة ابن هشام ؛ عبد السلام هارون .
- ٤- المغازي للواقدي ؛ تحقيق د . مارسدن جونز - مطبعة جامعة اكسفورد
١٩٦٦ م .
- ٥- السيرة النبوية لابن كثير ؛ تحقيق مصطفى عبد الواحد - دار المعرفة بيروت
١٣٩٦ هـ .
- ٦- السيرة الحلبية (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون) / لعلي بن برهان
الحلبي وبهامشه السيرة المحمدية والآثار النبوية للسيد أحمد زيني دحلان - المكتبة
الإسلامية : بيروت ١٣٢٠ هـ .
- ٧- زاد المعاد في هدي خير العباد/ لابن قيم الجوزية - الطبعة الثانية ١٣٩٢ هـ .
- ٨- تاريخ الخلفاء/ جلال الدين السيوطي ، تحقيق محمد محيي الدين عبد
الحميد - مطبعة السعادة بمصر ١٣٧١ هـ .

هـ) كتب متنوعة :

- ١- كتاب الجهاد/ تأليف الإمام عبد الله بن المبارك ؛ تحقيق نزيه حماد ، نشر دار
النور ، بيروت ١٣٩١ هـ .
- ٢- كتاب الجهاد وكتاب الجزية وأحكام المحاربين من كتاب اختلاف الفقهاء لأبي
جعفر ، محمد بن جرير الطبري ؛ عني بنشره يوسف شخت - مكتبة بريل في مدينة
ليدن ، ١٩٣٣ م .
- ٣- مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق ومثير الغرام إلى دار السلام في فضائل
الجهاد تأليف أحمد بن إبراهيم بن محمد الدمشقي ثم الدمياطي المشهور بابن
النحاس ؛ تحقيق إدريس محمد علي ومحمد خالد إسطنبولي - دار البشائر
الإسلامية ، طبعة أولى ١٤١٠ هـ .
- ٤- آثار الحرب في الفقه الإسلامي/ د . وهبة الزحيلي - دار الفكر : دمشق
١٨٣١ هـ .
- ٥- الإسلام دين الجهاد لا العدوان/ د . وهبة الزحيلي - نشر جمعية الدعوة
الإسلامية ، طرابلس - طبعة أولى ١٩٩٠ م .

٦- أولو العزم من الرسل/ عمر أحمد عمر- دار حسان للطباعة والنشر
١٤٠٩هـ .

٧- السنن الإلهية في النفس البشرية/ عمر أحمد عمر - دار حسان للطباعة والنشر
١٤١٢هـ .

٨- الثورة الإسلامية في إيران/ جعفر حسين نزار - طبعة الثالثة ١٤٠٤هـ .

و (المعاجم والتراجم :

١- معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ، تحقيق نديم مرعشلي - دار
الكتاب العربي .

٢- القاموس المحيط/ الفيروز آبادي .

٣- تاج العروس/ الزبيدي .

٤- لسان العرب/ ابن منظور - دار صادر : بروت .

٥- الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني - المطبعة الشرفية ١٣٢٥هـ .

٦- تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني - مطبعة حيدر آباد - الطبعة الأولى
١٣٢٥هـ .

٧- أسد الغابة لابن الأثير .

* * *

المحتوى

المقدمة ٩

الفصل الأول

الجهاد ومنزلته وأهدافه والحكمة منه

- المبحث الأول : تعريف الجهاد ١٥
المبحث الثاني : سبيل الله ١٧
المبحث الثالث : الجهاد ذروة سنام الإسلام ٢١
المبحث الرابع : الجهاد باب من أبواب الجنة ٢٤
المبحث الخامس : الحكمة من الجهاد ٢٧
المبحث السادس : أهداف الجهاد ٣٠

الفصل الثاني

أحكام الجهاد

- المبحث الأول : الإذن بالقتال ٤٣
المبحث الثاني : الأمر بالقتال ٤٥
المبحث الثالث : حكم الجهاد ٤٨
المبحث الرابع : المكلفون بالقتال ٥٠
المبحث الخامس : سن المقاتل ٥٣
المبحث السادس : جهاد النساء ٥٥
المبحث السابع : الاستعانة بغير المسلمين في الجهاد ٥٨

٦١	المبحث الثامن : الجهاد مع الحاكم الجائر
٦٢	المبحث التاسع : أمد الجهاد
٦٦	المبحث العاشر : القتال في الأشهر الحرم
٧٣	المبحث الحادي عشر : القتال في الحرم
٧٤	المبحث الثاني عشر : أنواع الجهاد

الفصل الثالث

تربية المجاهدين

٨٣	المبحث الأول : الجهاد شعبة من الإيمان
٨٥	المبحث الثاني : البيعة على الجهاد
٨٨	المبحث الثالث : الجهاد هجرة وسياحة
٩١	المبحث الرابع : الجهاد أفضل من الانقطاع للعبادة
٩٤	المبحث الخامس : الجهاد أفضل من القيام والصيام
٩٧	المبحث السادس : فضل الجهاد على الحج
١٠١	المبحث السابع : الجهاد أفضل الأعمال
١٠٢	المبحث الثامن : إذن الأبوين للجهاد
١٠٤	المبحث التاسع : فضل الغدوة والروحة في سبيل الله
١٠٧	المبحث العاشر : فضل الغبار في سبيل الله
١١٠	المبحث الحادي عشر : فضل الرباط في سبيل الله
١١٤	المبحث الثاني عشر : فضل المجاهدين ومنزلتهم
١٢٠	المبحث الثالث عشر : فضل الشهداء ومنزلتهم
١٢٥	المبحث الرابع عشر : درجات الشهداء
١٢٩	المبحث الخامس عشر : ما تحصل به الشهادة
١٣٤	المبحث السادس عشر : أقسام الشهداء وأحكامهم
١٣٦	المبحث السابع عشر : لذة الشهادة

- المبحث الثامن عشر : التحذير من التقاعس عن الجهاد ١٣٩
- المبحث التاسع عشر : دفع الخوف من الموت ١٤٥
- المبحث العشرون : الإنفاق في سبيل الله ١٤٧
- المبحث الحادي والعشرون : إعداد القادة ١٥٥
- المبحث الثاني والعشرون : بطولات وتضحيات ١٥٨

الفصل الرابع

الإعداد للقتال

- المبحث الأول : إعداد الخيل والسلاح ١٦٩
- المبحث الثاني : التدريب على استعمال الأسلحة وفنون القتال ١٧١
- المبحث الثالث : تجهيز الغزاة وخدمة أهليهم ١٧٤
- المبحث الرابع : عدد أفراد الجيش والسرية ١٧٦
- المبحث الخامس : اختبار المقاتلين ١٧٨
- المبحث السادس : استطلاع أخبار العدو ١٨١
- المبحث السابع : الدعوة إلى الإسلام قبل القتال ١٨٣
- المبحث الثامن : وقت القتال ١٨٨

الفصل الخامس

أحكام المعركة

- المبحث الأول : خداع العدو ١٩٣
- المبحث الثاني : تحريم الغدر والخيانة ١٩٧
- المبحث الثالث : آداب القتال ٢٠٢
- المبحث الرابع : عوامل النصر ٢١٢
- المبحث الخامس : صلاة الخوف ٢٣٢
- المبحث السادس : المكث في ساحة المعركة ٢٣٦

الفصل السادس

آثار الحرب

٢٣٩	المبحث الأول : الأسرى
٢٥٢	المبحث الثاني : السبي
٢٥٥	المبحث الثالث : الغنائم
٢٦٦	المبحث الرابع : الفبيء
٢٦٩	المبحث الخامس : الغلول
٢٧٦	المبحث السادس : إباحة الطعام في أرض العدو
٢٨٢	المبحث السابع : استعمال سلاح العدو وآلياته
٢٨٦	المبحث الثامن : الجزية

الفصل السابع

نتائج الجهاد

٢٩٥	المبحث الأول : دحر اليهود
٣٢٤	المبحث الثاني : قهر الكفار
٢٣٦	المبحث الثالث : انتصار المؤمنين
٣٤٠	المبحث الرابع : ظهور الإسلام
٣٤٤	المبحث الخامس : نشر السلم والأمن
٣٤٨	خاتمة
٣٥١	المصادر المراجع
٣٥٧	المحتوى

* * *